سياسة الدول الإسلامية في حوض البحر المتوسط

من أوائل القرن الثاني الهجري حتى نهاية العصر الفاطمي



دكتور صابر محمد دياب

عالم الكتب

سياسة الدول الإسلامية في حوض البحر المتوسط

من أوائل القرن الثاني الهجري حتى نهاية العصر الفاطمي

تأليف

دكتور صابر محمد دياب

مدرس التاريخ الاسلامى
بكلية الآداب – جامعة القاهرة بالخرطوم

طبعة أولى — ١٩٧٣

الناشر



بسم الله الرحمن الرحيم

« إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما، وينصرك الله نصراً عزيزاً » .

[صدق الله العظيم]

الإهداء

إلى أرواح شهـــداء الإسلام والعروبة

وإلى كل المخلصين من أبناء العالم الإسلامى

أقدم هـــذا الكتاب .

المؤلف

تصدير

يسرنى أن أقدم إلى قراء العربية ، كتاباً ممتعاً عن « سياسة الدول الإسلامية فى حوض البحر المتوسط من أوائل القرن الثانى بعد الهجرة حتى نهاية العصر الفاطمى » ، تناول الباحث موضوعه فى خمسة أبواب ، بحث فى الباب الأول البحرية الإسلامية فى حوض البحر المتوسط حتى قيام الخلافة الفاطمية بالمغرب . ومهد لذلك بالتحدث عن البحرية الإسلامية فى أخريات العصر الأموى ، ثم تناول البحرية الإسلامية من بداية العصر العباسى حتى آخر القرن الثالث الهجرى . فوضح نشاط القوات البحرية بالشام ومصر فى حوض البحر المتوسط الشرقى ، وشرح أحداث الفتح الإسلامى لكل من جزيرة كريت وجزيرة صقلية ، فبين كيف استطاع المسلمون السيطرة على كريت . أما فيما يتعلق بصقلية ، فتتبع جهود الأغالبة فى فتح مدنها وحصونها .

وفى الباب الثانى عنى الباحث بدراسة اهتمام خلفاء الدولة الفاطمية فى المغرب بإنشاء الموانى البحرية وتحصينها ، كما بين ماترتب على ظهور قوة الفاطميين البحرية فى وسط وغرب البحر المتوسط من تنازع وتنافس بينهم وبين الأمويين بالأندلس . ثم شرح أهمية كريت بالنسبة للفاطميين ، كما وضح حرصهم على الاحتفاظ بسيادتهم على جزيرة صقلية ، واهتمامهم باختيار ولاتها ، وتتبع علاقتهم بها حتى تمكن النرمنديون من بسط سلطانهم عليها فى أواخر القرن الخامس الهجرى .

وتناول المؤلف فى الباب الثالث نشاط الفاطميين بمصر والشام فى حوض البحر المتوسط ، فبين مدى اهتمامهم بإعداد القوات البحرية وبناء الأساطيل . وعرض لعناية الفاطميين بموانيهم على البحر المتوسط مثل الاسكندرية

ودمياط وتنيس فى مصر ، وطرابلس وصور وعسقلان فى الشام ، ونوّه بحرصهم على تدعيمها وتحصينها لدرء الأخطار عن دولتهم .

ومما يذكر للمؤلف مابذله فى الباب الرابع من جهد مشكور فى دراسة علاقات الفاطميين فى مصر والشام مع كل من الدولة البيزنطية والمدن الإيطالية ، فتتبع تطورها حتى آخر العصر الفاطمى . وبين كيف كانت العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين غير مستقرة على حال ؛ فتارة يغلب عليها الهدوء ويسودها السلام نتيجة ما كان يعقد بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية من معاهدات صلح أو هدنات سلام ، وطوراً يسودها التوتر والعداء . أما عن العلاقات بين الفاطميين والمدن الإيطاليـــة (أمالفى - وبيزا - وجنوة - والبندقية) ، فكان يغلب عليها الطابع التجارى . ونوه المؤلف بحرص هذه المدن على الحصول على تسهيلات وامتيازات تجارية فى بلدان الدولة الفاطمية . كما تحدث عن انحيازها إلى الصليبيين بعد أن ضعف شأن الخلافة الفاطمية ، فأسهم بعضها فى الحملات الصليبية التى أغارت على مدن الشام ومصر فى أواخر العصر الفاطمى .

وفى الباب الخامس ، وجه المؤلف اهتمامه إلى دراســـة انحلال الدولة الفاطمية وأثره على نشاطها البحرى فى شرق البحر المتوسط ، فعرض لمظاهر إنحلال هذه الدولة ، وشرح ماترتب على الضعف الذى انتاب الدولة الفاطمية من تدهور قوتها البحرية وتقلص نفوذها فى شرق البحر المتوسط ، الأمر الذى أدى إلى عجزها عن الاحتفاظ بما تبقى لها من سلطان على بلاد الشام مما أتاح للصليبيين الذين استولوا على بيت المقدس الفرصة لمهاجمة المدن الساحلية بالشام ، وضمها إلى حوزتهم .

وليس من شك فى أن المؤلف بذل جهداً كبيراً فى بحث موضوع جديد ورجع فى إعداده إلى مصادر مختلفة عربية وأوربية . وقام بهذه الدراسة

الجادة فى منهج علمى سليم . واستطاع باستقصائه الحقائق التاريخية وتنظيمها بأسلوب واضح ، أن يكشف عن سياسة الدول الإسلامية فى حوض البحر المتوسط إلى أواخر العصر الفاطمى .

وإنا لنأمل فى المؤلف ألا يقف جهوده عند هذا الحد ، وأن يجعل ذلك العمل العلمى القيم الذى أنجزه ، بداية لبحوث أخرى فى تاريخ الدولة الإسلامية وحضاراتها .

والله تعالى يوفقه ويسدد خطاه .

محمد جمال الدين سرور
أستاذ التاريخ الاسلامى
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

القاهرة فى { ١٥ جماد آخر ١٣٩٣
١٥ يوليـة ١٩٧٣

تقـــديم

لئن بلغ المؤرخ غايته المثلى من خلال متابعة قصة الإنسان ونشاطه على الأرض أو فى إطار مساحات محددة على أمل استخلاص النتائج التى تمثل قبساً من ضوء يستضىء به المتطلع إلى المستقبل ، فإن الجغرافى ينطلق من منطلق آخر مستهدفاً غايات ونتائج هامة أخرى . وتتمثل هـذه الغايات والنتائج من خلال دراسات موضوعية موسعة بقدر ماهى عميقة تلقى الضوء على المسرح الذى يشهد تلك القصة مشاهداً وفصولا على امتداد الزمان وما من شك فى أهمية هذا الدور الوظيفى للجغرافية على اعتبار أنها :

١ — تمكن من إلقاء الضوء على المكان على اتساعه .

٢ — تحدد أبعاد الخلفية التى تصوغها أبعاد العامل الجغرافى .

٣ — تقدم الإضافة من رصيد عن الواقع الطبيعى بما قد يفسر أو يقيم سياق الأحداث التاريخية ونتائجها العامة والخاصة . وتقدم الإضافة من رصيد عن الواقع البشرى بما يكتب عن نمط الناس وهم يعيشون سياق التاريخ .

ولا يجب أن نقلل من قيمة تلك الخلفية الجغرافية أو أن نتناساها لأن قصة التاريخ تتأتى على الأرض ولا يخل الأمر من تأثير مباشر أو غير مباشر على سياقها يفرضه المسرح . ويمكن القول أن التفسير التحليلى لا يتأتى إلا من خلال إحاطة بالعوامل الجغرافية أو ما يسمى أحياناً بالبعد المكانى ، وهذا على كل سبيل تتواصل فيه مهمة الجغرافى ومهمة المؤرخ . وقد يبدو الأمر أحياناً وكأن عمل الجغرافى مقدمة وركيزة أساسية يتحتم على المؤرخ أن يرتكز إليها وأن ينطلق بحثه منها .

ويسعدنى فى بحث يتخذ من البحر المتوسط موضوعاً مشوقاً لدراســـة

هادفة تغطى مشاهداً وفصولا من قصة العلاقات الدولية على مستوى التجارة مرة وعلى مستوى السياسة مرة أخرى وعلى مستوى الاحتكاك الحضارى مرة ثالثة فى فترة زمنية معينة ، أن أقدم له وأن أكشف الغطاء عن عمل مفيد وجهد صادق . وليس أصدق ولا أفيد من أن يتمكن الباحث من تصوير قصة العلاقات الدولية على كل تلك المستويات وأن يسجل إضافة فى تعميق المعرفة بالدور الرائد الذى مارس المسلمون به تلك العلاقات ، وأن يحقق الفعل ورد الفعل فى استراتيجيات الحركة والاتصال والتفاعل بين المسلمين وغير المسلمين ممن عاشوا القصة فى هذا البحر .

ومها يكن من أمر فإن من يضع البحر المتوسط فى دائرة اهتمامه يجب أن يفطن إلى ما يأتى :

أولا : أن هذا المسطح المائى كمسرح لنشاط الإنسان والعلاقات الدولية قد شهد من قبل هذه الفترة الزمنية التى اهتم بها الباحث فصولا كثيرة مثلما شهد من بعدها فصولا كثيرة أخرى ، وهذا معناه أنه كان مسرحاً ومازال لقصة طويلة موصولة أطرافها وكانت صفاته وخصائصه تلعب دوراً وتؤثر بطريقة أو بأخرى على سياق الأحداث وشكل وطبيعة وأبعاد العلاقات الدولية فى كل مرحلة أو فصل من فصول تلك القصة .

ثانياً : أن هذا المسطح المائى كمسرح لنشاط الإنسان والعلاقات الدولية كان ومازال يمثل النافذة التى تطل بها وتتواصل العلاقات بين الأمم والشعوب فى قارات ثلاث تعرف حينا باسم العالم القديم وتعرف أحياناً بجزيرة العالم . ومن خلال هذه النافذة العريضة كان اللقاء وتكون كل التحركات على كافة المحاور والاتجاهات . ومن ثم كان ذلك مدعاة إلى قسط كبير من الترابط بين قصة الإنسان وتاريخه وسياق الأحداث فى العلاقات بكل مستوياتها فى فى كل من أفريقية وآسيا وأوروبا . ويمكن القول أن شعبا أو أمة أطلت أو

أو تطل على هذا البحر لا يمكن أن توليه ظهرها أو أن تستدبره . بل لعله كان ومازال يشدها وكأنه القطب المغناطيسى . ومن ثم يكون التفاعل والتأثير المتبادل مثلما تكون سياق الأحداث موصولة بذلك التفاعل أو التأثير .

ثالثا : أن هذا المسطح المائى كمسرح لنشاط الإنسان والعلاقات الدولية تطل عليه وتحتضنه مساحات الأرض والأوطان التى حظيت بالأصول العريقة والموصولة حلقاتها لسياق حضارى متناسق بقدر ما هو رتيب . وسواء كانت تلك المساحات والأوطان فى الظهير الأفريقى أو فى الظهير الآسيوى أو فى الظهير الأوروبى من حول البحر المتوسط ، فإنه بوضعه العـــام وامتداده وخصائصه الجغرافية كان يدعوها لأن تتفاعل ويحفزها لأن تحتك احتكاكا حضاريا مؤثراً بطريقة أو بأخرى . ومن ثم كان البحر المتوسط ومازال مركزاً من أهم وأخطر مراكز الثقل فى تاريخ الحضارة البشرية وحياة الإنسانية بصفة عامة . ولعلنا نتبينه منذ وقت سحيق بؤرة تتجمع من حوله حضارات ومدنيات مثلما نتبينه امتداداً لمحاور حركة وتحركات التجارة دولية وتبادل تجارى بين الدول والأوطان . وربما كان إن لم يكن أقدم مسطحات الماء التى عرفت الإنسان ملاحا وشهدت تحركاته فى خدمة التجارة الدولية . ولئن اتسعت معرفة الإنسان من بعد بمسطحات الماء وازدادت قدرته على توسيع دائرة التجارة الدولية فإن البحر المتوسط مازال مهما وخطيراً فى هذا المجال . ويكاد يحتل قمة عظمى ومازالت تتعاظم فيما بين كل المسطحات المائية من وجهات النظر الاقتصادية مرة ومن وجهـــات النظر السياسية والاستراتيجية مرة أخرى .

وبعد . أى بحر هذا الذى كانت أهميته موصولة لا تكاد تنقطع ، وأى مسطح مائى ذلك الذى احتفظ بقيمته كمركز من أخطر مراكز الثقل الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية . ولا حيلة إلا أن نتلمس أبعاد الواقع

الجغرافى الذى كفل ويكفل تلك الأهمية وهذه القيمة العظمى . وليس من قبيل الحتم على وجه الإطلاق أن نتحسس أبعاد هذا الواقع ولكنه السبيل الأمثل لكى نتبين أثر البحر الخطير فيما تأتت من أوضاع ونتائج متنوعة تجلت فيما أشرنا إليه بشأن نشاط الإنسان والعلاقات الدولية على كافة المستويات من جانب وعلى امتداد الزمان وتعاقب العصور من جانب آخر .

وما من شك فى أن البحر المتوسط كذراع مائية تمتد على محور عام من الغرب إلى الشرق قد أوغلت بالفعل على محور أمثل وفى موضع أفضل . ولو تصورناه — جدلا — فى موضع آخر غير هذا الموضع وممتداً على المحور العام من الغرب إلى الشرق شمال هذا الموضع ببضعة مئات الكيلومترات — من بحر الشمال إلى امتداد السهل فى أوكرانيا ، أو ممتداً جنوب هذا الموضع بضعة مئات الكيلومترات من موريتانيا إلى النوبة فى شمال السودان لكانت الصورة غير الصورة وتبدلت النتائج واختلفت كثيراً عما نعرفه وحفلت به سجلات تاريخ البحر المتوسط والمجموعة العظمى من الأمم التى شهد نشاطها. ولو تصورناه مرة أخرى — جدلا — غير قائم بالفعل كذراع هائلة من المسطح المائى موغلة فى جسم اليابس العظيم المعروف بجزيرة العالم لافتقدنا عندئذ أعظم وأخطر محور للحركة المرنة التى مكنت وتمكن من الترابط والاتصال بين مساحات هائلة من الأرض أتيح لها أن تشهد نبتات الحضارات المبكرة للإنسانية جمعاء . بل ربما افتقدت هذه المساحات بعض الخصائص التى أهلتها لأن تكون التربة الصالحة لنمو الحضارة نمواً رأسياً ولانتشارها انتشاراً أفقياً ، وهذا معناه أن امتداد ذراع الماء فى جسم جزيرة العالم وتوغل البحر المتوسط وقد أحدقت به سلاسل الجبال الوعرة فى جنوب أوروبا ومجموعة أشباه الجزر من شمال ومساحات الأرض الأفريقية بما فيها الصحراء الممتدة من جنوب قد أتاح ويتيح أهم محور حركة على الإطلاق بين مساحات كبيرة فى كل من أوروبا وآسيا وأفريقية . وكانت مدعاة لأن تكون

الأرضية الصالحة فى ظل واقع جغرافى متميز رسم وحدد الإطار العام والخطوط الأساسية للمنطلقات التى تداعت وتدافعت منها وفيها الأحداث والتحركات التى صاغت وتصوغ حركة التاريخ ، وإلا فقد كان من الضرورى أن تكون هذه الحركة على محور أو محاور أخرى ليس سهلا إمكان استخدامها للوصل والاتصال والربط والارتباط بين أقصى الغرب من أرض وسكان جزيرة العالم وبين أقصى الشرق من أرض وسكان جزيرة العالم .

ولئن فرض امتداد البحر المتوسط تلك النتيجة الهامة فإن قيمته تتصاعد إلى درجة أعظم من حيث مرونة الحركة نتيجة لاقترابه من رأس ذراعين مائيتين تتوغلان فى جسم اليابس على محاور عامة فى اتجاه الشمال والشمال الغربى هما البحر الأحمر والخليج العربى . ذلك أن هذا التقارب بين رؤوسها قد مكن للسطح المائى من أن ينهض بمهمة خطيرة كمحاور حركة فى موضع حساس من قلب اليابس الضخم . وباحث من الباحثين لا يستطيع أن يغفل أو يهمل أهمية هذه الأذرع المائية التى كانت ولازالت بعداً هاماً من الأبعاد التى صاغت الخلفية الجغرافية لتصاعد وتعاظم قيمة مساحات الأرض التى توغل فيها وتطل عليها من وجهات النظر المختلفة . بل لعلها كانت أخطر الأبعاد التى هيأت للإنسان فيها فرصة أن يلعب دوراً خطيراً فى خلق وإبداع الحضارة مثلما هيأت وأهلت الأرض لأن تكون مصدراً مشعاً للاشعاع الحضارى على مدى الزمن .

ومهما يكن من أمر فإن امتداد البحر المتوسط فى موقعه وموضعه هذا جعل منه موضعاً للالتقاء بين شرق وغرب فكان الاحتكاك الحضارى مرة جعل منه موضعاً لحركة مرنة خدمة التجارة الدولية . وقد تأتى ذلك من خلال جملة محاور محددة نتابعها فيما يلى :

١ — محور حركة على من الغرب إلى الشرق يتيح فرص الربط المباشر

بين مساحات الأرض فى الظهير المباشر الذى يطل على سطح الماء فيه . وربما أفادت هذه الحركة من وجود مجموعة الجزر وانتشارها على اعتبار أنها تمثل نقط الارتكاز أو المعابر الأرضية. وهذا معناه أن الحركة كانت تتكىء عليها وهى تتجه من الغرب إلى الشرق مثلما تتكىء عليها وهى تتجه من الجنوب إلى الشمال. وهذا معناه أنه عصب الحركة والتحركات ووسيلة الترابط والاتصالات التى تأتت منذ وقت بعيد بين سكان حوض البحر المتوسط. وأدت إلى درجة من درجات الاحتكاك الحضارى والتكامل الاقتصادى .

٢ — محاور حركة على المدى الأوسع فى مساحات من الظهير غير المباشر. فتأتى على امتدادات واتجاهات شمالية أو جنوبية وتنتهى إليه من الأرض الاوروبية فيما وراء سلاسل الجبال أو من الأرض الأفريقية فيما وراء الصحراء أو من الأرض الآسيوية فيما وراء الهضاب والمرتفعات الوعرة . ويمكن أن نتبين ثمة ثغرات محددة كانت ومازالت تحدد امتداد تلك المحاور بشكل بارز . وهى على الأرض الأوربية تتمثل فى الثغرات التى تتوغل بها أذرع من البحر المتوسط مثل البحر الأسود وبحر إيجة وبحر الأدرياتيك مثلما تتمثل فى الثغرات التى يخلفها جريان الأنهار والوديان النهرية كتلك التى تظهر فى قلب البلقان أو فى وادى الرون ووادى الجارون . وتتمثل الثغرات مرة ثالثة فى مواقع الممرات التى تخترق صلب الجبال الناهضة الوعرة وتتيح الحركة من وإلى القلب الأوروبى شمال الجبال . وفى الأرض الافريقية تكون المحاور موغلة فى قلب الصحراء المقفرة ويحدد امتدادها مرور الماء وانتشاره فى مواقع محددة مثلما تكون مرتبطة بجريان نهر عظيم هو النيل الذى يعبر الصحراء ويتيح الاتصال والحركة فيما بين مساحات الأرض التى تستقبل المطر الصيفى ومن ورائها القلب الأفريقى النابض بالغنى والحياة وبين الجبهة التى تطل بها الأرض المصرية على المصرية على البحر المتوسط . وفى الأرض الآسيوية تكون المحاور موغلة من قلب آسيا فى اتجاه الغرب ولئن تحركت على امتداد

السهل وانتشاره الواسع فإنها تنتهى إلى البحر الأسود وتتصل بحركة الملاحة فيه إلى البحر المتوسط . ومع ذلك فإنها تتحرك أيضاً عبر الأرض الوعرة فى هضاب القارة لكى تنتهى إلى الجهة العريضة التى تقع فى ظهيرها المباشر أرض الشام أو الأرض فى شبه جزيرة آسيا الصغرى . وهذه المحاور فى جملتها وعلى مدى امتدادها فى كل أرض تضع البحر المتوسط فى مركز القلب من حيث الاتصال فيما بينها ومن حيث احتمالات التأثير المباشر أو غير المباشر على سير الأحداث فيه .

٣ — محور حركة على المدى العالمى هائل كان ومازال يمثل أعظم طريق يخترق جزيرة العالم ويمر فى أحرج المساحات منها من حيث صفات وخصائص الأرض . ويتأتى هذا المحور من خلال امتداد ذراع البحر المتوسط واقتراب نهايته الشرقية من ذراعى البحر الأحمر والخليج العربى .

ولئن كان ثمة فاصل أرضى بين رؤوسها بما لايزيد عن حوالى ٢٥٠ كيلو متراً فإنها قد مكنت دائماً من حركة مرنة تكفل الاتصال بين حوض المحيط الهندى ومساحات كل الأراضى التى تطل عليه فى كل من شرق أفريقية وجنوب وجنوب شرق آسيا ومجموعات الجزر بما فيها استراليا من ناحية ، وبين حوض الأطلنطى الشمالى بما يطل عليه من أرض فى كل من أوروبا الغربية وأفريقيا الشمالية وأمريكا الشمالية والوسطى . وقد شهد البحر المتوسط الحركة على هذا المحور العالمى فى كل وقت من الأوقات ومنذ أن اتسعت دائرة التجارة الدولية لكى تكون بين المساحات من حول المحيط الهندى وبين المساحات من حول المحيط الأطلنطى الشمالى . ويستوى فى ذلك أن تكون قناة السويس فتسهل الحركة وتفرض الترابط بين الملاحة الحرة فيما بين البحر المتوسط والبحر الأحمر أو ألا تكون قد فتحت للملاحة البحرية . ويحق لنا فى هذا الموضع أن نشير إلى أن كثافة الحركة على هذا المحور وأهميتها قد مكنت الأرض التى تقع عند اقتراب رؤوس البحر المتوسط

والبحر الأحمر والخليج العربى صفة الموقع الجغرافى الحاكم Commanding . ومن ثم تصاعدت أهمية البحر المتوسط والبحر الأحمر كطريق للملاحة مرة وكعمق استراتيجى خطير مرة أخرى .

وهكذا كانت هذه المحاور المتنوعة للحركة (١) على المستوى المحلى المسوى أو الأوسع فى إطار جزيرة العالم أو فى المستوى العالمى مدعاة لأن يكتسب البحر المتوسط قيمته العظمى من وجهة النظر الحضارية على اعتبار أنه يتيح الفرص للاحتكاك الحضارى وإشاعة الحضارة مثلما كانت مدعاة لأن يكتسب قيمته العظمى على اعتبار أنه يتيح الفرصة لتجارة دولية متزايدة بين الأمم والشعوب فى مساحات الأرض والمدنيات المتباينة . وكأنه بذلك كان مطية لكثير مما دعا لتبادل المنافع بين الناس ومن ثم لم يكن غريبا أن تكون له فى التاريخ قصة وأن يشهد فصولا للنشاط وعلاقات دولية فى كل الأوقات وتحت كل الظروف .

تلك — على كل حال — خلفية جغرافية تجمع شتات بعض الأبعاد التى تحقق صياغة متميزة للواقع الطبيعى . وما من جدل فى أنها كانت فى ضمير صاحب هذا البحث وهو يعالج بالتحديد دور المسلمين فى البحر المتوسط فى فترة زمنية معينة . بمعنى أنه كان يتحدث عن هذا الدور ويحدد أبعاده ويجمع شمل نتائجه وهو مرتكز إلى أرضية صلبة تحيطه علما بالأهمية العظمى للبحر المتوسط وتمكنه من تفسير واقعى لتلك الأهمية وانفعال الإنسان بها وتأثيره على خط

---

(١) نشير أن الحركة كانت أيضاً على محاور أرضية ولنذكر فى هذا المجال رحلة الشتاء ورحلة الصيف التى كانت تتخذ من مكة (أم القرى) نقطة للبداية . وكانت تتجه جنوباً إلى أقصى جنوب الجزيرة العربية لكى تطل على المحيط الهندى مثلما كانت تتجه شمالا إلى أرض الشام لتطل على البحر المتوسط . وما من شك فى أنها رحلات خدمت التجارة والتبادل التجارى مثلما أتاحت قسطاً من الاحتكاك بين حضارات الشرق وحضارات البحر المتوسط .

سير الأحداث وحركة التاريخ فيه وفى كل الأقطار التى تطل عليه وتسهم بنصيب فى الحركة على سطحه والانتفاع بها بصورة من صور الانتفاع .

* * *

ونحس من بعد ذلك كله باتجاه الباحث اتجاها منطقيا إلى إحاطة وتقدير سليم لقطاع آخر من قطاعات الخلفية الجغرافية . وتناول هذا القطاع الواقع البشرى على أمل التعرف على معنى اهتمام المسلمين بالبحر المتوسط ومدى التناسق بين هذا الاهتمام وبين علاقات الماضى بالمسطحات المائية واشتغالهم بالملاحة والوساطة التجارية . ويمكن القول أن الباحث قد آمن بالقطع بأن للمسلمين دورا لعبوه وأن هذا الدور الإيجابى يستحق الاهتمام لا من حيث أنه فرض عليهم نتيجة لوضعهم على اتصال مباشر وإشرافهم على البحر المتوسط بجبهة طويلة ، بل لأنه كان نابعا من منطق يرتبط بآدائهم لدور مماثل فى مجال الملاحة البحرية منذ أن عاشوا فى وطنهم المصدرى فى الجزيرة العربية . وهذا معناه أن ثمة ما يدعو لإحساس بدرجة من درجات الترابط بين إقبالهم على ممارسة الملاحة البحرية والاشتغال بالتجارة والوساطة التجارية فى إطار وطنهم الصغير وبين حرصهم على أداء نفس الدور فى البحر المتوسط بعد أن دخل فى إطار وطنهم الموسع بعد ظهور وانتشار الإسلام .

ويحق علينا — إظهارا وتعبيرا عن أبعاد الواقع البشرى — أن نشير إلى أن العرب كانوا من أسبق كل أولئك الذين اتخذوا من البحر والمسطح المائى مطية لهم فى خدمة التجارة الدولية . ويمكن أن نتصور الضاغط الاقتصادى فى مساحات وطنهم المصدرى فى شبه الجزيرة العربية وهو يحفزهم ويدعوهم بإلحاح إلى تحركات موصولة ومرنة على محاور بحرية وعلى محاور برية بقصد الاشتغال بخدمة التجارة والوساطة التجارية . وقد مكنت هذه الحركة المرنة لهم أن يحتكروا على مدى زمن طويل — وحدهم دون غيرهم — تجارة المحيط الهندى والملاحة البحرية فيه . كما مكنت لهم من أن يشتركوا مع غيرهم

فى تجارة البحر الأحمر وصولا إلى مناطق الحضارة فى حوض البحر المتوسط . ويتأتى القول بأنهم قاموا كملاحين بدور الوساطة على امتداد محاور محددة اتخذت شكل أضلاع مثلث كبير . وكانت أضلاع هذا المثلث الكبير ترتكز برؤوسه إلى ساحل جنوب الجزيرة العربية من عدن إلى مسقط وإلى ساحل شرق إفريقية من ممبسة إلى زنجبار وإلى ساحل مليبار فى شبه جزيرة الهند . وكان العرب وحدهم العارفين باتجاهات الرياح الموسمية فى فصل الصيف ويعتمدون عليها فى رحلة الذهاب إلى الهند ، وباتجاهات الرياح الموسمية فى فصل الشتاء ويعتمدون عليها فى رحلة العودة إلى ساحل شرق افريقية ، ومن بعد العودة يتابعون ملاحة ساحلية إلى جنوب الجزيرة العربية ومضيق باب المندب . وشهد البحر الأحمر مسألة التبادل التجارى التى كانت تحدث بينهم وقد عادت سفنهم محملة من منتجات الهند وبين كل أولئك الذين اشتركوا فى تجارة البحر الأحمر من اليونانيين والمصريين والرومان وغيرهم . وهذا فى حد ذاته يحمل معنى من معانى الإقبال على :

١ — الإقبال على استخدام البحر وقدرتهم على مواجهة مشقة الرحلة البحرية .

٢ — الاشتراك بقسط هائل فى صناعة السفن البحرية وتشغيلها وإدخال الإضافات على تجهيزاتها وتسجيل الخبرات فى ركوب البحر .

٣ — الاشتراك فى التجارة الدولية منذ وقت بعيد وحرصهم على توسيع دائرتها إلى أقصى حد ممكن .

وهكذا كانت لبعض الجماعات العربية حصة متزايدة من حيث التعامل مع البحر الأحمر والمحيط الهندى وبدأت هذه الحصة منذ وقت بعيد يبدأ مع بداية الاهتمام الذى يسجله التاريخ لتجارة البحار الجنوبية منذ الألف الرابعة قبل الميلاد . وقد استمر لهم فضل الريادة فى ركوب المحيط الهندى زمنا طويلا حتى اشترك معهم غيرهم فى العصر الرومانى فى حوالى القرن الثانى قبل الميلاد . ويجب أن نفطن إلى أن هذا الدور سواء قام به العرب وحدهم وتحملوا فيه

مسئولية الوساطة التجارية بين الهند وجنوب آسيا وبين أقطار الحضارات القديمة فى حوض البحر المتوسط أو اشترك معهم غـــيرهم فى وقت لاحق وتحملوا قسطا من المسئولية ، فإنهم — من غير شك — قادوا حركة التجارة الدولية وكانت لهم صفة الريادة . وربما اقترنت الريادة بالتفوق من حيث تحديد محاور الحركة التى مكنت للتجارة الدولية — أن تجد طريقها إلى حوض البحر المتوسط ومناطق الحضارات القديمة فى كل من آسيا وأوروبا وإفريقية مرة ، ومن حيث التصاعد بحجم هذه التجارة وزيادتها بشكل رتيب يلبى الطلب المتزايد عليها مرة ثانية ، ومن حيث الإتاحة لفرص الاحتكاك الحضارى المتمدين بين حضارات الهند وجنوب شرقى آسيا وبين حضارات حوض البحر المتوسط مرة ثالثة .

وكانت هذه التحركات تتأتى على ثلاثة محاور رئيسية كبرى ، وكان محوران من هذه المحاور يتخذان من المسطح المائى مجالا للعمل بالوساطة التجارية فيوغل الأول على طريق البحر الأحمر ، ويوغل الثانى على طريق الخليج العربى . وقد اشترك العرب مع غيرهم فى الملاحة البحرية واستخدام هذه المحاور البحرية الرئيسية فى خدمة الوساطة التجارية وتنفيذ الصفقات التبادلية بين الهند وبين مساحات فى الظهير المباشر أو غير المباشر لحوض البحر المتوسط . أما المحور الثالث فقد كان بريا يوغل فى أرض شبه الجزيرة العربية على امتداد جنوبى — شمالى ، ويتخذ من مكة (أم القرى) مركزاً لتنظيم الحركة وتوجيهها وكانت تحركات القوافل لأداء الدور فيما عرف برحلتى الشتاء والصيف تضيف رصيدا متزايدا من فرص فرضت نمطا من أنماط الاحتكاك الحضارى مثلما فرضت نمطا من أنماط التكامل الاقتصادى . وهذا فى حد ذاته دعا إلى رصيد من خبرات أكسبت العرب مزايا وقدرات وهم يطلون ويتعاملون مع أقوام من أصحاب الحضارات فى جنوب شرق آسيا والهند

مرة ، ثم وهم يطلون ويتعاملون مع أقوام من أصحاب الحضارات فى حوض البحر المتوسط مرة أخرى .

وهذا الرصيد من الخبرات والقدرات المكتسبة على مدى القرون كان — فى اعتقادى — بعداً من الأبعاد التى ارتكز إليها العرب فى إقامة صرح الدولة الإسلامية وفرض وجودها وتوسيع رقعتها . كما أن صلة العرب الوثيقة بالبحر والملاحة البحرية عامة واتصالاتهم بحوض البحر المتوسط خاصة كانت تحقق البعد الآخر من الأبعاد التى بنيت عليها حساباتهم بالنسبة لوضعهم ونشاطهم فى مسرحهم يوم أن كان صغيراً لا يضم أكثر من مساحات شبه الجزيرة العربية مرة ، وبالنسبة لوضعهم ونشاطهم فى المسرح الموسع يوم أن بات كبيراً من خلال فتوحات وغزو وتوسيع لرقعة الأرض التى ضمت أطراف الدولة العربية الإسلامية مرة ثانية ، وبالنسبة لوضعهم ونشاطهم فى المسرح الأكثر اتساعاً يوم أن تحملت الجماعات العربية مسئولية التحركات والهجرات التى حدثت امتداد رقعة الوطن العربى وأشاعت العروبة فيه مرة ثالثة .

ولئن أتاح تكوين الدولة العربية الإسلامية وتوسيع رقعة الوطن العربى فرصة منطلقة فى مساحات هائلة فإنه قد أتاح للعرب أيضاً فرصة الاتصال المباشر بحوض البحر المتوسط . وهذا معناه أن العرب أصحاب الرصيد الهائل من خبرات بشأن الملاحة البحرية والاشتغال بالوساطة التجارية ، كانت لهم فرصة الاتصال بالبحر المتوسط بطريقة غير مباشرة فترة من الزمان ومعناه أيضاً أن انطلاقتهم من بعد الإسلام قد مكنت لهم من الاتصال والانتفاع بالبحر المتوسط بطريقة مباشرة . وتأتى ذلك الاتصال المباشر من خلال جبهة طويلة تمتد من ساحل الشام شرقاً إلى ساحل المغرب وسواحل أيبريا غرباً . وكانت الأرض فى ظهير هذه الجبهة من بعد أن عربت وباتت

فى حوزة المسلمين تخدم هذا الاتصال المباشر وتزج بهم فى كل ما يتعلق بالتحركات فيه من وجهات النظر السياسية والاقتصادية والحضارية .

ولئن تصورنا التحرك العربى الإسلامى مقتفيا أثر الهجرات وتحركات القبائل العربية التى بدأت منذ الألف الخامسة قبل الميلاد سببا مباشرا لحيازة مساحات الأرض فى ظهير البحر المتوسط المباشر ، فإن استراتيجيات هذا التحرك العسكرى تعبر من ناحية أخرى عن معانى كثيرة من حيث الإدراك الفعلى لقيمة البحر المتوسط وحرصهم الشديد على أن يكون لهم فيه دورا ، وأن يتأتى لهم به اتصالا مباشرا . وربما كشف ذلك التصور عن إحساس بأهمية موقع البحر المتوسط الحاكم ، وعن حرص على الانتفاع به فى إشاعة الإسلام والحضارة من جانب وتوسيع دائرة اشتغالهم بالتجارة الدولية من جانب آخر . كما يكشف بالقطع عن استمرار خط من الخطوط الأساسية التى صاغت تحركات العرب واتصالاتهم وإقبالهم على ركوب البحر . وليس من قبيل الصدفة — على كل حال — أن يأتى التحرك العربى الإسلامى على هذا النحو ، ولكنه من غير جدل كان يشدهم وكانت استراتيجيتهم مبنية على أساس الرصيد المتراكم من الخبرة والإدراك الفعلى لقيمة البحر المتوسط .

وكان التحرك العربى الإسلامى على محورين أساسيين . اتجه أولها إلى دولة فارس واتجه الآخر إلى أرض الشام . ويمكن القول أن كل اتجاه منهما كان يستهدف بالقطع على المدى القصير مواجهة صلبة مع الدولتين الكبيرتين — آنذاك — فارس وبيزنطة . مثلما كان يستهدف تأمين وضع دولتهم الناهضة وفرض مشيئتها وتوسيع دائرة مكتسباتها المادية . ولئن تحقق نجاح الاتجاه الذى فرض المواجهة بين العرب والفرس وأدى إلى تقويض دولتهم فإن الاتجاه الآخر إلى الشام كان يعنى بالقطع مواجهة مع الدولة البيزنطية والانطلاق إلى جبهة تطل بها دولتهم على البحر المتوسط مباشرة . ويكشف هذا الاتجاه الأخير عن معنى من معانى الخبرة فى استراتيجيات الحركة الهادفة

والمواجهة المثمرة . ذلك أنه يعنى الاتصال المباشر بالبحر المتوسط وفرض السيطرة على مامن شأنه أن يؤدى إلى الانتفاع بوضعه وموقعه الحاكم . بل إن تحريك القوات التى غزت الشام وفرضت الهزيمة على البيزنطيين فيها وتغيير وجهتها والاتجاه بها إلى فتح مصر يكشف عن قدرة بارعة فى المناورة العظمى على مستوى القتال مرة وتأكيد السيطرة على البحر المتوسط مرة أخرى . والمفهوم أن قوات الدولة العربية الإسلامية كانت قادرة — من غير جدل — أن تفعل مافعلت بفارس ، فتغزو الأرض الوعرة وتوغل فى السلاسل الجبلية والهضاب وتتقدم فى آسيا الصغرى لكى تسقط بيزنطة وتضربها ضربة قاتلة فى عقر دارها ولكنها لم تفعل وفضلت أن تتخذ محور الحركة الذى يمكن لها من انتشار وسيطرة بجبهة أطول على البحر المتوسط تمتد فيما بين مصر شرقاً والمغرب غرباً .

وتلك قمة رائعة فى خطة مثلى يتأتى سياقها محبوكا ومتناسقاً من وجهة النظر الاستراتيجية . ذلك أن هذا المحور الممتد من ساحل مصر على البحر المتوسط شرقاً إلى ساحل المغرب غرباً يكفل نتيجتين هامتين . وتسجل كل نتيجة منهما كسباً وإضافة إلى رصيد العرب المسلمين فى إطار دولتهم العظمى . وهاتان النتيجتان هما :

١ — نتيجة عاجلة تصيب الهدف على المدى القصير . وتتمثل فى ضربة موجعة وغير مباشرة تصيب الدولة البيزنطية على المدى الواسع فى أعز ما فى حوزتها من مساحات الأرض الأفريقية وتحرمها من فرصة التسلط على البحر المتوسط وتحركات التجارة الدولية فيه ؛ وكأنها بذلك ضيقت عليها الخناق فأدت إلى انحسار نفوذها وسجلت بداية لأفول نجمها .

٢ — نتيجة على المدى الطويل تتمثل فى حيازة الجبهة العريضة التى مكنت العرب المسلمين من أن يطلوا مباشرة على البحر المتوسط . ومن ثم كانت نقطة البداية فى صفحات جديدة لعلاقات وتحركات وصلات مباشرة وانتفاع

بالبحر المتوسط وكأنها بذلك قد مكنت لنفسها من المحور الهام الذى يرتكز إليه العرب المسلمين فى تحركات على محاور جديدة ، تعبر البحر المتوسط وصولا إلى أوروبا وتعبر الصحراء الكبرى وصولا إلى قلب أفريقية .

ومهما يكن من أمر فإن كل الأبعاد التى صاغت الشق البشرى من الخلفية الجغرافية تؤشر بوضوح إلى أن العرب المسلمين كانوا بحكم وضعهم ونشاطهم وتطلعاتهم مؤهلين بقدر ما كانوا متطلعين للبحر المتوسط والانتفاع به . ويأتى هذا البحث لكى يصور بصدق وإدراك حقيقى لهذه الخلفية الجغرافية بشقيها الطبيعى والبشرى المسلمين فى البحر المتوسط فى فترة زمنية معينة .

وما من شك فى أنه سجل تفوقاً لأنه انطلق من منطلق بنيت فيه الحقائق على ركائز متينة تستند إلى تلك الخلفية الجغرافية بكل أبعادها .

الدكتور
صلاح الدين على الشامى
أستاذ الجغرافيا بكلية الآداب
جامعة القاهرة — بالخرطوم

مصر الجديدة { ٢٩ جادى الآخر ١٣٩٣ هـ
٢٩ يوليــو ١٩٧٣ م }

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وبعد . فهذا بحث يتناول « سياسة الدول الإسلامية فى حوض البحر المتوسط من أوائل القرن الثانى بعد الهجرة حتى نهاية العصر الفاطمى » ، يتجلى لنا من ثناياه جهود هذه الدول ، فى الاحتفاظ بنفوذها فى هذا البحر ، فضلا عن اهتمامها بأعداد الأساطيل والقوات البحريه ، لدرء الأخطار الخارجية التى تتعرض لها .

أهتم بنو أمية ، ثم بنو العباس من بعدهم بأعداد القوات البحرية ، فقامت الأساطيل الإسلامية فى عهدهم بكثير من الحملات لغزو حاضرة البيزنطيين ، وبعض جزر البحر المتوسط ، نخص بالذكر منها جزيرة أقريطش وجزيرة صقلية ، وقد تم فتح كريت (اقريطش) بحملة أندلسية خرجت من الاسكندرية ، أما فتح صقلية ، فقام بعبئه حكام الأغالبة من قواعـــدهم بأفريقية :

ولما قامت الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ـــ فى أواخر القرن الثالث للهجرة (٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م) ، لم تكن أقل من الأمويين والعباسيين حرصاً على الاحتفاظ بقدر كبير من السيادة على جزر البحر المتوسط . كما اهتمت بأعداد القوات البحرية والأساطيل ، لصد غارات الأعداء عن سواحلها ، واتخذت حاضرتها مدينة « المهدية » ، على ساحل البحر المتوسط ، فضلا عن إنشائها ميناء « سوسه » ، وعنايتهم بدور صناعة السفن ، وبناء الأساطيل .

وقد بذل الفاطميون جهدهم لأحكام إشرافهم ـ وهم بالمغرب ـــ على جزيرة صقلية ، وذلك باختيار ولاتها من الموالين لهم ، وممن يتميزون بالحنكة

السياسية والمهارة العسكرية . كذلك عملوا على التقرب من حكام جزيرة كريت المسلمين — وكانوا يتبعون مصر إدارياً — حين تعرضت جزيرتهم للغزو البيزنطي ، بقيادة « نقفور فوكاس » سنة ٣٤٩ هـ / ٩٦٠ م ، وهو الهجوم الذي انتهى بزوال نفوذ المسلمين من هذه الجزيرة نهائياً سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١م) .

ولما اتخذ الفاطميون مصر مقراً لخلافتهم، واصلوا اهتمامهم ببناء الأساطيل، وإعداد القوات البحرية ، وإنشاء دور الصناعة . كما عنوا بموانيهم على البحر المتوسط ، مثل الاسكندرية ودمياط وتنيس فى مصر ، وصيدا وصور وعكا وعسقلان وبيروت وطرابلس الشام ، حتى تصبح نقط دفاع وانطلاق لأساطيلهم ضد البيزنطيين شرق البحر المتوسط ، وظلوا يوالون الاهتمام بها إلى أن ضعف أمرهم ، فى منتصف القرن السادس الهجرى .

ولم تكن العلاقات بين الفاطميين بمصر والشام ، والبيزنطيين مستقرة على حال . فتارة يغلب عليها الهدوء ويسودها السلام ، نتيجة ما كان يعقد بين الدولتين من معاهدات صلح أو هدنات سلام ، وطوراً يسودها التوتر والعداء ، فتقوم أساطيل وقوات كل من الدولتين ، بالاشتباك مع أساطيل الدولة الأخرى ، واستمر الحال على ذلك حتى انحازت بيزنطة كلية إلى جانب القوى الصليبية ضد الفاطميين ، منذ أوائل القرن الحادى عشر الميلادى (أواخر القرن الخامس الهجرى) .

أما عن العلاقات بين الفاطميين والمدن الإيطالية (أمالفى ، بيزا ، جنوة، البندقية) ، كان يحكمها ويؤثر فيها العامل الاقتصادى أكثر من غيره من العوامل . وقد منح تجارها بعض تسهيلات وامتيازات تجارية فى الدولة الفاطمية . ثم انحازت إلى الصليبيين والبيزنطيين ، بعد أن ضعف أمر هذه الدولة .

دخلت الدولة الفاطمية فى مرحلة الضعف والانهيار ، منذ أواخر عهد

المستنصر بالله الفاطمى . فاستبد وزراؤها بالسلطة ، ولم يحرصوا على الاحتفاظ بالمذهب الاسماعيلى ، كما طمع أمراء الدول المجاورة فيها ، مما عجل بانحلالها ثم سقوطها .

أدى ضعف الدولة الفاطمية وانهيار نفوذ خلفائها ، منذ أواخر القرن الخامس الهجرى إلى عجزها عن الاحتفاظ بما تبقى لها من سلطان على بلاد الشام ، مما أتاح للصليبيين ، الذين استولوا على بيت المقدس ، الفرصة لمهاجمة الموانى الساحلية فى بلاد الشام ، التى كانت لاتزال فى يد الفاطميين ، وضمها إلى حوزتهم .

* * *

بدأت البحث بدراسة البحرية الإسلامية فى حوض البحر المتوسط حتى قيام الخلافة الفاطمية بالمغرب ، فعرضت للحالة التى كانت عليها هذه البحرية ، قبيل قيام الدولة العباسية ، ثم تحدثت عن البحرية الإسلامية ، من بداية العصر العباسى ، حتى آخر القرن الثالث الهجرى ، فوضحت نشاط القوات البحرية بمصر والشام فى البحر المتوسط ، وشرحت أحداث الفتح الإسلامى لكل من جزيرة كريت وجزيرة صقلية .

كذلك تناولت بالبحث : الفاطميين بالمغرب ونشاطهم فى حوض البحر المتوسط ، فتحدثت عن اهتمام الفاطميين فى المغرب بإعداد القوات البحرية ثم عرضت لموقف الفاطميين من الأمويين بالأندلس ، ووضحت علاقتهم بكل من جزيرة كريت وجزيرة صقلية .

وعنيت أيضاً ببحث نشاط الفاطميين بمصر والشام فى حوض البحر المتوسط . فبينت مدى اهتمام الفاطميين بإعداد القوات البحرية ، كما تحدثت عن الموانى المصرية والشامية ، وحرص الفاطميين على تحصينها وإمدادها بالمعدات الحربية .

وكانت علاقة الفاطميين بالدولة البيزنطية ، والمدن الإيطالية ، فى حوض البحر المتوسط ، من المسائل التى وجهت اهتمامى إلى دراستها ، فتتبعت تطور العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين ، كما وضحت طبيعة العلاقات بين المدن الإيطالية والدولة الفاطمية فى مصر والشام .

ورأيت أن أختم هذا البحث بالتحدث عن أثر ضعف الدولة الفاطمية على نشاطها البحرى فى شرق البحر المتوسط ، فأشرت لمظاهر انحلال هذه الدولة ، وبينت ماترتب على انحلالها من تطلع الصليبيين ببلاد الشام إلى الاستيلاء على ما بيدها من الموانى الساحلية بتلك البلاد .

أرجو أن أكون قد وفقت فى بحث هذا الموضوع ، كما أدعو المولى عز وجل أن يعيننى على متابعة البحث فى تاريخ الدول الإسلامية وحضارتها ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

كما لا يفوتنى أن أقدم خالص شكرى لكل من مد لى يد المساعدة فى إتمام هذا البحث ، وأخص بالشكر أستاذنا الفاضل الدكتور محمد جمال الدين سرور أستاذ التاريخ الإسلامى ورئيس قسم التاريخ بالكلية ، وأوجه شكرى كذلك إلى زملائى العاملين بالجامعة على ماقدموه لى من مساعدات .

والله الموفق دائماً لما فيه الخير .

دكتور
صابر محمد دياب حسين

الباب الأول

البحرية الاسلامية فى حوض البحر المتوسط

حتى قيام الخلافة الفاطمية بالمغرب

١ ـ البحرية الاسلامية فى البحر المتوسط قبيل قيام الدولة العباسية .

٢ ـ البحرية الاسلامية من بداية العصر العباسى حتى آخر القرن الثالث الهجرى .

(ا) نشاط القوات البحرية بالشام ومصر فى حوض البحر المتوسط .

(ب) الفتح الاسلامى بجزيرة اقريطش (كريت) .

(حـ) فتح جزيرة صقلية .

الباب الأول

البحرية الإسلامية فى حوض البحر المتوسط

حتى قيام الخلافة الفاطمية بالمغرب

١ – البحرية الإسلامية فى البحر المتوسط قبيل قيام الدولة العباسية

استطاع الأمويون فى عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦هـ) أن يسيطروا بصورة تكاد تكون تامة ، على شواطىء معظم الجزر الواقعة فى حوض البحر المتوسط الشرقى . وأمكنهم إخراج هذا الحوض عن دائرة السيادة البيزنطية . ثم تجدد هذا الجهد ، فيما بين سنتى ٩٦، ٩٨هـ (٧١٥، ٧١٧م) - فى أيام سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩هـ / ٧١٥ - ١٨/٧١٧م) إذ بذل المسلمون جهودهم للاستيلاء على القسطنطينية (١) .

وكان الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦هـ / ٧٠٥ - ٧١٥م ، قد بدأ الإعداد منذ سنة ٩٥هـ (٧١٤م) ، لغزو العاصمة البيزنطية ، والاستيلاء عليها . لكنه توفى سنة ٩٦هـ قبل أن يتحقق مشروعه. وفى هذا الوقت كان الامبراطور البيزنطى انستاسيوس (Anastasius II) الثانى (٧١٣ - ٧١٥ / ٩٤-٩٦هـ) ، قد بلغه أنباء هذه الاستعدادات فاهتم بتحصين العاصمة البيزنطية ، وتزويدها بالمؤن والعتاد الحربى (٢) .

فلما ولى سليمان بن عبد الملك الخلافة ، قام بإتمام الاستعدادات البحرية التى بدأها سلفه الوليد بن عبد الملك لفتح القسطنطينية (٣) . فأرسل فى سنة

---

(١) حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط ص ٦٩ (مقال بالمجلة التاريخية ، عدد مايو سنة ١٩٥١ صفحات ٤٥ — ١٦٩) .

(٢) Aly Fahmy : Muslim Sea-Power, p. 96.

(٣) العدوى : الأساطيل العربية ص ٥٩ — ٦٠ .

٩٨هـ / ٢٥ أغسطس ٧١٧م حملة بحرية لمهاجمتها ، على رأسها أخوه مسلمة (١) ، الذى أمر سليمان بن معاذ الأنطاكى بالزحف بوحدات بحرية تجاه الشمال ، لاحتلال مداخل بحر مرمرة ، بينما رابطت وحدات أخرى تجاه ساحل آسيا الصغرى (٢) .

وكان الأمبراطور البيزنطى « ليو الثالث » وقت ذلك ، قد اتخذ الحيطة لمهاجمة مراكب المسلمين ، التى كانت تعبر المضيق ، وأحرق منها نحو عشرين مركبا التهمتها النار اليونانية (٣) . كما عمل على منع السفن الإسلامية ، من دخول منطقة القرن الذهبى ، مما اضطر المسلمين إلى المرابطة بقواتهم على بعد ثمانية أميال شمالى القسطنطينية (٤) .

لقد خسر الأسطول والجيش الإسلامى كثيرا فى هذا الحصار ، الذى استخدمت فيه القوات البحرية الأموية النفط لأول مرة (٥) ، وقد أبدى الجند العربى شجاعة لا نظير لها . لكن ذلك لم يجد ، أمام قوة الضربات التى أنزلها البيزنطيون بالوحدات البحرية الأموية المحاصرة كما لم يتمكن الأسطول من السيطرة على شمال مضيق البوسفور ، وبهذا لم يكتمل الحصار حول العاصمة

---

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٢ ص ١٣١٤ — ١٣١٦ .
Camb Med. Hist., Vol. 4, p. 119, Brooks, E W.: The Campaigne of 716 - 718. p. 20 (J. of Hellenic studies)

(٢) Aly F.: Muslim Sea-Power, p 99

(٣) أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ص ١٠٤

(٤) الطبرى : نفس المصدر جـ ٢ ص ١٣١٧ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ١٩ . وكان من أهم عوامل فشل الحصار قسوة الجو المحيط بالعاصمة فى الشتاء ، وحسن إدارة ليو الثالث المعركة . إلى جانب صلابة وصمود أهل المدينة نفسها .

(٥) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١١٩ ، اليعقوبى : تاريخه جـ ٢ ص ٣٠٩
Camb. Med. Hist., Vol. 4, p. 119

البيزنطية (١) وبات واضحا عدم جدوى حصارها ، مما اضطر المسلمين إلى الانسحاب فى يوم ١٣ من المحرم سنة ١٠٠هـ (١٥ أغسطس ٧١٨م) (٢) .

وعلى الرغم من الهزيمة التى حلت بالأسطول الأموى ، والخسائر التى تكبدها فى حصاره للعاصمة البيزنطية ، فإن الأمويين حافظوا على خطوط إمدادات أسطولهم ، والتعاون بين وحداته فى كل من مصر وسوريا ، مما ساعد على استمرار الحصار لمدة عام كامل أو يزيد (٣) .

وإذا كان الأمويون لم يحاولوا الاستيلاء على القسطنطينية بعد عام ٩٩هـ (٧١٨م) ، إلا أنهم فى نفس الوقت ظلوا مهتمين بصناعة السفن وحشد القوات البحرية . فنجد الخليفة هشام بن عبد الملك ينشىء دار صناعة للسفن فى مدينة صور « Tyre » ، ثم يأتى من بعده من خلفاء بنى أمية ، فيحولوا هذا البلد إلى ميناء بحرى هام ، وقاعدة تدعم الأسطول الإسلامى فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط (٤) .

كذلك اهتم ولاة الأمويين فى مصر والشام ، بإعداد القوات البحرية ، وتوفير وسائل قوتها ، وتجنيد كل إمكانياتهم من أجلها ، حفاظا على سيادتهم فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط . فاهتم والى مصر « مسلمة بن مخلد » ، ببناء

---

(١) العدوى : الأساطيل العربية ص ٦٣ — ٦٤ .

Camb. Med. Hist. Vol. 4. p. 119.

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٢ ص ١٣١٦ -١٣١٧ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ١٩ .

Bury : Hist. of Later Roman Emp., Vol. 1, p. 404,
Canard : Expedition des Arabes contre Constantinople p 94 - 102

(٣) Aly F. : Muslim Sea-Power, p. 100.

(٤) Hitti : The Origins of Islamic States, p. 180-181

دور صناعة السفن فى مصر ، وأشرف بنفسه على بناء السفن الحربية بدار صناعة مصر (بجزيرة الروضة) (١) .

ظلت مصر مركزا لبناء السفن الحربية والتجارية فى العهد الأموى . فى الفسطاط والقلزم ، بنيت السفن الإسلامية الأولى ، كما استقدم معاوية ابن أبى سفيان بناة السفن من المصريين ، ليبنوا السفن بدار الصناعة بعكا (٢) ولقد صار عبد الملك بن مروان على نفس نهج معاوية بن أبى سفيان من حيث اهتمامه بإعداد القوات البحرية فى شرق البحر المتوسط . ثم تابع الوليد سياسة أبيه ، عبد الملك بن مروان ، فى تقوية الأسطول ، وتدعيم وسائل التعاون بين القوات البحرية والقوات البرية (٣) .

وقد حاول البيزنطيون إضعاف القوة البحرية الإسلامية النامية فى منطقة شرق البحر المتوسط ، لما تمثله من خطر وتهديد بالنسبة لدولتهم وأملاكهم فى هذه المناطق ، فقاموا سنة ١٠١ﻫ (٧١٩ — ٧٢٠م) فى خلافة يزيد الثانى (١٠١ — ١٠٥ / ٧٢٠ — ٧٢٤م) وولاية بشر بن صفوان الكلبى على مصر ، بهجوم على مدينة تنيس بمصر ، واستطاعوا فى هذا الهجوم أن يقتلوا حاكمها (٤) . وكانوا قد قاموا قبل ذلك بغارة على مدينة دمياط سنة ٩٠ ﻫ فى خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان فهاجموا ميناءها ، وأسروا حاكمها

---

(١) Ency. of Islam, Vol. 4 p. 399

(٢) سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية ص ٨٧ ، أرشيبالد : القوى البحرية ص ١١٦

(٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك جـ ٨ ص ٦٨ .

(٤) الكندى : القضاة والولاة ص ٧٠ ، المقريزى : خطط جـ ١ ص ١٧٧ ، ط . بولاق ، Camb. Med; Hist. Vol. 4 p 119

« خالد بن كيسان » [1] ثم تابعوا نشاطهم ضد المسلمين فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، فقاموا بهجوم على دمياط سنة ١٢١ هـ أسروا فيه عددا من مسلمى المدينة كما قتلوا عددا آخر [2] .

أدى تتطلع المسلمين للإستيلاء على جزيرة قبرص ، منذ خلافة معاوية ابن أبى سفيان وحتى عهد عبد الملك بن مروان ، إلى قيام الصراع بينهم وبين البيزنطيين حول هذه الجزيرة . [3] واستمر البيزنطيون فى تدعيم قوتهم البحرية لصد هجمات المسلمين خاصة الموجهة ضد قبرص [4] . فركز الأمبراطور تيبريوس الثالث (٦٩٨ — ٧٠٥م) اهتمامه على إعادة تكوين الحاميات المدافعة عن الجزيرة ضد الأسطول الأموى فى البحر المتوسط [5] .

غير أن الحملات الإسلامية تجددت على جزيرة قبرص سنة ٨٠هـ ، فقام « عبد الواحد بن كنود » فى هذه السنة بحملة أقلع بها من الأسكندرية وأغار

---

(١) الطبرى : المصدر السابق جـ ١ ص ١٢٠١ وأبو المحاسن : والنجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٢١ .

(٢) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٢١٤ . وقد وضع بروكس سنة ٢٠٢ هـ - ٢٠٥ هـ تاريخاً للحملة عكس المقريزى . أنظر :

Brooks : The relations between Emp. & Egypt from A New Arabic Source P. 381-392 (Puplished in Pyzantinshe Zeit., 1913).

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٤ ، ١٦٠ (تحقيق المنجد) ، أبو المحاسن النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٨٣ . وهو يقول أن ألف دينار كان يدفعها المسلمون كل جمعة للروم . والصحيح أنها كانت تدفع كل عام وليس كل جمعه .

Finlay : Hist. of Greece, Vol 1. page 387. Camb. Med. Hist. Vol 1. P. 286, Vol 2. P. 206

(٤) الطبرى : جـ ٢ ص ٩٢٩ وأبو المحاسن: نفس المرجع جـ ١ ص ١٧٦ .

Hill : Hist. of Cyprus Vol. 1 P. 287.

(٥) Hill : Op. Cit. Vol. 1 P. 289, Bury : Hist. of East Rom. Emp. Vol 2 P. 356 n. 1.

على الجزيرة ، ثم عاد للأسكندرية محملا بالأسلاب والغنائم(١) . كما هاجم الأسطول الأموى هذه الجزيرة عام ١٢٥هـ / ٧٤٣م فى خلافة الوليد الثانى (١٢٥ — ١٢٦هـ / ٧٤٣ — ٧٤٤م)(٢) ، وتعد هذه الحملة ردا على حملة البيزنطيين على مصر سنة ١١٨هـ (٧٣٦م)(٣) . لكن رغم هذا استمر نشاط البحرية الأموية فى شرق البحر المتوسط .

ويبدو أن الأعمال البحرية للمسلمين والبيزنطيين فى حوض البحر المتوسط الشرقى ، لم تتعد كونها غارات خاطفة من جانب ، يتبعها أخرى من الجانب المضاد ، خاصة على قبرس ومصر ، باعتبارهما هدفين رئيسيين فى الصراع بين هاتين القوتين (المسلمين والروم)(٤) . ولهذا فلم ينتج من الحملات الأموية فى شرق البحر المتوسط احتلال دائم ، أو فتح مستقر لجزيرة قبرس ، بينما كان الوضع على غير هذا النحو فى الحوض الغربى للبحر المتوسط

وقد انتهى الصراع البحرى بين الأمويين والبيزنطيين فى شرق البحر المتوسط عام ١٢٩ — ١٣٠هـ / ٧٤٧ — ٧٤٨م ، بمعركة فاصلة نشبت بين الطرفين ، فى أواخر عام ١٢٩هـ (٧٤٧م) ، على مقربة من جزيرة قبرس ، حسمت ذلك الصراع بين القوتين الإسلامية والبيزنطية . إذ حاصر أسطول كريت البيزنطى أسطولا عربيا (أمويا)(٥) وأوقع به الهزيمة عام ٧٤٧ م . وكان لانتصار البيزنطيين البحرى أثره الكبير . ذلك أنه وضع نهاية للصراع البحرى الطويل الأمد بين البيزنطيين والمسلمين لمدة قرن من الزمان ، ظلت

---

(١) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٠٠ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٤ — ١٥٥ الطبرى : جـ ٢ ص ١٤٨٧ .

(٣) الطبرى : جـ ٢ ص ١٧٦٩ والبلاذرى : ص ١٥٤ .

(٤) Hill : Hist. of Cyprus Vol. 1, P. 159, Bury Hist. of East. Rom. Emp. Vol 2 p. 340 - 341.

(٥) أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية ص ١٠٨ .

خلاله البحرية الإسلامية عاجزة عن القيام بحملات أو إغارات على جزر البحر المتوسط وبلدانه البيزنطية . بل يمكننا القول أن هزيمة الأمويين سنة ٧٤٧م أدت إلى فشل كل جهودهم وضياع نتائجها فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط [١] .

أما فى غرب البحر المتوسط ووسطه ، فسارت البحرية الأموية الإسلامية فى نفس الطريق الذى سلكته فى شرق هذا البحر . ذلك أن أحداث الفتح الإسلامى لشمالى افريقية ، التى بدأت بعد فتح مصر ، حملت المسلمين على بناء أسطول لهم فى مياه المغرب ، ليسهم فى إتمام مشاريعهم البحرية وتأمين فتوحهم [٢] . وقد تجلى نشاط البحرية الإسلامية (الأموية) فى شمالى افريقية ، ضد صقلية ، فى خلافة معاوية بن أبى سفيان . إذ قام واليه « معاوية بن حديج » سنة ٤٤هـ (٦٦٤م) [٣] بحملة على صقلية من برقة ، ثم وافته بعد ذلك الإمدادات من مصر . [٤] وظلت الحملات الإسلامية توجه إلى جزيرة صقلية منذ خلافة معاوية بن أبى سفيان حتى أيام عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ابن عبد الملك [٥] . على أنه لم تجر محاولة جريئة بحرية ضد هذه الجزيرة ذات بال حتى هذا الوقت [٦] .

---

(١) أرشيبالد : المرجع السابق ، ص ١٠٨ — ١٠٩

(٢) Vasiliev : Hist. de L'Emp. Byz. Tome. P. 282

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأفريقية ص ١٩٢ — ١٩٣ ، وابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ١١ ، النويرى : نهاية الأرب (المكتبة الصقلية ص ٤٢٥) .

(٤) Camb. Med. Hist. Vol. 2 P. 380, Bury : Hist of E. Rom. Emp. 2, P. 310.

وكانت الحملة التالية لها من الاسكندرية بقيادة عبد الله بن قيس ، أنظر

Aly F. Muslim sea - power, p. 117.

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١١٩ — ١٢٠ وابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٢١١ ، Ency of Islam Vol. 2 P. 834.

(٦) Aly F. op. Cit; P. 117-118.

وكان حسان بن النعمان الغسانى عامل الأمويين على افريقية (٦٩-٧٨هـ)، قد أنشأ دارا لصناعة السفن فى مكان يسمى ترشيش [١] (تونس حاليا) من خرائب قرطاجنة سنة ٧٠هـ وفرغ منها سنة ٧٣هـ . ثم شرع فى بناء المراكب الحربية التى تكون منها أسطول افريقية الإسلامية ، وظل ينمو وتزداد قوته عددا وعدة ، حتى صار مسلمو شمال افريقية ، مصدر إزعاج لجميع الجزر الواقعة فى حوض البحر المتوسط الأوسط والغربى وبخاصة صقلية لأهمية موقعها بالنسبة للمسلمين فى شمالى افريقيا [٢] .

أدرك عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦هـ / ٦٨٥ — ٧٠٥م) أهمية القوة البحرية فى فتحه افريقية ، خاصة أنه رأى ما قاساه المسلمون على يد البحرية البيزنطية . لذلك طلب إلى موسى بن نصير — عامله على افريقية أن يقيم للمسلمين قاعدة بحرية هناك ، وبعث إليه من مصر ألف قبطى من صناع السفن ، ليسهموا فى بناء أسطول الأمويين فى شمال أفريقيا [٣] . ويقول البلاذرى ، مدللا على اهتمام خلفاء بنى أمية — وبخاصة عبد الملك ابن مروان — بالقوات البحرية وتحصين السواحل والموانى : « وكان اهتمام عبد الملك بن مروان بتجديد وترميم الحصون ومدن السواحل ، وشحنها بالجند الحفظة (المرابطين) إليها » [٤] .

وقد خطا الأسطول الأموى فى غرب البحر المتوسط خطوات سريعة

---

(١) ترشيش : هو الاسم القديم لمدينة تونس الحالية التى بدأ حسان بن النعمان الغسانى فى إنشائها سنة ٧٠ وانتهى من بنائها سنة ٧٣هـ . أنظر ياقوت : معجم البلدان مادة « تونس » . ولم يطلق عليها اسم تونس إلا فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى ، فكانت مشهورة باسم أفريقية .

(٢) Goitein : Studies on Islamic Hist. & Instit., P. 308,
Aly F. Muslim Sea-Power P. 118,

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٦٩ — ١٧١ .

(٤) البلاذرى : نفس المصدر ص ١٦٩ — ١٧١ .

توازى ما قام به قرينه فى شرق البحر المتوسط [١] . وكان موسى بن نصير يريد الوصول إلى القسطنطينية من الأندلس بحرا [٢] ، معتمدا فى ذلك على ما تكون لديه من وحدات بحرية ، تعد قوام الأسطول الإسلامى الأموى غرب البحر المتوسط ، الذى أنشئت مراكبه فى دار الصناعة فى مدينة ترشيش الجديدة (تونس حاليا) [٣] .

لم يتوقف نشاط البحرية الإسلامية فى شمال أفريقيا طوال العهد الأموى . ففى سنة ١٠٢ هـ (٧٢٠م) — خلال حكم الخليفة يزيد بن عبد الملك بن مروان (١٠١ — ١٠٥هـ/٧٢٠ - ٧٢٤م) — قام الأسطول الإسلامى الأموى من قاعدته (القيروان) فى شمالى أفريقية ، بقيادة « محمد بن أوس الأنصارى » [٤] ، بغزو جزيرة صقلية ، وتكررت هجمات المسلمين بعد ذلك على صقلية ، ففى سنة ١٠٩هـ (٧٢٧م) — فى خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥—١٢٥هـ) — قام بشر بن صفوان الكلبى ، عامل أفريقية ، بإغارات موفقة [٥] . ولما تولى بعده

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٩٨ وابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ٧٢ — ٧٤ ، السلاوى : الاستقصا جـ ١ ص ٧٢ — ٧٤ .

(٢) حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط ص ٦٦ .

(٣) أنشأ حسان بن النعمان (٦٩ — ٧٨ هـ) مدينة تونس وأصل إسمها ترشيش ، بعد سنة ٧٠ هـ . واستعمل فى بنائها أنقاض مدينة قرطاجنة . ومد على ترشيش سلسلة حديدية غليظة ، وجعلها رباطاً للمسلمين ، ثم زاد بها عبيد الله ابن الحبحاب سنة ١١٤ هـ داراً لصناعة السفن وجامع تونس الكبير . أنظر ياقوت : معجم البلدان جـ ٢ ص ٤٣٢ — ٤٣٥ وابن عبد الحق : مراصد الإطلاع جـ ١ ص ٢١٩ .

(٤) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٢٧ ، النويرى : نهاية الأرب (المكتبة الصقلية) ص ٤٢٦ . وقد ذكر النويرى هذا القائد على أنه « محمد بن إدريس — وليس أوس — الأنصارى » .

(٥) ابن الأثير : الكامل (المكتبة الصقلية) ص ٢١٨ ، ابن خلدون : العبر (المكتبة الصقلية ص ٤٦٥) ، أبو المحاسن : النجوم جـ ١ ص ٢٤٥ .

« عبيدة بن عبد الرحمن » ، تابع هذا الوالى الجديد نشاط سلفه فى متابعة غزو جزيرة صقلية . فجرد عليها سنة ١١٠هـ حملة ، قادها عثمان بن أبى عبيدة ، وحملة أخرى سنة ١١١هـ ، بقيادة المستنصر ابن الحبحاب ، لكن هذه الحملة الأخيرة لم توفق فى مهمتها . وهكذا توالت الحملات الخاطفة على جزيرة صقلية دون انقطاع [١] .

ثم كانت أخطار الحملات البحرية لأسطول شمال أفريقيا فى العصر الأموى ، حملة سنة ١٢٢هـ (٧٤٠م) . ففى هذا العام قامت حملة بحرية بهجوم كبير ، كان هدفه فتح جزيرة صقلية . واستطاع المسلمون فى هذه الحملة التوغل فى الجزيرة فنهبوا مدينة سرقوسة « Syracuse » . ولم ينقذ صقلية من غزو المسلمين لها آنذاك ، غير وثوب البربر ضد العرب بشمالى أفريقيا ، الأمر الذى اضطر المسلمين إلى العدول عن فتح الجزيرة [٢] . ومنذ ذلك التاريخ (١٢٢هـ) لم تتعرض لصقلية أية حملة بحرية إسلامية إلا فى سنة ١٣٥هـ (٧٥٢ — ٧٥٣م) حين هاجمها عبد الرحمن بن حبيب عامل أفريقية وقت ذاك [٣] .

---

(١) المقريزى : الخطط (المكتبة الصقلية ص ٦٦١ ، القيروانى : المؤنس (المكتبة الصقلية) ص ٥٢٦ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ٢٦٦ .

(٢) ابن الحكم : فتوح مصر ص ٢١٧ — ٢٢٠ ، ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٣٩ ، ابن خلدون العبر (المكتبة الصقلية) ص ٤٦٥ — ٤٦٦ ، ابن الأثير : المصدر السابق ص ٢١٩ .

(٣) يحدد كل من ابن الأثير (بالمكتبة الصقلية ص ٢١٧ — ٢٢٠) وابن عذارى : (البيان جـ ١ ص ٤٩ وبالمكتبة الصقلية ص ٣٥٤) والنويرى (بالمكتبة الصقلية ص ٤٢٦) سنة ١٣٠ هـ ، تاريخاً لهذه الحملة . وهذا غير راجح ، لأن الحملة لم تتم إلا بعد أحكام السيطرة على جزيرة قوصرة وهو الشىء الذى لم يتحقق إلا آخر سنة ١٣٠ هـ . وكان من الطبيعى أن يتوقف المسلمون قليلا ليلتقطوا =

ترتب على نشاط البحرية الإسلامية الأموية فى البحر المتوسط ، والموجه إلى جزيرتى صقلية وسردينيا أن عمد الامبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس إلى اتخاذ إجراءات مضادة ، لعرقلة هذا النشاط [1] . وقد أدت هذه الإجراءات ، فضلا عن عدم استقرار الأمور فى الدولة الإسلامية ، وبخاصة فى أواخر العصر الأموى ، إلى تمتع جزر البحر المتوسط بهدوء نسبى دام نحو نصف قرن من الزمان [2] .

= أنفاسهم ويدعموا قواهم عدداً وعدة، ثم يستأنفوا حملاتهم على صقلية لذلك ظل المسلمون نحو أربع سنوات لايهاجمون الجزيرة ، لأنهم كانوا يعدون أنفسهم لهذا الأمر ، أنظر : Vasiliav: Byz. et. les Arabes, I, P. 63-64, Bury, : Hist. of East Rom., Emp. 2/P. 295.

(١) ابن قتيبة . الإمامة والسياسة : ج ٢ ص ١١٢ ،
Vasiliev: Tbid, Tome 1, p. 64.

(٢) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٨٣ Bury. Ibid Vol 2 P. 195

٢ – البحرية الإسلامية من بداية العصر العباسى حتى آخر القرن الثالث الهجرى

(ا) نشاط القوات البحرية بالشام ومصر فى البحر المتوسط :

أدى قيام الخلافة العباسية ،وانتقال حاضرة الدولة الإسلامية من دمشق إلى بغداد ، إلى تضاؤل عدد الحملات البحرية ، التى كانت تخرج من سورية ومصر لمهاجمة القسطنطينية (١) . وأضحت حروب الدولة العباسية ضد الروم يغلب عليها الطابع البرى (٢) .

وقد سار العباسيون على نفس النهج الذى سلكه قبلهم بنو أمية . فوجهوا اهتمامهم إلى تدعيم التعاون بين أساطيل الشام ومصر ، فضلا عن شمال أفريقية (٣) واستطاعوا بفضل الخطة البحرية التى ورثوها عن بنى أمية ، حماية سواحلهم وموانيهم الواقعة فى حوض البحر المتوسط (٤). فأصبحت شواطىء هذا البحر تذخر بالشعوب الإسلامية ، ومياهه تعج بأساطيل المسلمين (٥) .

---

(١) العدوى : الأساطيل العربية ص ٣١٠ — ٣١١ ،

Aly F. : Muslim Sea, power, P. 106, 310'311.

(٢) قدامة بن جعفر : نبذة من كتاب الخراج (جـ ٦ بالمكتبة الجغرافية العربية ، نشر دى جوية ، ليدن ، ١٨٨٩ م) ص ٢٥٦ ، أسدرستم : الروم جـ ١ ص ٢٩٦ — ٢٩٧ .

Runciman : Romanous Lecapenus and his Reign "a study of 10th Century Byz. Camb. 1929 P. 123.

(٣) أسد رستم : الروم جـ ١ ص ٢٩٧ .

Vasiliev : Byzance et les Arabes 1/63-64

(٤) العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ٣١٢ ، ٣١٤ .

(٥) حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط ص ٨٤ .

وعلى الرغم من انصراف الخلافة العباسية عن الاهتمام بشئون البحر المتوسط ، إلا أن مصر ظلت مركزاً لصناعة السفن الاسلامية الحربية والتجارية (١) . كما احتفظ أهل الشام بتفوقهم فى أمور البحر حتى فاقت أساطيلهم أساطيل الفاطميين فيما بعد ، وحالت بين البيزنطيين وبين أستعادة مركزهم فى الحوض الشرقى فى البحر المتوسط (٢) .

لم تتوقف حملات الأسطول الأسلامى بين مصر والشام ، بعد قيام الدولة العباسية على جزيرة قبرس حتى نهاية القرن الثالث الهجرى . إذقام الأسطول الأسلامى فى عهد أبى جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨ ﻫ) من موانيه بالشام ، بقيادة ثمامة بن وقاص بمهاجمة جزيرة قبرس سنة ١٥٧ ﻫ — ٧٧٣ م (٣) كما هاجم ثمامة بأسطوله فى نفس السنة إقليم «أيسورة» Isuria بآسيا الصغرى. لكن الأسطول البيزنطى تمكن من احتلال المياه الإقليمية لشاطىء أيسورة عند مدينة سيبس Syce وقطع الاتصال بين ثمامة وبين سفن الشام التى أبحرت معه ، كما حاصر الجيش البيزنطى قوات ثمامة البريه (٤) .

وفى خلافة هارون الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ ﻫ / ٧٨٦ — ٨٠٩ م)

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ١١٠ ، ١١١ (ط بولاق) وسيدة الكاشف مصر فى فجر الاسلام ص ٩١ — ٩٢ ، وحسن إبراهيم حسن الاسلام السياسى ج ٢ ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

Adolf Grohmann : from the world of Arabic Papyri p. 122.

(٢) أرشيبالد : القوى البحرية ص ١٠٨ ، حسين مؤنس : المسلمون فى البحر المتوسط ص ٩٤ — ٩٥ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٣ .

Camb. Med-Hist Vol 4. p. 123, Hill : Hist of cyprus, Vol. 1, p. 292.

(٤) البلاذرى : نفس المصدر ص ١٥٥ .

هوجمت جزيرة قبرس سنة ١٧٤ هـ (٧٩٠ م) انتقاماً لما أحدثه البيزنطيون وأسطولهم بالمسلمين الذين إختطفوا وهم فى عرض البحر فى طريقهم إلى سوريا وبعد أن أنهت الحملة مهمتها فى قبرس سارت إلى آسيا الصغرى [١] .

وواصلت القوات البحرية من مصر والشام نشاطها فى البحر المتوسط ، وبخاصة ضد قبرس ، وذلك بعد هدوء استمر نحو عشرين عاما . فقامت حملة بحرية بقيادة والى سورية حميد بن معيوف الهمدانى فى سنة ١٩٠ هـ لغزو قبرس[٢] ويبدو أن سبب هذه الحملة — كما يروى البلاذرى — هو تمرد القبارسة ، ونقضهم ما كان بينهم وبين المسلمين من عهد سنة ١٨٧ هـ[٣] ، ويتضمن وقوفهم على الحياد فى النزاع بين المسلمين والبيزنطيين ، وقد التزموا به منذ خلافة عبد الملك بن مروان .

وكانت نتيجة هذه الحملة عودة القبارسة إلى سابق عهدهم فى الالتزام بمبدأ الحياد الذى قطعوه على أنفسهم . وظلوا بذلك يعترفون بالسيادة الإسلامية عليهم ، ويرسلون نصف خراجهم للمسلمين ، والنصف الآخر للبيزنطيين حتى سنة ٢٩١هـ . ففى هذا العام عاود القبارسة خروجهم على مبدأ الحياد

---

(١) البلاذرى : نفس المصدر ص ١٩٣

(٢) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ١٩ . وهو يقول فى هذه السنة (١٩٠ هـ) نقض أهل قبرس العهد فغزاهم معتوق بن يحيى (وهو معيوف بن حميد الهمزانى عند البلاذرى) وكان عاملا على سواحل مصر والشام فسبى أهل قبرس .

(٣) الطبرى : جـ ٣ ص ٢٠٩ .

Camb. Med. Hist. Vol. 4, P. 195

وانحازوا إلى جانب الروم أعداء المسلمين (١) . فجرد عليهم العباسيون حملة سنة ٢٩١هـ قادها شخص يدعى « غلام ظرافة » — (وهو المعروف عند بعض المؤرخين الأوربيين باسم « ليو الطرابلسي ») — وقد استطاع هذا القائد أن يخضع أهل قبرس المتمردين لسيطرة المسلمين (٢) .

استمر النشاط البحرى لأسطولى مصر والشام فى العصر العباسى . ففى سنة ٢٢٧هـ (٨٤٢م) ، سار أبو دينار (٣) . على رأس حملة كبيرة مكونة من ٤٠٠ مركب حربى ، مابين ناقلة للجنود والعتاد ، ومقاتلة ، من موانى سوريا ، قاصدا الهجوم على بيزنطة نفسها ، التى كان سكانها قد أخذوا حذرهم للأمر ، وفى هذا الوقت توفى الخليفة المعتصم العباسى سنة ٢٢٧هـ ، وتعرض الأسطول السورى لعدة كوارث بفعل العواصف البحرية (٤) .

رأى البيزنطيون — إزاء ما تعرضت له جزرهم وبلدانهم من تخريب بسبب هجمات الوحدات البحرية الإسلامية ، التى قامت بها من قواعدها فى الشام ومصر — أن يقوموا بحركة هجومية مضادة فى أعقاب فشل حملة أبو دينار سنة ٢٢٧هـ منتهزين فرصة ضعف الروح المعنوية ، وتحطيم الحملة البحرية التى هاجمت بيزنطة . وكان هدفهم من ذلك هو إضعاف البحرية الإسلامية .

---

(١) سرهنك : حقائق الأخبار جـ ١ ص ٢١٥

Aly F. : Muslim Sea. power P. 125 n. 4.

(٢) أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية ص ٢٢٦

Hill. Hist of Cyprus vol, 1, P. 294, n. 2.

(٣) أبو المحاسن : النجوم جـ ١ ص ٢٤٣ ،

Aly. F : Muslim Sea-Power P. 107 n. 3.

(٤) أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية ٢٢٥ ؛ العرينى : الدولة البيزنطية ص ٢٥٠ .

ولذلك قاموا بعدة حملات على مدن السواحل المصرية المطلة على البحر المتوسط . وكانوا قد هاجموا من قبل ، فى التسع سنوات الأولى من القرن الثالث الهجرى : دمياط وتنيس ، منتهزين فرصة النزاع الذى نشب بين الأمين والمأمون ، وما نتج عن ذلك من اضطرابات وفتن ، فأعدوا عدتهم آنذاك لتوجيه الحملة إلى مصر (١) .

ولم تكن هذه الحملة — وهى ثالثة الحملات البيزنطية — على دمياط آخر تلك الحملات . ذلك أن البيزنطيين قاموا بحملة رابعة فى ٢٣٨هـ/٨٥٣ ، (٢) هاجموا فيها هذه المدينة (٣) . ومما شجعهم على مداومة الاغارة عليها ، أن موقع المدينة يسهل عليهم مهاجمته من البحر . فدمياط تقع على قطعة من الأرض مستطيلة تمتد من مصب فرع دمياط والبحر المتوسط (٤) ، بحيث لا يفصلها عن البحر سوى سبعة أميال (٥) ، فهى بذلك متصلة مباشرة بالبحر . وكان هدف الروم من حملة سنة ٢٣٨هـ على دمياط ، هو الحيلولة دون وصول إمدادات مصر إلى مسلمى كريت فلما شرعوا فى مهاجمتها وجدوها خالية من أى حامية تدفع عنها خطرهم (٦) .

---

(١) المقريزى : خطط (جـ ١ ص ٢١٤ / ط . بولاق) ،
Brooks : The relations between Emp& Egypt. p, 382,

(٢) اليعقوبى : تاريخه جـ ١ ص ٥٩٦ ، والسيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٣٨ (ط . كلكتا) .

(٣) العدوى : الأمبراطورية البيزنطية ص ٩٢ ، الأساطيل العربية ص ١٠٥ — ١٠٦ .

(٤) ياقوت معجم البلدان جـ ٤ ص ٨٥ — ٨٦ (مادة دمياط) وابن حوقل: المسالك والممالك ص ١٠١ .

(٥) العرينى : الدولة البيزنطية ص ٢٥٩ .

(٦) اليعقوبى : نفس المرجع جـ ٢ ص ٥٩٦ والكندى . القضاة والولاة ص ٢٠٠ — وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢٩٢ .

وقد أعمل الروم النهب والتخريب والحرق فى دمياط ، حتى لقد بلغ ما أحرقوه من منازلها ١٤٠٠ منزل [١] فضلا عما استولوا عليه من العتاد ، الذى كان معدا لإرساله إلى مسلمى كريت ، لمساعدتهم ضد الروم [٢] . يقول المقريزى ، فى وصف هذه الحملة البيزنطية على دمياط ، «ثم لما كانت خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله (٢٣٢ — ٢٤٧هـ/٨٤٧ — ٨٦١م) ، وأمير مصر يومئذ هو عنبسة بن إسحق الضبى ، نزل الروم دمياط ، وقتلوا بها جمعا كثيرا من المسلمين . وسبوا النساء والأطفال وأهل الذمة ، فنفر إليهم عنبسة ابن إسحق يوم النحر ، فى جيشه ونفر كثير من الناس إليهم ، فلم يدركوهم ، ومضى الروم ، إلى تنيس ، فأقاموا بأشتومها ، فلم يتبعهم عنبسة [٣] .

رحل البيزنطيون عن دمياط ، فى اليوم الحادى عشر من ذى الحجة عام ٢٣٨هـ / ٢٤ مايو عام ٨٥٣ [٤] ، بعد أن مكثوا بالمدينة ثلاثة أيام ،

---

(١) اليعقوبى : نفس المرجع جـ ص ٥٩٧ الطبرى : جـ ٣ ص ١٤١٨ .

(٢) الطبرى : جـ ٣ ص ١٤١٧ — ١٤١٨ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٧ ص ٤٥ ، Vasiliev : Byzance a les Arabes, Tome, 1 P, 216

(٣) يروى أن الروم أسروا من النساء ١٢٥ امرأة مسلمة ومثلهن قبطيات وهذا ما أورده ، الطبرى (جـ ٣ ص ١٤١٨) وابن الأثير (جـ ٧ ص ٤٥) ، أما اليعقوبى فيذكر أن الروم أسروا ١٨٢٠ مسلم ، ١٠٠٠ قبطى و ١٠٠ امرأة كتابية يهودية . هذا بينما لا نجد تحديداً للأرقام عند كل من الكندى (ص ٢٠١) والمقريزى (خطط جـ ٢ ص ١٩١) ، ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢٩٤) وابن إياس (بدائع الزهور جـ ١ ص ٣٥) ، إذ يكتفون جميعاً بالقول أن الروم نسفوا المدينة وأخذوا معهم أسرى كثيرين أنظر أيضاً : الخطط المقريزية جـ ١ ص ٣٧٧ — ٣٧٨ (ط . بيروت) ، سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية ص ٩٠ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٢٩٤ واليعقوبى : تاريخه جـ ٢ ص ٥٩٧ والطبرى : جـ ٣ ص ١٤١٧ — ١٤١٨

محملين ، بالغنائم والأسرى ، اتجهوا صوب تنيس (١) . وقاموا بإحراق كل آلات الحرب ، التى صادفوها فى هجومهم على دمياط ، ثم عادوا أدراجهم من تلك الحملة التى حالفهم النصر فيها (٢) .

أدرك الخليفة العباسى « المتوكل على الله » ، بعد ما وقف على أحداث حملة الروم على كل من دمياط وتنيس سنة ٢٣٨هـ ، أن أسوار هاتين المدينتين ليست مدعمة ، ورأى أن الأمر يستلزم بذل عناية خاصة فى إنشاء الأساطيل . لأن الروم لا يفدون عليها إلا من جهة البحر المتوسط . لذلك أمر واليه على مصر — عنبسة بن اسحق الضبي — أن يعنى بإنشاء الأساطيل (٣) . واهتم العباسيون منذ ذلك الوقت ببناء الحصون والمحارس على سواحل البحر المتوسط الاسلامية ، وبالذات فى مدينتى الفرما (٤) ، وتنيس (٥) .

---

(١) ابن حوقل صورة الأرض (نشر كرامرز Kramere) ص ١٥٢ والقزوينى : آثار البلاد وأخبار العبـــاد ص ١١٧ — ١١٨ وياقوت : معجم البلدان جـ ١ — ص ٨٨٢ والمقدسى : أحسن التقاسم ص ٢٠١ — ٢٠٢ (الجزء الثالث من المجموعة الجغرافية ، نشر دى جوية ، ١٨٨٩ م) .

(٢) الطبرى : جـ ٣ ص ١٤١٨ والمقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٩١ (ط . بولاق) أو جـ ٣ ص ١٠٥ (ط . بيروت) واليعقوبى : تاريخه جـ ٢ ص ٥٩٦ — ٥٩٧ ويتفق اليعقوبى مع ابن الأثير (جـ ٧ ص ٤٥) فى القول بأن الروم رحلوا من دمياط دون أن يشتبك معهم عنبسه بن إسحق .

(٣) المقريزى : نفس المرجع جـ ٢ ص ١٩١ (بولاق) أو جـ ٢ ص ١٠٥ (ط . بيروت) ، الشيال : مجمل تاريخ دمياط ص ١٢ .

(٤) الفرما : مدينة تلقاء مصر . على شط بحيرة تنيس ، بنى بها المتوكل حصناً تولى بناء عنبسه ، وأنفق فيه مالا عظيما ، وهى أول مدن مصر من جهة الشمال وبينها وبين البحر ٣ أميال ، وكان بها رباط بحرى المرابسة والدفاع والغزو فى البحر ، انظر : المقريزى ، جـ ١ ص ٣٧٢ — ٣٧٣ (ط . بيروت) .

(٥) المقريزى : نفس المرجع جـ ١ ص ٣٧٢ — ٣٧٣ (ط . بيروت) . سرهنك : حقائق الأخبار جـ ١ ص ١٢٧ وسعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية ص ٩١ .

ومما يجدر ذكره ، أن العناية بتحصين دمياط برا وبحرا فى خلافة المتوكل ، كان لها أثرها ، فى درء الأخطار عن المدينة . وبقيت بفضل ما أقيم فيها من حصون وحاميات بحرية وأساطيل ، ترد غارات المعتدين (١) .

وفى سنة ٢٤٧هـ (٨٦١م) ، أمر الخليفة العباسى « المتوكل على الله » بأن ترابط السفن الحربية على طول الساحل وأن تشحن بالمقاتلة ، توقعاً لصد هجوم بزنطى ، ثم ما لبث أن هاجم البيزنطيون دمياط فى نحو مائتى مركب ، فظلوا يعبثون فى السواحل شهرا (٢) وكان الروم فى غزوهم البلاد المصرية وسواحلها يختارون الفترة التى تكون فيها الأمور غير مستقرة فى مصر ، أو فى الدولة الإسلامية فيشنون على سواحل مصر أو الشام هجماتهم ، علّهم ينالون من قوة المسلمين البحرية فى حوض البحر المتوسط الشرقى (٣) .

كما كانت غزوات البيزنطيين على مصر ، تستهدف إلى جانب الحد من نشاط الأسطول المصرى ، شرق البحر المتوسط ، الحيلولة دون وصول الإمدادات المرسلة باستمرار من مصر إلى مسلمى كريت وقواتهم البحرية . فلما هاجم الأسطول البيزنطى دمياط سنة ٢٢٨هـ أحرق - تنفيذا لهذا المخطط — كل ما كان معدا شحنه إلى كريت من عتاد ومؤن ، لأنها — أى كريت — كانت قد أضحت بمثابة قاعدة هجومية للمسلمين فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط (٤) .

وكانت الأحداث السياسية التى عاشتها مصر فى تلك الفترة ، عاملا هاما

---

(١) سرهنك : حقائق الأخبار جـ ٢ ص ٢٣ — ٢٤ ، الشيال : مجمل تاريخ دمياط ص ١٢ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٢ (تحقيق المنجد) .

Ency. of Islam, Vol 4, P. 557 (Art. Sur.)

(٣) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣٤٦ — ٣٤٨ (ط ، بيروت) .

(٤) سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية ص ٨٩ .

ساعد على الاهتمام بالأسطول ودور صناعة السفن بها . ذلك أن أحمد بن طولون الذى استقل بولاية مصر عام ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م ، رأى أن الحاجة ماسة إلى الاهتمام بالسواحل والثغور والقوات البحرية التى تحرسها وتدرأ عنه الأخطار التى قد تتعرض لها [1] ، لذلك أبدى اهتماما واضحا بالقوات البحرية المصرية ، ودور صناعة السفن بمصر .

يذكر المقريزى أن أحمد بن طولون أمر دور الصناعة ببناء المراكب ، وقام بتحصين « جزيرة الروضة » ليحتمى فيها بأهله وماله من غائلة العباسيين لو هاجموه كذلك حصن مدن السواحل وحصونها مثل : دمياط وتنيس [2]. كما ظل حصن (جزيرة الروضة) عامرا أيام بنى طولون ، ونشطت فيه صناعة السفن. فكانت تنشأ فيه المراكب الحربية ، إلى أن تقلد محمد بن طغج الأخشيد إمارة مصر من قبل الراضى بالله [3] .

وكان أحمد بن طولون لشدة اهتمامه بالسواحل — يحمل إلى طرطوس وغيرها من الرباطات البحرية وقواعد أسطوله فى الشام ومصر ، ما تحتاجه من عتاد وزاد بدرجة لم يحمله إليها أحد قط [4] . كذلك شرع فى بناء حصن يافا ، لكنه توفى سنة ٢٧٠هـ ، قبل الفراغ من بناء هذا الحصن ، فأتمه ابنه أبو الجيش خمارويه . والواقع أن أحمد بن طولون عنى عناية كبيرة بتدعيم

C.H. Pecker : Art Ahmed B. Tulun (Ency. of Islam vol. 1, P. 190). (١)

(٢) المقريزى : خطط جـ ٣ ص ٨٩ (ط . بيروت) .

(٣) المقريزى : نفس المرجع جـ ٣ ص ٩٠ .

(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٦٢ — ١٦٣ والبلوى : سيرة ابن طولون ص ١٨٣ — ١٨٤ ، ٢٠٨ — ٢٥١ .

وتحصين سواحل مصر والشام . فأنفق عليها بسخاء ، حتى وصل ما أنفقه على المرمات وعلى حصن يافا مائتا ألف دينار [1] .

صارت وحدات الأسطول الطولونى تتخذ من موانى الشام ومصر قواعد بحرية ، للدفاع عن الدولة الطولونية ، كما أسهمت هذه الوحدات فى النشاط البحرى الذى اضطلع به أسطول كريت الإسلامى فى مياه بحر إيجة [2] .

لقد كان الأسطول المصرى عند وفاة أحمد بن طولون سنة ٢٧٠ مكونا من ألف مركب [3] ، فلما خلفه ابنه أبو الجيش خمارويه ، حذا حذوه فى الاهتمام بإيجاد قوات بحرية وسفن حربية ترابط على السواحل المصرية والشامية [4] ، المطلة على البحر المتوسط ، كما أقام « فى منار الأسكندرية — بعد تجديدها قوما مرتّبين لوقود النار طول الليل ، لإرشاد السفن .. فإذا أحسوا بقدوم قوات معادية أشعلوا النار فوق المنار من جهة المدينة حتى ينتبه الحرس ، ويتخذون حذرهم . . . » [5] . وقد استطاع الأسطول الطولونى فى مصر والشام — برغم الصعوبات الداخلية التى واجهت الطولونيين — أن يصد هجمات البيزنطيين البحرية سواء على مصر أو الشام [6] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ : ص ١٨٥ ، البلوى : نفس المرجع ص ١٨٤ وسعاد ماهر ، البحرية فى مصر . . ص ٣١٤ — ٣١٥

(٢) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٢٠٩ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٨٥ .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٤٠ والمقريزى : خطط جـ ٢ ص ١٠٣ — (ط . بيروت) ، سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ص ١٢٣

(٤) المقريزى . خطط ١ — جـ ٢ ص ١٠٣ — ١٠٤ (ط . بيروت) .

(٥) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ (ط بيروت) .

(٦) سرهنك : حقائق الأخبار جـ ٢ ص ٢٤ ، سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية ص ٩٣ .

وكانت قوة الأسطول الإسلامى ، شرق البحر المتوسط — فى أواخر القرن الثالث الهجرى — وقواعده البحرية ، تسمح له بالقيام بعمل كبير ضد الروم . يقول اليعقوبى — (١) فى أواخر القرن الثالث الهجرى — عن ميناء طرابلس الشام بأنه « عجيب يحتمل ألف مركب » . وكانت طرابلس تعد آنذاك ميناء دمشق ، كما يقول الأصطخرى (٢) .

واصلت القوات البحرية الإسلامية فى أواخر القرن الثالث الهجرى نشاطها ، فخرجت من مينائى طرطوس ، وطرابلس ، حملة بحرية فى أوائل سنة ٢٩١هـ استولت على جزيرة لمنوس (Lemnos) (٣) . دون مقاومة من البحرية البيزنطية التى كانت وقتذاك تعانى الاضطراب والفوضى (٤) : كما قامت حملة إسلامية أخرى فى هذه السنة (٥) مكونة من ٥٤ سفينة ناقلة للجند كل منها بها نحو مائتى رجل بعتادهم (٦) . بقيادة ، قائد كفء هو « أبو الحارث

---

(١) اليعقوبى : البلدان ص ٣٢٧ ، متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣١٧ — ٣١٨ .

(٢) الاصطخرى : مسالك الممالك ص ٦١ المجموعة الجغرافية (ط أوفست ١٩٦٧ ، بريل ، ليدن) . وقال عنها أنها مدينة عامرة على بحر الروم ، وابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٧٧ ، ٩٨ ، ١٠٥ والمقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٤ .

Ency. of Islam Vol, 4. p. 660 (Art Trabullus).

(٣) جزيرة لمنوس (Lemnos) ، أو لمنى (lemni) - كما يسمونها فى فى التركية — تقع فى بحر إيجة ، بين جبل آثوس (Athos) . وسهول آسيا الصغرى على نحو ٥٠ ميل إلى الجنوب الشرقى من مداخل الدردنيل وقد سيطر عليها البيزنطيون عام ٢٨٩ هـ (٩٠١م) ثم حاصرتها مجموعة من مسلمى كريت ونهبتها

Ency. of Islam Vol, 3 p. 1. P. 27.

(٤) Vasiliev : Hist. of Byz. Emp. Vol, 2. P. 132 Seq. Madison, 1928—1929).

(٥) Jenkines: The flight of samonas (Speculum, April, 1948

Vesiliev : Hist of Beyz. Emp 2 P, 189.

(٦) Finlay : Hist of Greece, Vol. 2 P. 297.

غلام ظرافة » [1] ، أمير صور — أو « رشيق الورداني » كما تسميه بعض المصادر — ففتح تساليا (تسالونيك) [2] وهاجم منطقة الدردنيل ، ولم يبد البيزنطيون أى مقاومة . لذلك استطاع ليو الطرابلسى (أو غلام ظرافة كما يسميه المؤرخون المسلمون) ، أن يدخل بقواته المضايق مندفعا نحو القسطنطينية بينما تحصن البيزنطيون بأسوار عاصمتهم [3] .

ولا شك أن القائد أبا الحارث غلام ظرافة (ليو الطرابلسى) ، كان يخطط - بهجومه على تسالونيك سنة ٢٩١هـ - للاستيلاء على القسطنطينية، فدخل منطقة الدردنيل واستولى على ابيدرس (Abydos) [4] ، وانضمت إليه وحدات بحرية من كريت ، مما اضطر القائد البيزنطى إلى الانسحاب [5] .

كانت حملة أبى الحارث غلام ظرافة ، على تسالونيك ، من أهم ما قامت به القوات البحرية السورية [6] ، الاشتراك مع قوات بحرية من كريت

(١) أورد كل من الطبرى (جـ ٣ ص ٢٢٥٠) ابن الأثير (الكامل جـ ٧ ص ٢٦٨ — ٢٦٩) وابن خلدون (العبر جـ ٣ ص ٣٥٧) والمسعودى (مروج جـ ١ ص ٢٨٢) اسم هذا القائد على أنه « لاوى الطرابلشى (Lawi) وعرفوه بأبى الحارث » أما المؤرخون الأوربيون مثل بيورى وفملاى رثيوفانيس وغيرهم فقد سموه «ليو الطرابلسى» . وعلى كل حال فقد كان هذا القائد مستأمنا (قائداً) للأسطول السورى الحربى ويقال إنه من أبوين مسيحيين . ولد بآضاليا (أطاليا) Attlia فى بامفيليا جنوب شرق آسيا ، ثم هاجر لسوريا واستقر بها واعتنق الاسلام . انظر كذلك ابن دحلان : الفتوحات الاسلامية جـ ١ ص ٢٢٤ .

(٢) وردت عند بعض المؤرخين المسلمين باسم أنطاكية خطأ والمقصود طبعاً تساليا أو تسالونيك Thessalia, Thesslonica .

(٣) Aly F. : Mouslim Sea-Power P. 109.

(٤) العريني : الدولة البيزنطية ص ٣٢٢

Aly F. : Muslim Sea power P. 110 n. 2

(٥) أسد رستم : الروم جـ ٢ ص ١٩ .

(٦) R. Jenkins : The flight of samonas PP. 217-253

ومصر ، لتأمين القوى الإسلامية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط (١) . وقد أحرزت القوات الإسلامية نصرا عظيما فى تسالونيك ، إذ أسروا نحو ٢٢ ألف من سكانها (٢) . وكانت هذه المدينة قاعدة للأسطول البيزنطى ينطلق منها إلى الشام ومصر .

وكان الامبراطور ليو السادس الحكيم(٨٨٦– ٩١٢م/٢٧٢–٣٠١هـ) يعلم بقيام وحدات من البحرية العباسية ، من قواعدها بالشام (طرابلس وطرطوس) فى عهد المكتفى العباسى (٢٨٩ – ٢٩٥هـ / ٩٠٢ – ٩٠٨م) بهجوم جرىء على أملاكه ثم ما لبثت مخاوف ليو السادس أن تحققت صحتها ، حين ترامت إليه الأنباء ، بأن المسلمين فى طريقهم لمهاجمة حاضرة دولته ، خاصة وأنهم هاجموا تسالونيك سنة ٢٩١هـ ، التى لم يكن بها وقتذاك حامية تدفع عنها الهجوم الإسلامى المباغت (٣) .

دلت حملة « أبى الحارث غلام ظرافة » ، على تسالونيك ، على مدى قوة الأسطول الإسلامى فى الشام ومصر ، وإحكام التعاون بين وحداته ووحدات الأسطول المصرى وقوات كريت البحرية . ويكفى لإدراك أهمية هذه الحملة ، أن الدولة البيزنطية نفسها لم تبدأ فى عمل استحكاماتها الدفاعية الحصينة حول تسالونيكا وميناءها البحرى ، إلا بعد هذه الحملة التى أنزلت بالمدينة الكثير من الخسائر والدمار (٤) .

استمر نشاط القوات البحرية الإسلامية من قواعدها فى مصر والشام ، يساعدهما فى ذلك قوات كريت البحرية ، حتى أصبحت مصدر خطر كبير

---

(١) الطبرى . ج ٣ ص ٢٢٥٠ ، الأثير : الكامل ج ٧ ص ٣٦٨ — ٣٦٩
Camb. Med. Hist. vol, 4, P. 142,

(٢) Fi_lay : Hist of Greece, Vol, 2p. 267. n. 1

(٣) Finlay : op. Cit; – Vol, 2 p. 267 – 268

(٤) Camb. Med. Hist vol, 4, p. 142, Op Cit, P. 268 – 270.

على البحرية البيزنطية طوال القرن الثالث الهجرى . وكان الهجوم على تسالونيك ونهبها وتخريبها ، دليلا على ذلك . وفى نفس الوقت لم يواجه النفوذ الإسلامى فى قبرص صعوبات إلا بعد حملة « أبى الحارث غلام ظرافة » على تسالونيك .

ولما خرجت جزيرة قبرس على سياستها الحيادية من الصراع بين المسلمين والبيزنطيين سنة ٢٩١هـ ، عوّل ليو الطرابلسى (غلام ظرافة) على مهاجمتها أثناء عودة الأسطول الإسلامى من تسالونيك [1] . وقد عاودت قبرص تمردها على حيادها ، بقيام حاكمها البيزنطى بمهمة قطع الاتصال بين سوريا وجزيرة كريت ، ومنع استمرار تدفق الإمدادات الواردة إلى كريت عن طريق خليج طرطوس . ومواني الساحل السورى ، وكذلك بالنسبة لطرابلس واللاذقية [2] .

حاول البيزنطيون إعادة سيطرتهم على قبرس بعد سنة ٢٩١هـ ، فبدأوا يضيقون الخناق على تحركات الأسطول الإسلامى شرق البحر المتوسط [3] ويقول المسعودى أن سبب الحملة يرجع إلى نقض القبارسة للاتفاق السابق مع المسلمين ، الذى أقروا فيه بأن يكونوا محايدين لا ينحازون للروم ولا يساعدونهم — وأن يدفعوا الفدية المقررة عليهم مناصفة للمسلمين والروم . لكن الخليفة العباسى وجه إلى الجزيرة حاكم طرطوس العباسى — وكان اسمه داميانا — على رأس حملة سنة ٢٩٧هـ ، لإخضاع أهل الجزيرة المتمردين على المسلمين ، فقام بالمهمة خير قيام [4] .

---

(١) Hill : Hist of Cyprus, vol, 1 p. 294.

(٢) Aly F. : Muslim Sea power p. 166.

(٣) Gregoire : see Byzintinsche zeit. vol, 16 1907 p. 932.

(٤) المسعودى : مروج الذهب : جـ ٨ ص ٢٨٢ .

وأورد الطبرى : (تاريخ الرسل والملوك جـ٣ ص ٢١٥٤) اسم داميانا على =

ظلت جزيرة قبرص من القرن الأول إلى بداية القرن الرابع الهجرى (من السابع حتى بداية العاشر الميلادى) — تحت سيطرة المسلمين، ولم تكن خاضعة للسيادة البيزنطية خضوعا مطلقا (١)، يقول ابن خرداذبة: «حينما كانت الحكومة الإسلامية (العباسية) تأمر بإرسال حملة بحرية، فإن حاكمى سورية ومصر كانا يكلفان بإنجاز التجهيزات اللازمة للحملة، ويلتقى الأسطولان، المصرى والشامى فى قبرص (٢)». فكانت هذه الجزيرة دائما منطقة، تجمع للأساطيل الإسلامية المهاجمة للبلاد الخاضعة الروم فى البحر المتوسط، وكان رئيس الحملة غالبـــا، هو حاكم سواحل سوريا، يقول المقدسى (٣)، أن قبرص «جزيرة آهلة قدمت للمسلمين كثيرا من الامتيازات التجارية فى حوض البحر المتوسط .. وأن من يحكمها يسيطر على ذلك البحر».

لكن البيزنطيين تمكنوا من استعادة سيطرتهم التامة على الجزيرة فى عهد الامبراطور نقفور فوكاس (٩٦٣ — ٩٦٩م / ٣٥٢ — ٣٥٨ / ٣٥٩هـ) سنة ٣٥٥هـ (٩٦٥م)، وحلت الهزيمة بالأسطول الإسلامى. فقد

= أنه كان حاكما لطرطوس سنة ٢٨٣ هـ (٨٩٦ — ٨٩٧ م)، كما أنه هو الذى توجه بعد ذلك بثمان سنوات لإخضاع الطولونيين بمصر. انظر بن الأثير (الكامل جـ ٨ ص ٥٧). وكان «داميانا» هذا مشرفا على الأسطول الإسلامى شرق البحر المتوسط إلى جانب عمله كوالى لطرطوس. وقد مات سنة ٣٠١ هـ (٩١٣م) فى حملة كان يشنها ضد الروم. انظر كذلك الكندى (القضاة والولاة ص ٢٤٤ وما بعدها) والطبرى: جـ ٣ ص ٢٢٥١، ٢٢٥٤.

(٢) Camb. Med. Hist. Vol, 4 p. 140

(٣) ابن خرداذبه: الجزء السادس من المجموعة الجغرافية العربية (B.A.G.) لشردى جويه ص ٥٢٥.

(٤) المقدسى: أحسن التقاسيم (الجزء الثالث من المجموعة الجغرافيـــة) ص ١٨٤.

انتهزوا فرصة الضعف الذى تعرضت له الدولة الطولونية فى أواخر عهدها ، فواصلوا حملاتهم على سواحل مصر فى رشيد والفرما وأشتوم تنيس » (١) .

ولما استقل الإخشيديون بحكم مصر سنة ٣٢٣هـ (٩٣٥م) ، عمدوا إلى الاقتداء بالطولونيين فاهتموا بالأساطيل ، ودعموا قواعدها ، وأسسوا دوراً لصناعة السفن الحربية والتجارية ، حتى لقد صار لدى الإخشيديين أسطول قوى (٢) .

غير أن الاخشيديين لم يتمكنوا من بعث النشاط البحرى فى شرق البحر المتوسط ، بسبب انشغال ولاتهم بالدفاع عن مصالحهم الخاصة ، ثم لم يلبث حكمهم أن زال بعد وقت قصير (سنة ٣٥٧هـ — ٣٥٨هـ/٩٦٨ — ٩٦٩) . مما ترتب عليه توقف نشاط الأسطول الإسلامى فى مصر والشام شرق البحر المتوسط (٣) ، إلى حين .

والحقيقة أن العناية بالأسطول ، كان أمراً هاماً ، بالنسبة لجميع ولاة مصر وحكامها (٤) ، وفى ذلك يقول المقريزى (٥) : « وما زال حصن الجزيرة (بالروضة) هذا عامراً أيام بنى طولون ، وعملت فيه صناعة مصر ، التى تنشأ فيها المراكب الحربية (٦) » .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣١٤ (ط . بولاق) .

(٢) العدوى : الأساطيل العربية ص ١١٣ .

(٣) الأنطاكى : تاريخ سعيد بن بطريق ص ٧٨٠ (٨٢) (منشور فى مجموعة الـ Pat. Or. Vol, 18 Fasc. 5 .

(٤) سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى ص ١٦٨ .

(٥) المقريزى : خطط جـ ٣ ص ٩٠ — ٩١ (ط . بيروت) ، حسن إبراهيم : الاسلام السياسى جـ ٣ ص ٢٨٩ ، جـ ٤ ص ٣٧٣ .

(٦) وقد عرف المقريزى المراكب الحربية بأنها « هى التى تنشأ لغزو العدو وتشحن بالسلاح وآلات الحرب المقاتلة . فتمر من ثغر الاسكندرية وثغر =

فاستمر صناعة إلى أن تقلد الأمير محمد بن طغج إمارة مصر ، من قبل الخليفة الراضي بأمر الله (العباسي) عِوَضاً عن « أحمد بن كيغلغ » ، وسير المراكب من الشام عليها « صاعد بن الكلكم » ، فدخل تنيس وسارت مقدمته في البر ، ودخل صاعد دمياط . . . وأقبل بمراكبه إلى الفسطاط . فكان بالجزيرة ، وقدم محمد بن طغج الأخشيد . وتسلم البلد ، لست بقين من رمضان سنة ٣٢٣ هـ . . . وكان نقل الصناعة — أي دار الصناعة — من الجزيرة إلى ساحل النيل بمصر في شعبان عام ٣٢٥ هـ .

أصبح للعالم الإسلامي في أواخر القرن الثالث الهجري ، ثلاث قوى إسلامية بحرية متميزة في حوض البحر المتوسط : الأولى في الغرب وهي الأموية بالأندلس ، والثانية في الحوض الأوسط للبحر المتوسط ، وهي قوة الأغالبة ، والثالثة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وهي قوة العباسيين البحرية في مصر والشام . وكانت القوة البحرية للمسلمين شرق البحر المتوسط تتكون من أساطيل سورية ومصر[١] .

وقد استطاعت القوات البحرية العباسية بالشام ومصر ، أن تهزم الفاطميين بحريا ، الذين كان أسطولهم لا يزال في ذلك الحين أقل كفاية . ففي سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) تمكنت ٢٥ مركباً حربياً من أسطول الشام أن تلحق الهزيمة بنحو ٨٠ مركبا من أسطول الفاطميين . لكن البحرية الإسلامية شرق البحر المتوسط ، تعرضت للضعف بسبب عدم اهتمام الخليفة المقتدر العباسي (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ — ٩٣٢ م) بأمرها ، وعجزه عن إمداد حصون السواحل الشامية ورباطاتها البحرية في طرابلس

= دمياط وتنيس والفرما إلى جهاد أعداء الله من الروم والفرنج وكانت هذه المراكب يقال لها الأسطول ، ولا أحسب هذا اللفظ عربياً ، انظر المقريزي : خطط ص ١٩٧ (ط . بولاق) ، سعاد ماهر : البحرية في مصر ص ٣١٥ .

(١) أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية ص ٢٥٠ - ٢٥٢ .

وصيدا وصور وعسقلان بما تحتاجه من عتاد ومؤن . فتأثرت بذلك مقدرة ونشاط الأسطول الإسلامى بالشام شرق البحر المتوسط ، كما طمع فيهم البيزنطيون ، حتى تجـــرأ الأمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع (٩١١ — ٩٥٩ م / ٢٩٩ — ٣٤٨ هـ) وطلب من أهل السواحل الشامية أن يؤدوا إليه خراجهم وقال لهم مهدداً «أن فعلتم ذلك طائعين ، وإلا قصدتكم فقد صح عندى ضعفكم[1] » .

وهكذا قل نشاط الأسطول الإسلامى بالشام ومصر فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، ولم يصبح له أى تأثير بارز فى ذلك الوقت ، بسبب ما كان يعانيه من ضعف نتيجة لما ساد بلاد الشام والدولة الأخشيدية بمصر من اضطراب .

وقد ترتب على تداعى القوة البحرية الإسلامية فى شرق البحر المتوسط آنذاك سيطرة الروم على موانى : بيروت وصيدا وجبيل ، أما طرابلس فاستعصت عليهم ، وعادت الحملة البيزنطية إلى أنطاكية بقيادة الأمبراطور زيمسكيس[2].

* * *

(ب) الفتح الإسلامى لجزيرة أقريطش « كريت » :

شرع المسلمون فى عهد هارون الرشيد فى الإغارة على جزيرة كريت (اقريطش) فهاجمها أسطول إسلامى بقيادة حميد بن معيوف الهمدانى ،

---

(١) حسن ابراهيم : الاسلام السياسى ج ٢ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ج ٢ ص ٢٧٣ وآدم متز : الحضارة الاسلامية ج ٢ ص ٣١٧ .

(٢) مات هذا الامبراطور محزوناً فى ١٠ يناير سنة ٩٦٩م (٣٦٦ هـ) على مالحقه من هزيمة على يد الفاطميين بمصر ، الذين سيطروا على مصر والشام معاً منذ سنة ٣٦٢ هـ .

وسيطرا المسلمون فى هذا الهجوم على بعض نواحى الجزيرة ، لكنهم لم يلبثوا أن غادروها عائدين إلى الشام . وظل الحال على ذلك حتى ولى المأمون الخلافة (١٩٨ — ٢١٨ هـ / ٨١٣ — ٨٢٣ م) . وفى عهده تم فتح هذه الجزيرة على يد قوم من مهاجرى الأندلس[١] . ويعد دخول أولئك الأندلسيين جزيرة كريت ، وفتحهم لها ، واستقرارهم بها ، دليلا على نشاط الجماعات الإسلامية ، التى كانت تعمل فى مياه البحر المتوسط[٢] . ذلك أن معظم حركات الأندلسيين ، فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، وقعت حوالى عام ١٩٩ هـ / ٨١٤ م ، حين اضطر فريق منهم يبلغ عدده نحو ١٥,٠٠٠ شخص إلى الهجرة من الأندلس ، على أثر ثورة قامت فى ضواحى قرطبة فى ربضها الغــربى أيام الأمير الحكم بن هشام (١٨٠ — ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ — ٨٢٢ م)[٣] ، الذى عرف بعد هذا التمرد « بالحكم الربضى » .

وكان سبب هجرة الربضيين هو ذلك التمرد الخطير الذى قاموا به فى الربض الغربى لمدينة قرطبة[٤] . ذلك أنهم ثاروا أكثر من مرة ضد الأمير الحكم بن هشام ، بسبب ما عرف عنه من انصراف عن شئون الرعية .

---

(١) Aly F. : Muslim Sea – Power p. 128

(٢) حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط ص ١٣٧ .

(٣) زينب عصمت راشد : كريت تحت الحكم المصرى ص ١٨ — ١٩ .

(٤) الربض : هو ضاحية تابعة للمدينة ، وعلى هذا فربض قرطبة ضاحيتها ، وهو على الضفة الأخرى من النهر ، ويسمى ربض شقندة ، Secunda استوطنه العمال وأهل الأسواق والعلماء من رجال الدين . وفيه قامت الثورة على الحكم سنوات ١٨٩ ، ١٩١ هـ ، فأخمدها الحكم بقوة ، دفعت بالأمور والمشاعر إلى ثورة عارمة أخرى عام ١٩٩ هـ : ٨١٤ — ٨١٥م : حوصر فى بدايتها الحكم ابن هشام فى قصره حتى كاد يقتل . لولا أنه أوفد رجالا له اخترقوا الحصار المضروب حول =

على أن سياسة الشدة والعنف التى انتهجها الأمير الحكم بن هشام فى إخماد ثورة الربضيين فى سنتى ١٨٩ - ١٩١ هـ (٨٠٥ — ٨٠٧ م) ، أدت إلى أثارتهم سنة ١٩٩ هـ (٨١٤ م) . فأعلنوا خلعه ، وتمردوا عليه وبايعوا أحد أقاربه ويدعى « ابن شماس » الذى خدعهم وأفشى سر ثورتهم للحكم وجنده[1] فقاتلهم الأمير الأموى وهدم دورهم ومساجدهم[2] ، حتى أطلق عليه تخليداً لهذا الحادث اسم « الحكم الربضى »[3] .

أبحر هؤلاء المهاجرون الأندلسيون ، دون أن يصحبوا معهم زوجاتهم وأولادهم[4] ، إلى الإسكندرية ، حيث استقروا فى ضواحيها سنة ١٩٩ هـ (٨١٤ م)[5] ، وتحالفوا مع قبيلة من عرب أفريقية على

= قصره وأشعلوا النار فى الربض ، فاضطر المحاصرون إلى العودة لإنقاذ أهليهم فى الربض ، مما مكن منهم الحكم بن هشام وجنده فأخمد ثورتهم ونكل بهم وقتل منهم الكثير وأصبح الربض خرائب موحشة تنعى من بناها ، وتحول جزء منه إلى مدافن . وظل المكان مقفراً طوال العهد الاسلامى بالأندلس . انظر ابن الآبار : الحلة السيراء ج ص ٤٤ وابن الأثير ج ٦ ص ٢٠٩ — ٢١١ (ط . تورنبرج) (أحداث ٩٩ هـ) فازيليف : العرب والروم ص ٥٢ — ٥٣ وأسد رستم : الروم ج ١ ص ٣٢٢ .

(١) فازيليف : العرب والروم ص ٥٢ .

(٢) النصولى : الدولة الأموية فى قرطبة ج ١ ص ٦٠ ، رينو : تاريخ غزوات العرب ص ١٤٢ حاشية ، العدوى : الأمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ص ٨٨ .

(٣) ابن الآبار : الحلة السيراء ج ١ ص ٢٨ وفيليب حتى : تاريخ العرب ج ٢ ص ٦١٠ .

(٤) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٤٢ ، فازيليف : العرب والروم ص ٥٢ — ٥٣ Bury : His, of East. Rom. Emp,. p. 287.

(٥) ابن الآبار : الحلة السيراء (ج ١ ص ٤٥) وشكيب أرسلان تاريخ غزوات العرب ص ١٤٣ هامش .

حمايتهم الى أن تمكنوا من المدينة ، بعد أن قويت شوكتهم . ويظهر ان هؤلاء اللاجئين وصلوا بمراكبهم إلى الإسكندرية ، دون أن تعترضهم سفن البزنطيين أو العباسيين[1] .

اختار المهاجرون من بينهم أبا حفص عمر البلوطي[2] أميراً عليهم ، وعلى الرغم من أن الأندلسيين كانوا ممنوعين من دخول الإسكندرية ، لكنهم رغم ذلك استمروا يسيطرون عليها لمدة تزيد على عشر سنوات أو أكثر ابتداء من سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٦ م . وقد عرفوا بنشاطهم فى البحر المتوسط ، وكانوا أحيانا يذهبون بمراكبهم إلى كريت للإغارة وأحيانا أخرى للتجارة[3] .

ولما وقعت الفتن والقلاقل فى مصر ، فى عهد المأمون العباسى ، أرسل

---

(١) الطبرى : ج ٢ ص ١٠٩١ والكندى : القضاء والولاة ص ١٥٨ .

(٢) أبو حفص هو عمر بن عيسى بن شعيب بن الوليد البلوطى البتروجى الاقريطشى وسمى البلوطى نسبة لعملية فحص البلوط بقريته بوطروح فى شمال قرطبة فى سيراموريينا . انظر :

Ency. of Islam, vol, 1, p. 37, Brooks: Arab Occupation of crete, p. 438.

ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٢٥٣ ، ج ٤ ص ٢١١ .

شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٤٤ هامش (١) .

(٣) هناك خلاف حول ما إذا كان الأندلسيون الذين وصلوا إلى الاسكندرية عن لهم علاقة بالتمرد أم لا . ومن هؤلاء Dozy : Musl. d' E, Spagne T. l; وهو يقول عن: الربضيين أنهم مغامرين انظر أيضاً: Levi provencal. & p. 300 أرسلان : المرجع السابق ص ١٤٣ هامش وسرهنك : حقائق الأخبار ج ٢ ص ٧٩ ، كما أن هناك خلافاً حول تاريخ نزولهم الاسكندرية . أنظر الكندى : القضاه والولاة ص ١٥٧ — ١٥٨ والمقريزى (خطط) ج ١ ص ٣٠٢ — ٣٠٣ (ط ، بيروت) .

هذا الخليفة قائده عبد الله بن طاهر بن الحسين[1] ، سنة ٢١٠ هـ ، لوضع حد لها[2] ، واستمر عبد الله بن طاهر يعمل بقواته نحو سنتين ، لإخضاع والى مصر العباسى عبيد الله السرى ، الذى أعلن استقلاله عن الخلافة العباسية[3] وقد تيسر له ذلك فى ربيع الأول سنة ٢١٢ هـ (يونيو ٨٢٧ م) . كما صالحه الأندلسيون على أن يسيرهم من الإسكندرية حيث أحيوا ، واشترط عليهم ألا يخرجوا فى مراكبهم أحداً من أهل مصر .

بعث عبد الله بن طاهر ، إلى سفن الأندلسيون المهاجرين ، من فتش سفنهم فوجدوا فيها جمعاً من المصريين ، مخالفين بذلك ، ما اشترطه عليهم . فأمر ابن طاهر بإحراق سفنهم ، غير أنهم توسلوا إليه ألا يفعل ، ويتركهم لشأنهم ، فأجاب طلبهم ، وساروا متجهين إلى أقريطش فى ربيع الأول سنة ٢١٢ هـ . وعلى رأسهم أميرهم أبو حفص عمر بن عيسى[4] .

ومما يجدر ذكره أن أحداث قدوم الأندلسيين من الإسكندرية إلى كريت (اقريطش) يرددها المؤرخون أو الكتاب المسلمون وحدهم[5] . أما المؤرخون ، الأوربيون ، فيذكرون أن فاتحى (اقريطش) قدموا مباشرة

---

(١) ورد اسم هذا القائد عما أنه : « عبد الله بن طلحة » محرفاً عن حقيقته انظر ش . ارسلان : نفس المرجع ص ١٤٢ .

(٢) العدوى : الأمبراطورية البيزنطية ص ٨٨ .

(٣) ويسمى فازيليف هذا الوالى عبد الله بن السرى . انظر فازيليف : العرب والروم ص ٥٣ .

(٤) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣٠٤ (ط . بيروت) . وهناك خلاف بين المؤرخين المسلمين حول تاريخ فتح كريت فالطبرى و (جـ ٢ ص ١٠٩١) وابن الأثير (جـ ٦ ص ٢٨١) وابن خلدون (جـ ٢ ص ٢٥٣) قرروا أنه تم ما بين سنتى ٢١٠ ، ٢١١ هـ . انظر أيضاً : اليعقوبى وتاريخه جـ ٢ ص ٥٦١ — ٥٦٢

(٥) Aly F.: Muslim Sea-power p. 13 c.

من الأندلس أو صقلية إلى الجزيرة (كريت) ، دون أن يشيروا إلى رحيل الأندلسيين عن الإسكندرية[1] .

لما عبر الأندلسيون المهاجرون البحر المتوسط إلى كريت ، تحصنوا فى إحدى نواحيها حول خندق وسموها باسم « الخندق » أو قندية Candia واتخذوها فيما بعد مركزاً لنشاطهم البحرى فى حوض البحر المتوسط [2] . وكانوا فيما يرجح قد نزلوا بالجزيرة فى العام السابق (٢١١هـ/٨٢٦م) فى محاولة منهم للتعرف على أحوالها [3] ومعرفة قوة الروم بها ، إذا ما تيسر لهم دخولها أو الاستيطان بها . ولا يبعد أن يكون الأندلسيون قد عادوا من غارتهم الاستطلاعية سنة ٢١١هـ بمعلومات وافية عن أحوال الجزيرة ، فضلا عما حملوه من غنائم وأسلاب ، حصلوا عليها فى غارتهم الخاطفة ، مما شجعهم على الاتجاه إليها بعد أن أخرجهم عبد الله بن طاهر من الإسكندرية .

لما استقر أبو حفص وأتباعه من الأندلسيين فى جزيرة كريت ، استولوا على حصن على مقربة من ساحلها وأقاموا به ، كما احتموا بخليج سودا Suda[4] . وقاموا بتخريب الحصون والقلاع البيزنطية التى صادفتهم على أرض الجزيرة ،

---

(١) Aly F. Muslim Sea-power P. 130.

(٢) أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية ص ١٦٩ .

(٣) يذكر (Bury) أن هذا النزول كان سنة ٨٢٤م وليس ٨٢٦م . ولا نرى ما يمنع أن يكون هناك غارة حدثت فعلا من المهاجرين الأندلسيين سنة ٨٢٤م ، بخلاف الغارة التى تمت سنة ٢١١هـ (٨٢٦م) قبل الفتح الذى تم سنة ٢١٢هـ (٨٢٧) بقيادة أبو حفص عمر البلوطى . فلا يبعد أن تكون هذه الغارات المقصود منها استطلاع أحوال الجزيرة وجمع المعلومات عنها . أنظر أيضاً Bury: Hist of East. Rom. Emp. p. 288; Brooks : Arab Occupation of Crete, p. 432

(٤) حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط ص ١٢٨ .

ويبدو أن الأندلسيين لم يواجهوا عند نزولهم أية مقاومة (١) فكان السكان أنفسهم يكرهون الإدارة البيزنطية (٢) . كما يرجع عدم مقاومة البيزنطيين لهؤلاء المسلمين الذين دخلوا كريت ، إلى ما أصاب الأسطول البيزنطى أثناء قيامه بالقضاء على ثورة توما الصقلي قبيل الفتح الإسلامى لكريت (٣) .

أسس أبو حفص مدينة جديدة فى جزيرة اقريطش ، وأحاطها بخندق ، فسميت المدينة باسمه « قندية » أو « الخندق » (٤) واتخذها حاضرة له . ولم يلبث المسلمون أن سيطروا على كثير من مدن هذه الجزيرة (٥) ، وقد شعر أهل كريت بالأمن والاستقرار فى ظل الحكم الإسلامى ، واستمروا على هذه الحال حتى هاجم البيزنطيون الجزيرة سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١م) واستولوا عليها (٦) .

كان اعتراف حكام كريت المسلمين ، بالتبعية للعباسيين ، مما ساعد على جعل هذه الجزيرة بمثابة قاعدة بحرية هامة للأسطول الإسلامى شرق البحر المتوسط (٧) . إذ غدت كريت تابعة لولاية مصر إداريا ، كما صارت الإمدادات تصلها تباعا من مصر والشام . وفى نفس الوقت عمل مسلمو كريت

---

(١) انظر العدوى : الأمبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٨٩ ،
Brooks : Ibid p. 431 – 432.

(٢) فازيليف : العرب والروم ص ٥٦ ،
Bury : Hist of East. Rom. Emp. p. 288.

(٣) أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية ص ١٧٠ .

(٤) Gibbon : Hist of Decline and fall of Rom. Emp. Vol, 6 p. 18, & Camb. Med. Hist Vol, 4 p. 36.
شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٤٣ هامش .

(٥) فازيليف : العرب والروم ص ٥٨ .

(٦) العرينى : الدولة البيزنطية ص ٢٣٣ .

(٧) العدوى : الأساطيل العربية ص ٩٧ — ٩٨ .

على تكوين وحدات بحرية جديدة لهم ، وكان مما ساعدهم على ذلك غابات منطقة إدّا (Eda) بكريت التي أمدتهم بحاجتهم من أخشاب السفن (١) .

لم يغفل الأباطرة البيزنطيين — ابتداء من ميخائيل الثانى (٨٢٠ — ٨٢٩م) — عن الخطر الذى أحاط بهم ، نتيجة وقوع جزيرة كريت فى يد المسلمين (٢) . ذلك أن ضياع هذه الجزيرة الغنية الهامة من يد البيزنطيين لم يكن بالأمر الهين عليهم . ولذلك بذل الأمبراطور ميخائيل الثانى ، ومن ولى بعده ، جهودهم لإعادتها إلى حوزتهم ، فأنفذ إليها عدة حملات بحرية ، لكنها لم تسفر عن شيء (٣) . بل أن المسلمين دعموا أنفسهم فى كريت فغزوا جزيرة إيجين (Aegin) — الواقعة فى بحر إيجه — ودخلوها وأدبوا كما أسروا منهم الكثير (٤) .

ثم أرسلت الإمبراطورة زوى "Zoe" — والدة قسطنطين السابع والوصية على ميخائيل الثانى — حملة بحرية بقيادة فوتينوس "Phôteinos" (٥) لإخضاع جزيرة كريت للسيطرة البيزنطية . غير أن هذه الحملة فشلت فى تحقيق أغراضها ، كما حلت الهزيمة بحملة أخرى أرسلها البيزنطيون لاسترداد كريت (٦) . وقد كشفت هذه الحملات البيزنطية الفاشلة عن مدى

---

(١) Gibbon, Hist. of Decline & Fall of Rom. Emp. Vol., 2 p. 820.

(٢) العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ص ٨٩ .

(٣) فازيليف : العرب والروم ص ٥٨ .

(٤) فازيليف : المرجع السابق ص ٥٨ .

(٥) ورد اسم فوتينوس على أشكال متعددة مثل فطونه (Fatuna) وقطونة (Qatuna) وفوتينوس وهو أشهرها . انظر اليعقوبى : تاريخه ج ٢ ص ٥٩٧ ، Aly. F. : Muslim Sea-power p. 133 n. 1 & 2

(٦) فازيليف : نفس المرجع ص ٦ وكان قائد هذه الحملة يسمى كراتيروس

ثبات أقدام المسلمين بجزيرة كريت وضعف البحرية البيزنطية فى نفس الوقت (١) .

وبهذا النصر ، ضمن المسلمون بقاء جزيرة كريت فى يدهم حتى سنة ٣٥٠هـ، قاعدة لأسطولهم فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، مما حمل الروم على بذل المزيد من جهدهم لاسترداد هذه الجزيرة . فعملوا على تجهيز عمارة بحرية ضخمة ، لإخضاع المسلمين بها ، الذين أصبحوا مصدر قلق شديد على كيان دولتهم فى البحر المتوسط (٢) . غير أن تدابير أهل كريت المحكمة ، عوقت هذه الحملة وحالت دون إبحارها من الموانى البيزنطية (٣) . وكان مما ساعد على ذلك الفشل ، تشتت جهود الأمبراطور البيزنطى، الذى شغل بحماية جزر بحر الأرخبيل ، التى تعرضت لغارات قوات كريت البحرية (٤) .

ومن ناحية أخرى لم يقم البيزنطيون بعد سنة ٢٢٨هـ (٨٤٣م) بأية عمليات بحرية جديدة ضد المسلمين فى شرق البحر المتوسط عامة ، وكريت بصفة خاصة ، إلى أن جاء عام ٢٣٨هـ (٨٥٢م) ، فقاموا بهجوم مفاجىء على مدينة دمياط لقطع الإمدادات المرسلة من مصر إلى مسلمى كريت (٥) . لأن مسلمى كريت كانوا على اتصال بمصر — التى تشرف حكومتها على الجزيرة إداريا باسم الدولة العباسية — وقد نهبت الحملة البيزنطية مدينة دمياط واستولت على العتاد والذخائر التى كانت معدة لإرسالها إلى كريت (٦) .

(١) Finlay, : Hist, of Greece Vol. 136.

(٢) ابن الداية : المكافأة ص ١١٢ — ١١٣ ، Ostrogorskey : Hist. of Byzantine State p. 252.

(٣) زينب راشد : كريت تحت الحكم المصرى ص ٢٢ .

(٤) العرينى : الدولة البيزنطية ص ٢٣٤ وابن الداية : المكافأة ص ١١٢ — ١١٣ .

(٥) Aly F, : Muslim sea power p. 136

(٦) أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية ص ٢٢٣ .

ويبدو أن الإغارات البيزنطية على هذه المدينة ودلتا النيل فى مصر — فيما بين سنتى ٢٣٨ ، ٢٤٥هـ كان لها — بلا شك — بعض الأثر فى الإقلال من نشاط وحدات كريت البحرية ضد الروم فى بحر إيجة وشرق البحر المتوسط عامة (١) . فظلت الأراضى البيزنطية ، فى شرق البحر المتوسط ، فى مأمن من غارات قوات كريت البحرية حتى عام ٢٤٨هـ (٨٦٢م) ، حيث بدأ المسلمون فى كريت يستأنفون نشاطهم فى بحر إيجة (٢) .

وكان آخر ما قام به الامبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢ — ٨٦٧م/ ٢٢٧ — ٢٥٣هـ) ، حشد حملة كبيرة أعدها قائده بارداس ، للهجوم على كريت سنة ٢٥٢هـ (٨٦٦م) (٣) على أن تبدأ الحملة هجومها فى فصل الربيع من هذه السنة . لكن الحظ قلب ظهر المجن للبيزنطيين ، ففشلت حملتهم ، كما فشلت ما سبقها من حملات ، ولم يقدر لهذه الحملة أن تقلع من موانيها بسبب اغتيال « بارداس » على يد باسيل الأول (٤) .

صارت القوات البحرية الإسلامية ، تهدد الروم وأساطيلهم فى أواخر القرن الثالث الهجرى (أوائل القرن العاشر الميلادى) (٥). فقامت الوحدات

---

(١) Aly F. Muslim Naval organisation P. 129.

(٢) فازيليف : العرب والروم ص ٢٢٦ ، ومن هذه المناطق مدينة متلين (Mitilini, Mytilene) إحدى المدن الهامة الواقعة فى جنوب شرق جزيرة ليسبوس (Lespos) وهى تواجه الطرف الشمالى الغربى لآسيا الصغرى انظر Finlay : Hist of Grece vol, 2 P. 190 n. 2 & Bury : Hist of East. Rom Emp. P. 290 n. 5.

(٣) لم يرد تحديد لتاريخ معين لهذه الحملة عند بيورى .

Gregoir : Etudes Sur 10 9 eme siecle P. 527.

(٤) Cam. Med. Hist. Vol, 4 P. 47–48, 50.

(٥) وهذه الجزر كلها ضمن مجموعة جزر بحر إيجه الكثيرة ومنها ما يقع فى منطقة الدوديكانيز بالبحر الايجى انظر Ibid, Vol, 4 P. 141.

البحرية لمسلمى كريت بغارات تخريبية على شواطىء البلوبونيز ، وسيطروا من جديد على جزر بحر ايجة ثم اشتدت هجماتهم ، فعمل أسطولا كريت وسوريا على تنسيق نشاطهما ضد البيزنطيين فى البحر المتوسط . ففى سنة ٢٨٩هـ (٩٠٢م) هاجم أسطول سوريا (بقيادة أبو الحارث) ، غلام ظرافة ، — (ليو الطرابلسى)[١] — الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى . ثم أعقب ذلك الحملة البحرية سنة ٢٩١هـ (٩٠٤م) على تسالونيك . فاضطر الأمبراطور ليو السادس إلى تدعيم قواته البحرية للدفاع عن أملاك الروم ضد غارات المسلمين ، التى تميزت بطابع التنسيق بين سوريا ومصر وكريت[٢] .

وخلال إحتدام ذلك الصراع السياسى والحربى بين كل من المسلمين والبيزنطيين فى حوض البحر المتوسط ، فقد ذكر البعض أن بطريق القسطنطينية — وقتذاك[٣] — أنفذ رسالة إلى حاكم كريت المسلم ، يطلب إليه فيها المهادنة ، ويذكر له أن من مصلحة المسلمين والروم ، أن تعايشا فى سلام ، برغم اختلاف العادات والديانة والتقاليد بين الطرفين المتحاربين[٤] .

استمر مسلموا كريت — رغم عرض المهادنة الذى قدم لهم من جانب الروم بوساطة بطريق القسطنطينية — فى تدعيم قواتهم البحرية . لأن السلام الذى عرضه هذا البطريق ، كان صادراً عن شعور البيزنطيين بحاجتهم إلى فترة يستعيدون فيها نشاطهم الحربى . وكان قد تجلى تعاون القوات الإسلامية

---

(١) ليو الطرابلسى قائد مسلم من أصل إغريقى . راجع :
Aly F. Muslin sea power P. 137.

(٢) Finlay : Hist. of grece, vol, 2 P. 278.

(٣) وكان اسمه ، نيقولاس ميستيكوس "Nicolas Mysticus" انظر بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٦٤ .

(٤) نورمان بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٦٤ ،
Aly F. : Muslims sea power p. 137.
ونعتقد أن خطاب بطريق القسطنطينية المرسل لحاكم كريت المسلم ، كان بمثابة مناورة او تكتيك اضطر إليه البيزنطيون وقتذاك .

البحرية فى كل من كريت ومصر وسوريا فى الحملة التى هاجمت تسالونيك سنة ٢٩١هـ (٩٠٤م)، والتى حققت نجاحا كبيراً على الروم، وأنزلت بهم كثيراً من الخسائر. مما حمل البيزنطيين على توجيـــه حملة إلى كريت سنة ٢٩٦هـ (٩٠٩م)، كان نصيبها الفشل[1]. وظلت ـ قندية (Candia) عاصمة كريت الإسلامية ـ مصدر خطر على النفوذ البيزنطى فى بحر إيجة[2].

كما ظل قائد الأسطول السورى «أبو الحارث غلام ظرافة» (ليو الطرابلسى) يهدد الوجود البيزنطى فى شرق البحر المتوسط حتى سنة ٣١٠ سنة ٣١١هـ (٩٢٣م)، حيث أسره الأمبراطور البيزنطى رومانوس الثانى (٩٥٩ — ٩٦٣م ٣٤٨ — ٣٥٢هـ)، بعد أن تحطم أسطول ليو الطرابلسى على مقربة من جزيرة لمنوس (لمنى Lemni)[3].

وبهذا النصر الذى أحرزه البيزنطيون، استطاعوا أن يدرؤوا عن أنفسهم خطر هجمات مسلمى كريت، وأسطول الشام مدة تزيد على عشرين عاما. وفى سنة ٩٤٩م (٣٣٧ — ٣٣٨هـ) عاود البيزنطيون محاولتهم للسيطرة على جزيرة كريت، فباءت حملتهم بالفشل، فى غزو «قندية» عاصمة تلك الجزيرة[4].

كان الصراع البيزنطى الإسلامى حول جزيرة كريت، فى غير صالح الروم، طوال عهد الأمبراطور ليو السادس. ففى آخر عهد هذا الأمبراطور أعد قسطنطين السابع حملة كبيرة، فشلت فى هجومها على كريت سنة ٩٤٩م[5] كما ذكرنا. وظلت هذه الجزيرة تحت سيطرة المسلمين

---

(١) زينب راشد: كريت تحت الحكم المصرى ص ٢٢.

(٢) أرشيبالد: القوى البحرية والتجارية ص ٢٢٤.

(٣) أرشيبالد: نفس المرجع ص ٢٢٣ — ٢٢٤.

(٤) زينب راشد: كريت تحت الحكم المصرى ص ٢٢، ٢٣.

(٥) Camb. Med. Hist. vol, 4 P. 144.

حتى زمن الأمبراطور « رومانوس الثانى » بين قسطنطين السابع ، الذى استطاع أن يرسل قائده نقفور فوكاس « Nicephor phocas » ، فأعاد إلى الأمبراطورية جزيرة كريت سنة ٣٥٠هـ (٩٦١م) بعد حصار ضربه عليها لمدة تسعة أشهر متوالية [1] .

وكانت هذه الحملة التى قادها نقفور ، وتيسر لها إعادة كريت إلى الامبراطورية البيزنطية ، عظيمة العدد والعدة [2] . كما أن القسطنطينية احتاطت للأمر ، فبعثت ببعض أساطيلها إلى شرق البحر المتوسط ، لتحول دون وصول أية إمدادات يحتمل أن تصل إلى الجزيرة سواء من سورية أو مصر [3] .

ويقول ياقوت ، [4] أن نقفور قاد الحملة ، وابتدأ حصار الجزيرة من جمادى الآخر سنة ٣٤٩هـ (أغسطس سنة ٩٦٠م) . حتى المحرم سنة ٣٥٠هـ (مارس ٩٦١م) ، وأن حاكم الجزيرة المسلم « عبد العزيز بن شعيب » — وفى رواية أخرى غير مرجحة حبيب بن عمر — أسر وأخذ إلى القسطنطينية حيث ظل بها حتى مات [5] .

على أن البيزنطيين لم ينزلوا كريت — رغم ضخامة حملتهم — بسهولة

---

(١) هذا هو الحصار الذى استنجد فيه مسلموا كريت بالمعز لدين الله الفاطمى وهو بالمغرب ، فبعث إلى الإخشيد بمصر لإنجادهم لقربه منهم ، وهو ما سنعرض له تفصيلا عند حديثنا عن علاقة الفاطميين بجزيرة كريت . انظر أيضاً :
Aly F. Op. Cit. P. 138

(٢) أسد رستم : الروم ج ٢ ص ٣٤ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٣٧٧ .
Ency of Islam vol, 1 P. 879.

(٤) ياقوت : نفس المرجع ج ١ ص ٣٧٧ وما بعدها .

(٥) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢١١ ، شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١٤٤ هامش .

بل لقوا عناءاً كبيراً ومقاومة عنيدة من مسلمى هذه الجزيرة وحا كمها ، الذى أسروه عند استيلائهم عليها ، مما كان سببا فى أن لقب البيزنطيون نقفور فوكاس بلقب « القائد المظفر » .

وفى ربيع الثانى سنة ٣٥٠هـ (٧ مارس ١٩٦١م) سقطت مدينة قندية « الخندق » عاصمة الحكم الإسلامى بجزيرة كريت (١) . واستولى الروم على ما فيها من مال ومتاع ورقيق ونساء صرن سبايا لهم ، وبعثوا بكل هذه الغنائم والأسلاب الى القسطنطينية (٢) . ويقال إن نقفور فوكاس حمل من أموال وسبى اقريطش نحوا من ٣٠٠ (ثلثمائة) مركب وأن جنده هدموا قندية بقلاعها (٣) .

ويرجع ابن حوقل السبب فيما أصاب مسلمى كريت من وهن وضعف ساعد على زوال دولتهم إلى « ما داخل أهلها من الحسد والنكد (الشحناء والصراع الداخلى) ، وما داخل أهل الثغور الجزرية والشامية ، وأهل ذلك البلد من الفسق ، والفساد ، والشح ، والعناد ، والغيلة ، فجعلوا عبرة المعتبرين وموعظة للناظرين» (٤) . ثم يعقب ابن حوقل على ذلك بقوله : « وكان للمسلمين فى بحر الروم (البحر المتوسط) غير جزيرة جليلة وناحية مشهورة ، فاستولى العدو عليها مثل : اقريطش وقبرس ، وكانتا جزيرتين كثيرتى الخير والمير (المؤن) والتجارة ، الوارد منها والصادر عنها ، وكانوا يغزون بلاد النصرانية .

(١) محمد مختار ، التوفيقات الإلهامية ص ١٧٥ ، زينب راشد : كريت تحت الحكم المصرى ص٢٥ .

(٢) سرهنك : حقائق الأخبار جـ ٢ ص ١٢٩ ، زينب راشد : نفس المرجع ص ٢٥ .

Schlumberger : Un Empreur "Nicephor Phocas" P. 37—41

(٣) شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ١١٤ هامش .

(٤) ابن حوقل : صورة الأرض مادة « كريت » .

وجزيرة اقريطش حرة منذ فتحت ، لم يكن للنصرانية فيها مدخل ، ولا مخرج إلا على طريق الجهاد، أو فى حين المدنة والمسالمة ، يدخلونها على شرائط[1] » .

ولم يجد الروم موقعا يحكمون منه اقريطش خيرا من الموقع الذى أقيمت عليه مدينة « الخندق » — قندية — الذى اختاره المسلمون من قبل حين نزلوا أرض الجزيرة . كما رأوا أن السيطرة على الجزيرة تقتضيهم الخلاص من البقية الباقية منهم ، فخربوا دورهم ، وهدموا قلاعهم فى « قندية » واختاروا ربوة إلى جوارها ، أقاموا عليها قلعة أسموها تيمنوس (Temenos) [2] وهكذا زال الحكم الإسلامى من جزيرة كريت .

وصفوة القول ، أنه كان لدخول المسلمين حوض البحر المتوسط ، وسيطرتهم على مياهه ، وتهديدهم شواطئه البيزنطية ، واستيلائهم على بعض جزره ، نتائج بعيدة الأثر على مصائر الدول الأوربية التى تطل على حوض هذا البحر ، منذ أوائل القرن الثامن إلى نهاية القرن الحادى عشر الميلاديين تقريبا [3] .

(ج) فتح جزيرة صقلية :

كانت سيادة المسلمين على حوض البحر المترسط ، الأوسط والغربى ، تامة حتى نهاية القرن الثانى الهجرى (الثامن الميــــلادى) ، فوصلت قوة

---

(١) شكيب أرسلان : المرجع السابق ص ١٩٥ هامش عن ابن حوقل : صورة الأرض (مادة كريت) .

(٢) رينو : تاريخ غزوات العرب ص ١٤٤ حاشية وزينب راشد ، المصدر السابق ص ٢٥ .

(٣) أسد رستم : الروم ج ٢ ص ٣ Runciman: Byzantin Civilisation Aol I. 151.

الأغالبة البحرية فى إفريقية ، والأمويين فى الأندلس ، إلى درجة كبيرة من التفوق ، حتى أن سفن جزيرة سردينية (أو سردانية) كانت لاتأمن عبور البحر إلى إيطاليا ، خوفاً من خطر الأسطولين الأغلبى والأندلسى[١] . ثم بدأت هذه السيادة تصبح محل صراع بينهم وبين شعوب غرب أوربا ، خاصة أيام ببين الكبير « Pepin The great » ، مؤسس البيت الكارولنجى[٢] .

أما عن النشاط البحرى الذى أبداه أهل المغرب ، ابتداء من القرن الثامن الميلادى تجاه جزيرة صقلية[٣] ، فلم يعد أن يكون سرايا هجومية خاطفة ، أصبحت فيما بعد بمثابة محاولات لاختبار أحوال الجزيرة التى سيقدر الأغالبة أن يقوموا بفتحها ابتداء من سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م)[٤] . وكانت الحملات الاسلامية على جزيرة صقلية ، قبل سنة ٢١٢ هـ ، مجرد سرايا

---

(١) سرهنك : حقائق الأخبار جـ ١ ص ٣٩٤ .

(٢) حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط ص ٩٨ — ٩٩ .

(٣) شارك موقع جزيرة صقلية شخصيتها الجغرافية فى تشكيل تاريخها وتحديده . فهذه الجزيرة ابنة البحر المتوسط من سيطر عليها استطاع السيطرة على أمواه هذا البحر ونطاقه. هذا فضلا عن أن ضيق مجاز مسينا بين صقلية وقلورية — جعل تاريخ الجزيرة مقروناً بتاريخ إيطاليا وبالتالى أوربا نفسها . وقد قال عنها ابن حوقل أنها « تغلب عليها القلاع والحصون والجبال » .

لذلك فتاريخ صقلية ما هو إلا جزء من تاريخ اليونان والفينيقيين والرومان والقوط والبيزنطيين والعرب . انظر :

احسان عباس : العرب فى صقليـــة ص ٢٤ — ٢٥ ابن حوقل : المسالك والممالك (بالمكتبة الصقلية ص ٤) وحسن حسنى : قصة جزيرة قوصرة (مقال) ص ٥٥ .

(٤) حسن إبراهيم : تاريخ الاسلام السياسى : جـ ٢ ص ١٨٩ — ١٩٠ .

لاتؤدى إلى استقرار بالجزيرة، بقدر ما كان هدفها الإغارة، ثم العودة إلى قواعدها بعد تحقيق هدفها المحدود[1].

ففى منتصف عام ١٨٤ هـ (٨٠٠م) وجه الخليفة العباسى «هارون الرشيد» إلى ولاية أفريقية، ابراهيم بن الأغلب — رأس الأسرة الأغلبية[2] — الذى اهتم بتدعيم السلطة الإسلامية فى هذه الولاية، كما عنى بإنشاء الأساطيل لمد النفوذ الأغلبى عبر البحر المتوسط.

ومن ناحية أخرى، فقد بات واضحاً أن القسطنطينية، لم يعد لها القدرة أو القوة الكافية، لصد غارات المسلمين على جزيرة صقلية، أو استعادة جزيرة كريت وقتذاك، أو حماية جزر بحر إيجه والسواحل التى تعرضت لغارات المسلمين البحرية بصفة مستمرة[3]، سواء من جزيرة كريت بعد فتحها — أو من القوات الاسلامية فى الشام ومصر.

---

(١) نرى أنه من المفيد هنا ذكر السنوات التى هوجمت فيها صقلية بحملات أو بمعنى أصح سرايا إسلامية منذ بداية النشاط البحرى الإسلامى فى البحر المتوسط وهذه السنوات هى: ٣٢ و ٣٣ هـ (٦٥٢م): ١٠٢ هـ (٧٢٠م)، ١٠٩ هـ (٧٢٧م)، ١١٢ هـ (٧٣٠م)، ١١٤ هـ (٧٣٢م)، ١٢٢ هـ (٧٤٠م) و١٣٠ هـ و ١٣٥ هـ (٧٥٢م) ١٣٦ هـ (٧٥٣م)، ١٧٨ هـ (٧٩٤م)، ١٩٨هـ (٨١٦م). وهذه السرايا فضلا عن أنها حققت هدفها المحدود من الإغارة السريعة والحصول على الغنائم ثم العودة، إلا أنها أفادت الأغالبة حين بدأوا يفكرون ويعدون لفتح الجزيرة، إذ كانت بالنسبة لهم تجارب سابقة لاتخلو من فائدة تعينهم فى وضع خطط فتح جزيرة صقلية. كما أن هذا العدد الكبير من الحملات لم تتعرض له جزيرة سوى صقلية. ولعل هذا أبلغ دليل على إدراك المسلمين لأهمية هذه الجزيرة فى البحر المتوسط. راجع ابن عذارى: البيان جـ ١ ص ٧٣ والمكتبة الصقلية ص ٢٠٠ - ٢٠٥، ٢٠٩ - ٢١١، ٢٢٠، ٢٨١، ٤٢٥ - ٤٢٦.

(٢) سرهنك: حقائق الأخبار جـ ١ ص ٢٩٣

(٣) العرينى: الدولة البيزنطية ٢٢٤.

وكانت جزيرة صقلية ضمن المناطق التى شملتها الهدنة التى عقدت بين الأمير ابراهيم بن الأغلب ، وبين حاكم (أو بطريق) الجزيرة سنة ١٨٩ هـ (٨٠٤ — ٨٠٥م) . ولكن على الرغم من أن الهدنة جددت لعشر سنوات أخرى تبدأ من عام ١٩٧ — ١٩٨ هـ (٨١٣ م) ، إلا أن أثرها كان فيما يبدو معدوما . لأنها لم تمنع مسلمى شمال أفريقيا وبحريتهم من القيام بغارات متعددة على جزيرتى كورسيكا وسردينيا فيما بين سنتى ١٩٥ ، ١٩٨هـ . ورغم أن خسارة المسلمين فى هذه الاغارات كانت كبيرة ، إلا أنها حفزتهم إلى مواجهة صقيلة سنة ٢٠٥ — ٢٠٦ هـ (٨٢٠ م)[1] .

وكانت الظروف التى تحيط بالأغالبة تحتم عليهم إعداد جيش قوى وأن يهتموا ببناء المراكب الحربية وإعداد القوات البحرية ، حتى يمكن تنفيذ مخططهم الذى كان يرمى إلى فرض سيادتهم على الحوض الأوسط للبحر المتوسط ، وكان يدفعهم إلى ذلك العمل اعتقادهم أنه جهاد فى سبيل الله[2] . هذا فضلا عن ضمان وسيلة حماية لوجودهم ولمصالحهم فى حوض البحر المتوسط . فعملوا على إعادة بناء أسطولهم بشمالى أفريقيا ، وأقاموا دوراً لصناعة السفن فى مدينتى ترشيش (تونس حالياً) ، وسوسه ، ودعموها بمهرة الصناع[3] ! وبهذا أصبح لديهم أسطول قوى ، يستطيع مواصلة الفتوحات الاسلامية فى الحوضين الأوسط والغربى للبحر المتوسط وكان فتح صقلية من أهم هذه الفتوحات .

---

(١) أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية ص ١٦٥ والعرينى : الدولة البيزنطية ص ٢٢٥ .

(٢) سرهنك : حقائق الأخبار جـ ١ ص ٣١٩ ، ٣٩٤ ، عبد الجليل عبد الرضا الراشد : العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس ص ١٤٤ — ١٤٥ .

(٣) حسن أحمد محمود : تاريخ المغرب الإسلامى ص ٣٩ .

لم يكن طريق صقلية ميسوراً ، بل اكتنفه الكثير من الصعاب والعقبات، خاصة وأن الغزوات والسرايا التى اتجهت إلى الجزيرة من قبل — ابتداء من سنة ٣٣ هـ (٦٥٣ م) ، حتى حملة ١٩٨ هـ (٨١٣ — ٨١٤ هـ) — نبهت الروم إلى المناطق التى يرمى المسلمون إلى السيطرة عليها فى البحر المتوسط . فأعدوا للأمر عدته وحصنوا جزيرة صقلية ، فجعلوا منها قاعدة أمامية لأسطولهم ، الذى ترابط وحداته فيها لحماية الامبراطورية البيزانطية . وصارت سفنهم تخرج كل عام لتطوف بالجزيرة(١) ، فضلا عن مراقبتهم تحركات أسطول الأغالبة، وأساطيل سورية ومصر فى شرق البحر المتوسط وأسطول الأمويين بالأندلس .

كانت سياسة بيزنطة فى صقلية من العوامل التى أدت إلى قيام ثورة يوفيميوس(Euphimius)(٢) - قائد الأسطول البيزنطى فى هذه الجزيرة - ، فوقع الخلاف بينه وبين واليها البيزنطى قسطنطين بن بطريق ، فى عهد الامبراطور ميخائيل الثانى، فحرض يوفيميوس الأغالبة على دخول الجزيرة وفتحها ، ووعدهم بالمساعدة نكاية فى واليها البيزنطى ، على أن يكون بعد فتح الجزيرة تابعاً للأغالبة فى أفريقية(٣) وهكذا كانت هذه الظروف فرصة مواتية ليبدأ الأغالبة تنفيذ خطة فتح صقلية، متذرعين باستنجاد يوفيميوس بهم(٤) .

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ١٨٩ ، زينى دحلان : الفتوحات الإسلامية جـ ١ ص ٢٠٨ .

(٢) العرينى : الدولة البيزنطية ص ٢٣٦ .

(٣) حسن محمود : تاريخ المغرب الإسلامى ص ٣٨

Ency of Islam Vol, 4 p. 399

وهناك رواية مؤداها أن يفيميوس وعد بدفع جزية كبيرة للأغالبة، إذا ما اعترفوا به امبراطوراً بيزنطياً ، وأنه تعهد لهم باستمرار مسالمته لهم : أنظر ابن الأثير جـ ٦ ص ٢٣٦ :

(٤) ابن الأثير : الكامل (المكتبة الصقلية ص ٢٢١ — ٢٢٢) : وحسن ابراهيم . الإسلام السياسى ، جـ ٢ ص ١٩١ .

وقد ذكر بن الأثير ان الأغالبة أرسلوا - بناء على طلب بوفيميوس - حملتهم الأولى بقيادة أسد بن الفرات[1] ، وحقيقة الأمر أن الأغالبة كان قد استقر رأيهم على غزو جزيرة صقلية ، لأهميتها بالنسبة لسواحل شمالى أفريقيا . ولم تكن أحوال الجزيرة قبيل الفتح الاسلامى تختلف عن أحوال الأندلس كثيراً إبان فتحها . وفى نفس الوقت كان الأغالبة قد استقر حكمهم وأصبحوا قادرين على فتح جزيرة صقلية[2] .

لم يكن من السهل على زيادة الله الأول ، أمير الأغالبة ، أن ينفرد بالبت فى هذا الأمر ولذلك جمع وجوه أهل القيروان وفقهاءها ، وكان فيهم أسد ابن الفرات[3] ، وسحنون بن سعيد بن قادم الفقيه[4] ، ولما بحث المجتمعون موضوع فتح صقلية ، انقسموا إلى فريقين : فريق لا يؤيد الغزو ولا يوصى

---

(١) ابن الأثير : المرجع السابق ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٢) العدوى : الامبراطورية البيزنطية ص ٩٠ ، أرشيبالد : ص ١٧٠ .

(٣) نعتقد أنه من المهم أن نترجم لهذه الشخصية الهامة، نظراً لدورها البارز فى فتح صقلية . فاسمه هو : أسد بن الفرات بن سنان ، من بنى سليم ، من أهل نيسابور . ولد بحران ، ويكنى بأبى عبد الله ، وكان مولده سنة ١٤٢ هـ ، ثم قدم مع والده إلى أفريقية بصحبة محمد بن الأشعث الخزاعى الذى قدم إلى أفريقيا بعسكره . وكان أسد قاضياً عند توليته حملة فتح صقلية سنة ٢١٢ هـ . ومات سنة ٢١٣ هـ ، وهو على حصار سرقوسة بالجزيرة نفسها . وكان عالما فقيها . أنظر ابن الآبار . الحلة السيراء جـ ٢ ص ٢٨٠ — ٢٨١ ، وبالمكتبة الصقلية ص ١٨٠ — ١٨١ .

(٤) سحنون بن سعيد بن قادم ، مات سنة ٢٥٦ هـ ، وكان مستبسلا فى قتاله ضد الروم . بجزيرة صقلية ، رغم أنه كان على رأس المعارضين للغزو ، لما اعتقد أنه سيجر على المسلمين من تضحيات ونكبات . انظر : أمارى : المكتبة الصقلية ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

به ، وفريق متحمس للغزو ويعده ضرباً من ضروب الجهاد فى سبيل الله . وقد انتهى الأمر إلى تغليب كفة الفريق الثانى .

أصبح غزو صقلية وفتحها هو شغل الأغالبة الشاغل منذ ذلك الوقت ، رغبة فى ضمها إلى حوزتهم . فرأى أسد بن الفرات ـ قاضى القيروان ـ التحلل من الهدنة السابق عقدها سنة ١٨٩ هـ[1]، وجددت سنة ١٩٨ هـ لعشر سنوات حين أقر رسل الروم الوافدون من طرف ايفيميوس بوجود أسرى من المسلمين لديهم فى جزيرة صقلية ، وعهد إليه أمير الاغالبة أبو محمد زيادة الله الأول ـ فى ذى الحجة (٢٠١ هـ ـ ١٤ رجب ٢٢٣ هـ) بقيادة الحملة التى أعدها لفتح الجزيرة[2] .

ومما يدل على أن فتح جزيرة صقلية كان متسماً بطابع الجهاد فى سبيل الله ، أن تخطيط الفتح ، والتفكير فيه ، كان بفضل أسد بن الفرات ـ قاضى قضاة أفريقية ـ الذى قاد بنفسه أولى حملات الفتح سنة ٢١٢ هـ[3] .

---

(١) كان أهم بنود هذه الهدنة يتعلق بتبادل كل الاسرى (المسلمين والروم) بين الجانبين ، وعدم شن أحد الطرفين الحرب على الطرف الآخر ، طوال مدة الهدنة ، إلا إذا ظهر من الطرف الثانى ما يبرر هذا النقض . وهذا هو ما استغله أسد بن الفرات حين صرح رسل ايفيميوس بأن هناك عدداً من الأسرى المسلمين لدى الروم بجزيرة صقلية ، مما جعل الأغالبة فى حل من هدنتهم مع الروم : أنظر ابن الأثير الكامل حوادث سنة ١٨٩ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٢) ابن الداوادارى : الدرة المضيئة فى أخبار الدولة الفاطمية ص ٢٩ ، أمارى : المكتبة الصقلية ص ١٨٢ — ١٨٣ ، زامباور : معجم الانساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى جـ ١ ص ١٠٦ .

Bury : Hist of East Rom. Emp. P. 298 n. 1

(٣) سرهنك : حقائق الأخبار جـ ١ ص ٢٩٤ . وهو يقول أن حملة أسد ابن الفرات كانت سنة ٢٢٨ هـ . وهذا خطأ ، لأن أسد لم يعش حتى سنة ٢٢٨ هـ ، بل مات سنة ٢١٣ وهو محاصر لسرقوسة . أنظر حسن محمود : تاريخ المغرب الإسلامى ص ٢٩ ، Camb. Med. Hist Vol 2 p. 382

أبحر أسطول الأغالبة من قاعدته فى سوسة ، فى ربيع الأول ٢١٢ هـ (٤ يونية ٨٢٧ م) ، وكان مكوناً من مائة مركب تحمل ما بين سبعمائة وألف فارس ، عدا عشرة آلاف راجل ، من الجند العرب والبربر ومن الفرس الخراسانية والأندلسيين(١) .

لما وصلت حملة الأغالبة بقيادة أسد بن الفرات، إلى صقلية ، اشتبكت قوات المسلمين مع قوات حاكم الجزيرة البيزنطى فى قتال ، وحلت الهزيمة بالروح فى أول صدام لهم مع المسلمين على أرض الجزيرة ، وغنم أسد وجنده مغانم كثيرة ، غير أنه حين شرع فى حصار سرقوسة سنة ٢١٣ هـ وضيق عليها الخناق ، مستعيناً بإمداد من الأندلس(٢) وصل أسطول من القسطنطينية لنجدتها ، بينما كان الوباء قد تفشى فى المسلمين وهلك من جرائه كثيرون كان من بينهم أسد بن الفرات نفسه(٣) .

---

(١) ابن الداوادارى : نفس المصدر ص ٣٩ ، النويرى : نهاية الأرب (المكتبة الصقلية ص ٤٢٧ — ٤٢٩) وابن خلدون العبر (المكتبة الصقلية ص ٤٦٦ — ٤٦٧) ، Ency of Islam (Art Sicily)

وهكذا تتكرر أحداث التاريخ فاذا بصقلية تغزى وتفتح ثانياً من أفريقيا كما غزيت من قبل على يد الفينيقيين . ويدخل جيش أسد بن الفرات الجزيرة من حيث دخلها الفينيقيون من قبل . وهاهى جموع المسلمين تقاتل كما قاتلت من قبل وتحمل دينا تنشد بسط سيادته وألويته على الجزيرة أنظر ابن الأثير الكامل جـ ٦ ص ١٣٧ . رحلة التيجانى بالمكتبة الصقلية ص ٣٧٧ ، إحسان عباس : العرب فى صقلية ص ٣٣ ٢٤ : Freemam : Hist of Sicily vol, 1

(٢) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ١٣٢ ، بالمكتبة الصقلية ص ٢٦٥ . وكان أسطول الأندلس بقيادة ، أصبغ ، المعروف بفرغاوسن أنظر شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٩٧ ، Ency. of Islam Vol, 4. p 399.

(٣) يقول ابن خلدون أن أسد بن الفرات دفن فى بلرم . ثم يقول بعد ذلك بقليل أن بلرم فتحت سنة ٢١٧ هـ . والحقيقة أن أسد بن الفرات مات سنة ٢١٣ هـ ، وهو يحاصر سرقوسة قبل أن تفتح بلرم . أنظر ابن الداوادارى : الدرة المضيئة ص ١٩ ، أمارى المكتبة الصقلية ص ٢٨٤ ، ٤٦٧ .

ولما رأى المسلمون ماحل بهم من وباء نزلوا فى مراكبهم ، فمنعهم الروم من الخروج ، وعندئذ أحرق المسلمين مراكبهم ، وقصدوا مدينة ميناو(١) ، فحاصروها ثلاثة أيام وتسلموا الحصن(٢) .

وعلى الرغم مما لحق المسلمين من خسائر ، ووفاة قائدهم (أسد بن الفرات) فإنهم واصلوا القتال، وولوا عليهم «محمد بن أبى الجوارى»(٣) - أو الحوارى - واستطاعوا بتماسكهم أن يستولوا على بعض الحصون منها حصن «مازرة» (Mazara) وميناو أو ميليو (Mineo) وجرجنت(٤) .

لم توجه الدولة البيزنطية جهوداً كبيرة للدفاع عن صقلية ، إلا بمقدار ماسمحت به مشاكلها الداخلية . ولذلك اعتبرت أحداث الفتح الإسلامى بجزيرة صقلية ، فى المرتبة الثانية بالنسبة لاراضيها فى الشرق ، التى كانت عرضة لتهديد العباسيين(٥) . ولكن ليس معنى هذا أنهم أهملوا مسئولية الدفاع عن صقلية ، وإنما كان وضع دولتهم وقتذاك يحتم عليهم تركيز جهودهم لدرء الاخطار التى يتعرضون لها من ناحية حدود آسيا الصغرى الجنوبية(٦) .

---

(١) مدينة ميناو أو ميليو (Mineo) بجزيرة صقلية وهى فى داخل الجزيرة بعيدة عن سواحلها مما يجعلها فى مأمن إلى حد ما ، من غارات أساطيل الروم . لذلك تحصن بها المسلمون فى أول الأمر عند بداية فتح صقلية انظر :
Ency. Britt. (World Atlas p. 28)

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ١٣٨ ، Bury : Hist of East Rom. P. 300.

(٣) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ١٣٤ ، بالمكتبة الصقلية ص ٢٢٣ .

(٤) جرجنت أو كركنت أو قرقند مدينة بجزيرة صقلية وتقع على ساحلها الغربى وتسمى ايضاً أجرجنت أو أجرجنتو (Agregento)
Ency. Britt., Warld atlas P. 23

(٥) زينى دحلان : الفتوحات الاسلامية جـ ١ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ وحسن إبراهيم : الاسلام السياسى جـ ٢ ص ١٩١ .

(٦) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ١ ص ١٣٤ — ١٣٥ .

تجلى اشتباك قوات الروم البحرية مع قوات المسلمين فى حصار سرقوسة فأسهم الأسطول البيزنطى فى الدفاع عن هذه المدينة ، وألحق بالمسلمين كثيراً من الخسائر ، كما تفشى فيهم الوباء ، واضطروا إلى الانسحاب منها ، وعوضوا خسارتهم أمام سرقوسة بفتحهم مدينة بلرم سنة ٢١٦ هـ[١] ، بعد وصول الإمداد من أفريقية[٢] .

كان فتح مدينة بلرم خطوة كبيرة ، مهدت السبيل لفتح سائر مدن الجزيرة فيما بعد ، فليس هناك مايعوق اتصالها بافريقية ، وبذلك أصبح فى استطاعة الفاتحين أن يحصلوا على مؤنهم وعتادهم باستمرار وفى يسر وأمان . ثم أن المنطقة المحيطة ببلرم خصبة ، يمكنها سد حاجة المسلمين من المؤن والميرة ، ومن ثم اتخذ المسلمون من بلرم قاعدة لهم ، وبنوا بها داراً لصناعة السفن . كما أخذت السرايا تخرج منها كل يوم فتغير على أنحاء جزيرة صقلية ، ثم ترجع محملة بالغنائم والأسرى[٣] .

---

(١) بلرم أو بلرمو أو بالرمو (Banarmus, Palermō, Palerm) مدينة هامة ، وهى قصبة ولاية بجزيرة صقلية . تقع فى الجانب الشرقى ، من الجزيرة ، وبها ميناء واسع وحصون وقلعة لحمايتها ، وهى كثيرة الكنائس . كانت عاصمة لصقليه مدة حكم المسلمين الجزيرة بعد فتحها سنة ٢١٦ — ٢١٧ هـ . قال عنها ابن حوقل فى كتابه « نزهة المشتاق باختراق الآفاق » الذى ألفه للملك روجرز النورماندى : « بلرم مدينة كبيرة ، سورها شاهق منيع ، وجامعها كان بيعه . . . وفيها هيكل عظيم ، وفى بلرم ، والخالصة أجل قلاع الجزيرة والحارات المحيطة بها ومن ورائها ٣٠٠ مسجد »أنظر ابن خلدون:العبر (المكتبة الصقلية ص٤٦٧ — ٤٦٨) ، أمارى : المكتبة الصقلية ص ٢٨ ، سرهنك : حقائق الأخبار جـ ١ ص ٢٩٦ — ٢٩٧ . Ency. of Islam vol, 4, p. 399

(٢) حسن محمود : تاريخ المغرب الإسلامى ص ٣٩ — ٤٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٦ ص ٢٠٢ (ط . مصر) ، فيليب حتى : تاريخ العرب جـ ٢ ص٦١٠، سرهنك : حقائق الأخبار جـ ١ ص٢٩٩ والعربنى:=

وعلى الرغم من المقاومة المنيفة التى واجهها المسلمون فى فتح مدن وحصون جزيرة صقلية ، فإنهم تابعوا حملاتهم عليها . ففى سنة ٢١٧ هـ — أى السنة التالية لسقوط بلرم — سار « أبو فهر محمد بن عبد الله التميمى » من أفريقية إلى صقلية غازيا ، بعد أن هزم مطيع السهمى بن الصمصامة[1] . ثم قصد المسلمون قصريانه[2] لكنهم لم يتمكنوا من فتحها ، وأخذوا يرسلون الحملة إليها تلو الحملة ، ولم يزالوا يواصلون نشاطهم حتى توفى « زيادة الله الأول » ابن الأغلب سنة ٢٢٣هـ (٨٣٨م) [3] .

غير أن المسلمين بصقلية على الرغم من توالى إرسال الإمدادات إليهم من أفريقية ، إلا أنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على الجزيرة كلها انذاك واستمرت حملات الأغالبة البحرية ، تغزو مدن هذه الجزيرة وحصونها حتى تم للفضل ابن جعفر الهمدانى سنة ٢٢٨هـ $\frac{٨٤٢}{٨٤٣م}$ — فى عهد إمارة أبى العباس محمد ابن الأغلب[4] — الاستيلاء على مسينا (Messina) ، وهى مدينة حصينة بشمالى شرق صقلية .

وبدخول القوات البحرية للأغالبة ، إلى مسينا ، أصبح جنوب إيطاليا مهدداً من ناحيتهم ، ولعل هذا حمل نابلى على التحالف مع الأغالبة فى

= الدولة البيزنطية ص٢٢٨ — ٢٢٩ ، حسن محمود : تاريخ الغرب الاسلامى ص ٤٠ ، وإحسان عباس : العرب فى صقلية ص ٣٥ .

(١) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ١٢٥ (ط . بيروت) .

(٢) آمارى : المكتبة العربية الصقلية ص ٢٢٥ .

(٣) ابن عذارى : نفس المصدر ج ١ ص ١٢٧ — ١٣٨ وسرهنك : المصدر نفسه ج ١ ص ٣٩٥ .

(٤) سرهنك : حقائق الأخبار ج ١ ص ٢٩٥ ، شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ص ٢٩٧ .

ذلك الوقت[١] . ومع ذلك استمرت الفتوحات فى صقليـــة فيما بين سنتى ٢٣٢ ، ٢٤٠ هـ أيام الأمير محمد الأول الأغلبى ، ففتحت مدينة قطانية وبثيره وغيرهما فى الجانب الشرقى لصقلية[٢] .

ثم تمردت مسينا فى عهد محمد الأول (٢٢٦ — ٢٤٢ هـ) بعد فتحها ، واستنجدت سنة ٢٣٢ هـ ، بالامبراطور ليزنطى الذى وعد أهلها بالمساعدة ، فلما علم المسلمون بذلك شددوا الحصار بقيادة «الفضل بن جعفر» حتى خضعت مسينا مرة ثانية للحكم الإسلامى[٣] . وفى نفس السنة (٢٣٢ هـ) حاصروا مدينة لنتينى التى تقع بين قطانية وسرقوسة ، فى الجانب الشرقى للجزيرة ، وأنتهى الأمر بخضوعها للحكم الإسلامى[٤] . واستسلم أهل لنتينى مثلما خضع أهل مسينا من قبل ، كما سلمت مدينة رغوس (راغوس Ragos) سنة ٢٣٤ هـ . للمسلمين[٥] . ولم تلبث قصريانه أن تعرضت فى العام التالى (٢٣٥ هـ) لحملة بحرية إسلامية لم يكن غرضها سوى الإغارة ، والسلب واختبار قدرة المدينة على الصمود والدفاع[٦] .

ولما توفى الأمير «محمد الأول الأغلبى» سنة ٢٤٢ هـ ، خلفه «أبو ابراهيم أحمد بن محمد الأغلب[٧] ، (٢٤٢ — ٢٤٩ هـ) وفى عهده استمرت

---

(١) زينى دحلان : الفتوحات الاسلامية جـ ١ ص ٢٠٥ ، سرهنك : حقائق الاخبار جـ ١ ص ٣٩٥ — ٣٩٦ ، العدوى : الأساطيل العربية ص ٧٩ — ٨٠ .

(٢) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ١٤٥ — ١٤٦ (ط . بيروت)

(٣) ابن الأثير : الكامل (بالمكتبة الصقلية ص ٢٢٠ — ٢٣١) ، وزينى دحلان : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(٤) فازيليف : العرب والروم ص ١٨١ — ١٨٢ .

(٥) ابن الأثير : الكامل / بالمكتبة الصقلية ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

(٦) ابن الأثير : المصدر نفسه ص ٢٣١ .

(٧) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ١٤٠ (ط . بيروت) .

حركة الفتح الإسلامى لمدن صقلية وحصونها ، فتابع قواده البحريون وعماله على الجزيرة العمل على إخضاع باقى نواحيها .

لقى الفتح الإسلامى لجزيرة صقلية مقاومة شديدة من القوات البحرية والبرية ، التى كان يقودها حاكم الجزيرة البيزنطى ، فضلا عن الأسطول البيزنطى الذى كان يرسو أمام الجزيرة [١] . وكانت أعنف مقاومة لقيها المسلمون فى فتح صقلية ، فى حملاتهم على مدن قصريانه وسرقوسة [٢] .

ظل المسلمون يواصلون العمل على إتمام فتح جزيرة صقلية ، حتى تيسر لهم الاستيلاء على قصريانة سنة ٢٤٤هـ [٣] . وكان لسقوط هذه المدينة فى يد المسلمين أثر سىء فى نفوس البيزنطيين ، فأرسلوا أسطولا من ثلثمائة مركب ، مشحونة بالعسكر ، ومقاتلة البحر ، إلى سرقوسة ليهاجموا المسلمين منها ، وليثأروا لما حل بهم فى قصريانة [٤] . لكن المسلمين كانوا يراقبون كل التحركات البيزنطية ، ففاجأوا الأسطول البيزنطى القادم لمحاربتهم ، ولم يتركوا له فرصة للدفاع وأوقعوا به الهزيمة وغنموا منه نحو مائة مركب حربى [٥] .

كان القسم الشرقى من جزيرة صقلية لا يزال ممتنعا ، ومعمنا فى المقاومة

---

(١) حسن محمود : تاريخ المغرب الاسلامى ص ٤٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٧ حوادث سنة ٢٢٨ هـ ، العدوى : الأساطيل العربية ص ٧٩ — ٨٠ .

(٣) القيروانى (ابن أبى دينار) : المؤنس فى تاريخ أفريقية وتونس ص ٤٨ — ٤٩ ، زينى دحلان : الفتوحات الاسلامية جـ ١ ص ٢١١ — ٢١٢ وابن الأثير : الكامل جـ ٧ ص ٢٠ .

(٤) سرهنك : حقائق الأخبار جـ ١ ص ٣١٦ ، فازيليف : العرب والروم ص ٢١٨ .

(٥) العدوى الأساطيل العربية ص ٨٠ ،
Bury : Hist. of East. Rom. Emp. 307 – 308.

وذلك بتحريض ومساعدة الأمبراطور البيزنطى ، كما أن نفوذ المسلمين لم يكن قد توطد بعد فى الجزيرة (١) . بل أن كثيراً من القلاع التى استسلمت للمسلمين انتقضت عليهم ثانية سنة ٢٤٦هـ (٢) . ولذلك لم يجد العباس بن الفضل ابن يعقوب — والى صقلية آنذاك — بداً من تحصين مدينة قصريانة ، ليلجأ المسلمون اليها (٣) كما حاول مهاجمة سرقوسة ، لكن منيته عاجلته سنة ٢٤٧هـ (٤) .

سار عبد الله بن العباس بن الفضل بن يعقوب (٢٤٧ — ٢٤٨هـ) خلال هذه الفترة القصيرة التى تولى فيها ولاية صقلية للأغالبة ، ومن بعده خفاجة ابن سفيان على نفس نهج العباس بن الفضل فى بث السرايا . فى سنة ٢٥١هـ كانت غزوة السرية المعروفة « بسرية ألف فارس » ، وذلك أن خفاجة ابن سفيان — والى صقلية فى إمارة « أبى الغرانيق » محمد بن أحمد بن محمد الأغلب — غزا قصريانة ، « فأفسد زرعها ، وسار إلى سرقوسة ، فقاتل أهلها ، ثم رحل عنهم ، وأنفذ ابنه محمدا إليهم بسرية ، فكمن لهم ، وقتل منهم حول ألف فارس ، ومن ثم سميت تلك السرية « سرية ألف فارس » (٥) . وفى العام التالى (سنة ٢٥٢هـ) غزا خفاجة بنفسه ، أرض الروم بصقلية . وافتتح بها حصونا كثيرة ، ثم لقى حملة بيزنطية فأوقع بها الهزيمة ، وغنم المسلمون

---

(١) سرهنك : المصدر السابق ج ١ ص ٢٩٧ .

Ency. of Islam vol, 4, P. 399.

(٢) ابن الأثير : الكامل / بالمكتبة الصقلية ص ٢٢٣ فازيليف ، العرب والروم ص ٣١٨ .

(٣) إحسان عباس : العرب فى صقلية ص ٣٦ ، حسن محمود : تاريخ المغرب الإسلامى ص ٤٠ .

(٤) سرهنك : المصدر السابق ج ١ ص ٢٩٧ ، ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٢١ ، وزينى دحلان : الفتوحات الاسلامية ج ١ ص ٢١٢ .

(٥) ابن عذارى البيان ج ١ ص ١٥٠ — ١٥١ ، ١٨٣ (ط . بيروت) .

كثيرا من أسلحة البيزنطيين وخيولهم ، وتمكن خفاجة من دخول مدينة سرقوسة ، وغنم منها مغانم كثيرة لكنه ما لبث أن عاد إلى بلرم قاعدته التى خرج منها منذ أول رجب سنة ٢٥٢هـ [١] .

ولقد ظلت مدينة سرقوسة[٢] تقاوم نحو نصف قرن (من ٢١٣ حتى ٢٦٤هـ) - وكان أسد بن الفرات يظن أنه يستطيع فتحها فى حملته على صقلية سنة ٢١٣هـ — لكن مقاومتها لم تضعف إلا حين استطاع جعفر بن محمد والى صقلية ببلرم سنة ٢٦١هـ (٨٧٥ م) أن يستولى على بعض أرباضها . ولما وصلت إليها مراكب الروم أصابها المسلمون وتمكنوا من حصارها على فترات متقطعة من سنة ٢٦١ إلى سنة ٢٦٤هـ — كان آخرها حصار التسعة أشهر — بقيادة أحمد بن الأغلب الذى سقطت بعده المدينة فى يد المسلمين [٣] ، وذلك بعد أن عانى سكانها من ويلات الحصار الشىء الكثير ، ولم يفدهم المدد البيزنطى

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ١٨٣ .

(٢) سرقوسة : قاعدة ولاية بجزيرة صقلية وثغر (فرضة) بحرية على الشاطىء الشرقى منها . وهى معقل حصين مشهور وبها مرسيان إحدهما - الأكبر - بجنوبها والآخر بشمالها ومنها توسق السفن ويسافر إليها ، وتبعد عن قطانية — إلى الجنوب — ٣٠ ميلا وهى مدينة حصينة ، بها آثار قديمة ولها تجارة واسعة . وهى أكبر مدن صقلية ، ومنها قلعة بثيرة الحصينة ، التى تبعد عن رغوس ٤٥ ميلا وكانت من ٥ مدن متلاصقة . ولذا سميت بنطابوليس . أخذها اليونان والروم (البيزنطيون) والمسلمون ، قال عنها ياقوت أنها أكبر مدن صقلية وكان بها سرير ملك الروم قديماً ويسميها الفرنج سيرا كيوز أنظر ياقوت: المعجم مادة سرقوسة ، سرهنك : ج ١ ص ٣٩٦ — ٣٩٧ — وأمارى : المكتبة العربية الصقلية ص ٣٦ — ٣٨ .

(٣) والنويرى : نهاية الأرب / بالمكتبة الصقلية ص ٤٤٩ — ٤٥٠ ، زينى دحلان : الفتوحات الإسلامية جـ ١ ص ٢٢١ .

شيئا ، لأن سرقوسة سقطت فى يد الفاتحين المسلمين فى شهر رمضان من عام ٢٦٤هـ (٨٧٨م)[1] .

كان لسقوط سرقوسة سنة ٢٦٤هـ ، أثر بالغ فى نفوس البيزنطيين . وقد قامت الحملة التى حاصرت هذه المدينة بهجوم على مدن قطانية ، وطبرمين ، ورمطة[2] ، وغيرها من بلدان الجزيرة التى لا زالت بيد الروم ، فخربوا هذه المدن ونهبوها ، حتى يضعفوا من مقاومتها تمهيدا لفتحها فيما بعد[3] .

والواقع أن البيزنطيين لم يفرطوا فى سرقوسة ، بل استماتوا فى الدفاع عنها . كما أن الأغالبة من ناحية أخرى بذلوا جهداً كبيراً فى سبيل فتحها ، لأنهم كانوا يرون فى سرقوسة شوكة تفسد على الأسطول الأغلبى سيطرته على جزيرة صقلية . وقد حاول البيزنطيون استردادها ثانية فأرسلوا فى أواخر سنة ٢٦٦هـ ، أسطولا لمهاجمة المسلمين فيها ، وأخذها منهم ، لكن محاولتهم باءت بالفشل وأسر المسلمون نحو أربع قطع بحرية بيزنطية[4] ، واضطر البيزنطيون إلى التخلى عنها ليسيطر عليها الأغالبة ، ويجعلوا منها قاعدة لأسطولهم بصقلية[5] .

مهد فتح مدينة سرقوسة سنة ٢٦٤هـ السبيل للاستيلاء على باقى مدن الجزيرة ، ولذلك حفلت الفترة من سنة ٢٦٦هـ إلى ٢٨٩هـ بكثير من الحملات

---

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب جـ ٢ ص ٧١٦ ،
Ency. of Islam vol, 4 P. 399.

(٢) ابن خلدون : العبر / بالمكتبة الصقلية ص ٤٧٠ وحسن محمود : تاريخ المغرب الإسلامى ص ٤٠ .

(٣) سرهنك : حقائق الأخبار جـ ١ ص ٣٩٧ — ٣٩٨ ،
Bury : Centenario vol. 1, P. 539 – 540.

(٤) زينى دحلان : الفتوحات الإسلامية جـ ١ ص ٢٢١ .

(٥) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ١٥٥ . ويذكر ابن عذارى أن المسلمين قتلوا من البيزنطيين فى معارك فتح سرقوسة حول ٤٠٠٠ .

والسرايا التى خرجت لتغزو أنحاء متفرقة من الجزيرة ، لإخضاع باقى مدنها ، للمسلمين ، وأهمها طبرمين ، رمطة ، وقطانية (١) .

وفى سنة ٢٧٣هـ تعرض الحكم الإسلامى فى مدينة بلرم — عاصمة صقلية — لتمرد أهلها على الوالى ، سوادة بن محمد ، لكنه ما لبث أن تمكن من إخماده (٢) ولم يمض على ذلك غير قليل حتى عقد المسلمون بصقلية سنة ٢٨٣هـ صلحا مع البيزنطيين ، كان من شروطه ، إطلاق سراح ألف أسير مسلم ، وأن تكون عندهم رهائن المسلمين فى كل شهر ، ثلاثة من العرب ومثلهم من البربر (٣) .

ويبدو أن الذى حمل الأغالبة فى صقلية إلى قبول مثل هذا الصلح مع الروم ، تلك القلاقل التى بدأوا يعانون منها ، بسبب انحياز بعض قبائل البربر إلى أبى عبد الله الشيعى ، داعى الفاطميين ببلاد المغرب ، فضلا عن العداء بين العرب والبربر . كما كانت الحرب بين الطولونيين والأغالبة فيما بين سنتى ٢٦٧ ، ٢٨١ هـ سببا فى وقف الحملات التى كانت تخرج لاستكمال فتح صقلية (٤) .

استقر رأى ابراهيم بن الأغلب على الخروج ، بعد أن أوقعت جيوشه الهزيمة بالطولونيين فى برقة وطرابلس الغرب ، لإتمام فتح جزيرة صقلية ، فانفذ إبنه عبد الله إلى صقلية سنة ٢٨٧هـ ، على رأس أسطول يتكون من ١٦٠ مركبا حربيا ، حاصرت طرابنه (ترابانى Trapani) — وهى مدينة حصينة فى الطرف الشمالى الغربى لجزيرة صقلية — لكن أهل بلرم تمردوا وهاجموا المسلمين برا وبحرا ، فتمكن منهم عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب ، وفر

---

(١) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ١٥٥ .

(٢) ابن عذارى : نفس المرجع ج ١ ص ١٥٥ إلى ١٦٤ ، زينى دحلان المصدر السابق ج ١ ص ٢٢٢ .

(٣) ابن عذارى : نفس المصدر ج ١ ص ١٧٣

(٤) سرهنك : حقائق الأخبار ج ١ ص ٣٩٨

أكثرهم إلى القسطنطينية . ثم أعقب ذلك مسيره إلى قطانية (Catane) على الشاطىء الشرقى لجزيرة صقلية ، ولما امتنعت عليه تركها ، ليغزو فى السنة التالية (٢٨٨هـ) — مدينة « زلة » ، وعدة حصون أخرى وافقت على دفع الجزية (١) .

وفى سنة ٢٩٦هـ (٩٠٨ — ٩٠٩م) استطاع المسلمون فتح طبرمين ، وكان لنبأ سقوطها أثر سيء على نفس الإمبراطور البيزنطى (٢) . ولا غرو ، فقد كانت تعد من أهم حصون جزيرة صقلية المنيعة . وكان سقوطها خاتمة فتوح صقلية التى استمرت منذ حملة أسد بن الفرات سنة ٢١٢هـ حتى استيلاء المسلمين على طبرمين سنة ٢٩٦هـ (٣) .

تم للأغالبة — باستيلائهم على طبرمين — السيطرة على جزيرة صقلية (٤) ويعد هذا النصر دليلا قويا على مدى ماوصلت إليه كفاءة الأسطول الأغلبى الذى وقف أمام أسطول البيزنطيين (٥) . وبعد أن بسط الأغالبة سلطانهم على طبرمين ، بثوا سراياهم إلى باقى جيوب صقلية التى لم تسقط ، فوجدوا أهلها قد جلوا عنها (٦) .

---

(١) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ١٧٦ — ١٧٧ .

(٢) ابن أبى دينار : المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس ص ٤٩ — ٥٠ ، ابن الداوادارى : الدرة المضيئة ٣٩ وابن خلدون : العبر ، المكتبة الصقلية ص ٤٧٥ ، Camb/Med. HH. Vol, 4, P. 141

(٣) ابن الأثير الكامل جـ ٧ ص ٩٤ ، إبن عذارى : المصدر السابق جـ ١ ص ١٧٧ ، وقد ظل الإمبراطور محزونا سبعة أيام لا يلبس فيها التاج الامبراطورى دليلا على شدة تأثره وألمه لسقوط طبرمين . أنظر المكتبة الصقلية ص ٢٤١ .

(٤) Camb. Med. Hist. Vol. 2, P. 382 & Vol, 4 P. 141

(٥) عبد الجليل عبد الرضا الراشد : العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس ١٤٦ .

(٦) ابن الأثير : الكامل (المكتبة الصقلية ص ٢٤٢) والعدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ص ١٢٥ .

ويعتبر فتح صقلية من الأحداث الهامة فى تاريخ البحرية الإسلامية فى البحر المتوسط . إذ صارت سيادة الحوض الأوسط لهذا البحر فى يد الأغالبة ، وكان يدعمهم قوة بحرية أخرى فى الغرب ، تتمثل فى الأسطول الأندلسى الذى ساندهم فى فتح الجزيرة [١] ، واستطاع أسطول الأغالبة أن يتخذ من هذه الجزيرة قاعدة له [٢] .

ظل الأغالبة يعنون بتعزيز قواتهم ، ويحرصون على تتبع حركات أعدائهم فى البلاد الأوربية إلى أن قامت الخلافة الفاطمية فى المغرب ، وقضى دعاتها على حكم الأغالبة فى افريقية ، ثم خلفهم الفاطميون فى مد سلطانهم إلى جزيرة صقلية .

---

(١) أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية ص ٢١١ .

(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب جـ ٢ ص ٧١٦ - ٧١٧ وابراهيم على طرخان : المسلمون فى فرنسا وإيطاليا ص ١١٦ (مقال منشور فى مجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة — المجلد ٢٣ الجزء الثانى/ ديسمبر ١٩٦١ م صفحات ١٤٨ - ١٤٩) وقد أشار المقدسى (أحسن التقاسيم ص ٢٢٣) إلى أهمية صقلية فقال « أنها جزيرة واسعة جليلة ، ليس للمسلمين جزيرة أجل ولا أعمر ولا أكثر مدناً منها » .

الباب الثانى

الفاطميون بالمغرب ونشاطهم فى حوض البحر المتوسط

١ ــ اهتمام الفاطميين بإعداد القوات البحرية فى المغرب .

٢ ــ موقف الفاطميين من الأمويين فى الأندلس .

٣ ــ الفاطميون وجزيرة أقريطش .

٤ ــ علاقة الفاطميين بجزيرة صقلية .

الباب الثانى

الفاطميون بالمغرب ونشاطهم فى حوض البحر المتوسط

١ - اهتمام الفاطميين باعداد القوات البحرية فى المغرب

اهتم الفاطميون ، منذ قامت خلافتهم فى أفريقية سنة ٢٩٧ هـ ، بإنشاء الموانى البحرية المحصنة ، وإعداد قوات بحرية مدعمة ، لحماية دولتهم[١] . فشرع « عبيد الله المهدى » ، بعد أن توطد سلطان خلافته ، فى بناء حاضرة جديدة عرفت بإسم « المهدية » — على بعد ستين ميلا جنوبى القيروان[٢] — إذ رأى أن الحاجة تدعوه لبناء مثل هذه المدينة ، ليدير منها دولته ، ويتخذ منها حصناً لحمايته . ولم يجد فى كل من القيروان ورقّادة مكاناً يصلح لتحقيق أغراضه ، السياسية والحربية[٣] . وكان اختياره للمهدية اختياراً موفقاً ، فموقعها عبارة عن جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل بزند[٤] . ولذلك وقع

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٠٩ — ١١٠ ،

Nadvi : Arab Navig. (Is. Culture, Vol. 15 – 16 1941 – 1942

(٢) الأصطخرى : مسالك الممالك ص ٣٨ — ٣٩ (المجموعة الجغرافية العربية نشر دى غويه ، ليدن ، ابريل ١٩٦٧ بالأوفست) البكرى : وصف أفريقيا ص ٣٠ ، حسن ابراهيم : عبيد الله المهدى ص ٢٠٤ .

(٣) حسن ابراهيم : عبيد الله المهدى ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٣ . ويقال أن راهباً فى مغارة أنبأ المهدى أن اسم هذا المكان هو (جزيرة الخلفاء) ، مما أعجب له المهدى فقرر بناء عاصمته عليه . وتقع المهدية على بعد ٦٠ ميلا جنوبى شرقى القيروان (مسيرة يومان) . وقد ذكر البكرى فى كتابه المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب أن البحر المتوسط يحيط بها من ثلاثة جهات وأنه يدخل إليها من الجانب الغربى =

اختياره عليه ليبنى فيه حاضرته ، التى أصبحت مرفأ هاماً وسوقاً نافقة للسلع التى تحملها السفن إليها من الاسكندرية والشام وصقلية والأندلس وغيرها. وقد نحت مرسى ميناء المهدية فى الصخور وكان يتسع لرسو نحو ثلاثين مركباً(١).

وقد بنى المهدى بمدينته الجديدة داراً لصناعة السفن ، تتسع لأكثر من مائة سفينة(٢). وفرغ من بناء حاضرته الجديدة سنة ٣٠٥ هـ ، ثم انتقل إليها فى سنة ٣٠٨ هـ(٣)، وأقام بها . ولم تلبث هذه المدينة أن عمرت بالحوانيت، ورتب المهدى بها أرباب المهن ، وجعل لكل طبقة سوقاً خاصة بها ، فنقلوا

= وقد شيدت مبانيها بالصخر ، واتخذ المهدى لهذه المدينة بابين من الحديد لاخشب فيهما ، زنة كل منهما ألف قنطار وطوله ٣٠ شبراً ، ووزن كل مسمار من المسامير التى استعملت فى تركيبه ستة أرطال ونقش على البابين صوراً لبعض الحيوانات. وأقيم بها ٦٣ صهريجاً أو كما يقول ياقوت ٣٦٠ صهريجا للمياه هـــذا عدا ما أجرى فيها من القنوات . أنظر : الاصطخرى . مسالك الممالك ص٣٨ . ياقوت ج ٨ ص ٢٠٧ ، حسن ابراهيم : عبيد الله المهدى ص ١٠٥ ،

Goitein : Studies on Islamic Inst., P. 309

(١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٨٤ — ٨٥ .

(٢) البكرى : نفس المصدر ص ٣٠ه المقريزى : خطط ج ٣ ص ٢٠٧ ، ٣١٣ — ٣١٥ (ط . بولاق) أو ج ٢ ص ١٥٥ (ط . بيروت) .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٢٥٨ . وقد ذكر الأنطاكى فى تاريخه بناء المهدية دون تحديد لسنة بداية البناء ، فقال : « وبنى — أى عبيد الله المهدى — مدينة المهدية بالمغرب (بالمغرب مدينة) مشتقة من إسمه وانتقل إليها فى شوال سنة ٣٠٨ هـ ، وخالف عليه جماعة بالغرب منهم أهل برقة ، فجرد إليهم قائداً من قواده يسمى «بغنا» فأتاه بأكثر أهلها الذين عقدوا الخلاف فقتلهم انظر الأنطاكى : تاريخ سعيد بن بطريق ص ٧٦٢ (٦٤) منشور فى مجموعة الـ

Pat. Or. Tome 13, Fcas. V, (Ed. by Kratchkovesky & Vasillev).

أموالهم[1]. وقد برهن عبيدالله المهدى ببنائه المهدية على إدراكه العميق لطبيعة الدولة الفاطمية التى أسسها، كما دل بناؤها على أن الفاطميين كانوا بحاجة إلى مكان حصين يدرءون به خطر أعدائهم، ولم يكن هناك بد من أن تبنى المهدية على ساحل البحر المتوسط، لحاجة الفاطميين إلى الاعتماد على أسطول قوى، يصد الأخطار الخارجية، هذا فضلا عن أن موقعها على البحر المتوسط يجعلها تعتبر بحق قاعدة بحرية هامة للمشروعات الحربية الفاطمية[2].

والواقع أن حاضرة الفاطميين الجديدة كانت قاعدة حربية منيعة بعيدة كل البعد عن كل عوامل أو مظاهر الترف والأبهة[3]. كما أن بناءها يعد حدثاً هاماً من الأحداث المؤثرة فى تاريخ المغرب سواء: خلال الحكم الفاطمى أو بعد انتقال الفاطميين إلى القاهرة بعد سنة ٣٦٢ هـ[4].

لم يكتف الخليفة «عبيد الله المهدى» ببناء المهدية، بل أمر ببناء مدينة أخرى بجوارها، وجعل بينهما ميداناً فسيحاً، وأحاطهما بسور وسماها «زويلة» — نسبة لإحدى قبائل البربر[5]. (ويطلق بعض الكتاب على المهدية وزويلة اسم المهديتين إشارة إلى أن المهدى هو بانيهما)[6].

---

(١) البكرى: المغرب فى حلى المغرب ص ٣٠ — ٣١ وحسن ابراهيم: تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٥٩٨.

(٢) احمد مختار العبادى: سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ص ٢٠٠ — ٢٠١ (مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد).

(٣) G. Marcais: Art Almahdiya (in Ency. of Islam)

(٤) حسن محمود: تاريخ المغرب الإسلامى ص ١٥٢.

(٥) حسن محمود: نفس المصدر ص ١٥٢.

(٦) من أولئك الكتاب المؤرخ لويس أرشيبالد مؤلف كتاب القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط، وراجع ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص ١٥٢، ياقوت: معجم البلدان ج ٨ ص ٢٠٧ مادة «المهدية».

أصبحت المهدية ، بحكم موقعها ، من أمنع الحصون البحرية الفاطمية ، وظلت بذلك القاعدة الحصينة المتحكمة فى خليج « سرت » بساحل أفريقية مدة طويلة ، وكان من حسن حظ المسلمين فى حوض البحر المتوسط أن يكون انشاء المهدية معاصراً للتفوق البحرى الإسلامى(١)وظهور البحرية الإسلامية كقوة مؤثرة فى حوض البحر المتوسط(٢) . كما لا يخفى علينا ما كان ينشده عبيد الله المهدى من إنشاء المهدية ، فى أن تكون ملاذاً وملجأ له ولآل بيته ، يعتصمون فيه من ثائرة البربر ، وهو ماثبت صحته فيما بعد ، حين أعلن « ابن كيداد » ثورته وهدد كيان الخلافه الفاطمية ، وحاصر المهدية . غير أنه نظراً لمناعة المدينة وحصاناتها — لم يستطع أن ينل منها شيئاً . وكان الفاطميون يبغون أيضاً من المهدية أن تكون قاعدة انطلاق لحملاتهم البحرية فى حوض البحر المتوسط ، فضلا عن اتخاذها مركزاً لتجاراتهم(٣) .

اهتم الفاطميون فى المغرب باتخاذ الوسائل الكفيلة بتدعيم قواتهم ومنشآتهم البحرية ، فقاموا بإصلاح دار الصناعة القديمة التى كانت قائمة فى أفريقية(٤) . فكانت السفن تدخل هذه الدار ليجرى تجديدها وتعميرها(٥) كما بنى المهدى

---

(١) حسن محمود : تاريخ الغرب الإسلامى ص ١٥٣ .

(٢) حسن محمود : المصدر السابق ص ١٥٣ — ١٥٤ .

(٣) حسن ابراهيم : الإسلام السياسى ج ٣ ص ٣٢٩ .

(٤) وسميت هذه الدار باسم تونس إبتداء من منتصف القرن الثانى عشر الميلادى كما يقول Goitein : Studies on Islamic Hist. & Inst. P. 308

أما الجغرافيون العرب فقد أوردوا اسم (تونس) وعرفوه وحددوا مكانه ومن هؤلاء ابن خرداذبه (المسالك والمالك ص ٨٧) والاصطخرى (مسالك الممالك ص ٣٨) وابن الفقيه الهمدانى (مختصر كتاب البلدان ص ٧٩) (والكل لنشرة دى غويه فى مجموعة المكتبة الجغرافية العربية .B. A. G ط . ليدن ، ابريل ١٩٦٧ م بالأوفست) .

(٥) Nadvi : Arab Navigation, P. 82 (Vol., 16)

دار صناعة أخرى فى مدينته الجديدة ، تتسع لنحو مائة مركب معظمها من نوع الشوانى[1] .

صار لدى الفاطميين أسطول بحرى يمكنهم توجيهه فى حملات بحرية إلى أراضى الدولة البيزنطية ، والدولة الأموية بالأندلس ، ولذلك نرى عبيد الله المهدى يسيّر ـ برغم مشاغله فى المغرب ومحاولاته فتح مصر ـ أسطولا سنة ٣١٢ هـ ، أغار على أراضى قلورية جنوبى إيطاليا . وكان مما أعان الفاطميين على القيام بهـــذا الغزو ، استقرار سلطانهم فى صقلية ، منذ سنة ٣٠٤ ـ ٣٠٥ هـ (٩١٧ م) وبناء المهدية ودار صناعتها[2] .

رأى حاكم قلورية البيزنطى ـ إزاء هجمات الأسطول الفاطمى المتوالية على بلاده ـ أن يهادن الفاطميين فقبل ـ بإيعاز من الامبراطور البيزنطى آنذاك ـ أن يستمر فى دفع الجزية ، التى كان يدفعها منذ سنة ٣٠٥ هـ (٩١٧ م) أيام الأمبراطورة زوى ـ بمقتضى معاهدة أبرمت آنذاك ـ وقدرها ٢٢,٠٠٠ قطعة سنوية يضمن بها ود الفاطميـــين ويأمن على نفسه وبلاده من غارات أسطولهم . وقد قبل الفاطميون هذا العرض ، واتجه نشاطهم بعد ذلك إلى منطقة خليج ترانته ـ فى جنوبى إيطالية ـ إذ هاجموها بحملة قوامها ٤٤ مركبا حربياً عام ٣١٣ هـ (٩٢٩ م) ، الأمر الذى فزعت له مدينتا ساليرنو ونابولى واضطرتا إلى دفع الجزية للفاطميين[3] .

اكتسبت الدولة الفاطمية، أيام عبيد الله المهدى، وابنه وخليفته « القائم

---

(١) وهذا النوع يسير بمائة وثلاث وأربعون مجدافاً وبها مغلاق ورتاج يغلق بها داخل السفينة . انظر :

Nadvi : Arab Navigation, P. 82 – 82.

(٢) أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية ص ٢٣٤ .

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ٣٢٠ ، حسن ابراهيم حسن : الدولة الفاطمية ص ١١٠ .

Ency. Brittanica, (World Atlas, P. 28)

بأمر الله » ، مركزاً هاماً بين دول البحر المتوسط لعنايتها بإعداد القوات البحرية . وقد ظهرت وطأة هذه القوات سنتي ٣٢٢ و٣٢٣ﻫ على جزر مالطة ، وسردينية (سردانية) وكورسيكا (كورسكةأوقورسقة أو قرشقة) ، وغيرها من جزر البحر المتوسط(١) .

سار خلفاء عبيد الله المهدى الفاطميين ، على نفس نهجه ، فاهتم ابنه القادم بأمر الله الفاطمى (٣٢٢ — ٣٣٤ ﻫ) بتدعيم قواته فى البحر المتوسط ، إلى جانب اهتمامه بالجيوش البرية(٢) . ويبدو أن الحملات التى أرسلها هذا الخليفة سنة ٣٢٣ ﻫ عقب وفاة والده — لفتح جنوه والإغارة على قلورية وغيرهما - كان الغرض منها إشعار الدول الأوربية فى حوض البحر المتوسط بقوة الدولة الفاطمية ، وتهديد من تحدثه نفسه بالاقتراب من أملاك هذه الدولة ، وذلك على الرغم من الصعوبات التى واجهته وبخاصة ثورة « أبى يزيد مخلد بن كيداد الخارجى » ، الذى أقلق مضاجع الفاطميين منذ أيام المهدى سنة ٣٠٣ ﻫ حتى انتهى أمره فيما بعد على يد الخليفة الفاطمى «المنصور» ثالث الخلفاء الفاطميين (٣٣٤ — ٣٤١ ﻫ) ، بقتله فى شهر المحرم سنة ٣٣٦ ﻫ(٣) .

(١) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٩٦ ، فيليب حتى : تاريخ العرب ج ٣ ص٧٢٣ ، والجدير بالذكر أن سرهنك يحدد (فى حقائق الأخبار ج ١ص٤٠٢) تاريخاً مختلفاً لتلك الحملة . فيقرر أنها كانت ٣٢٤ ﻫ ، وأنها غزت جنوة وعرجت على جزيرة سردينية ، وقرقيسيا من سواحل الشام . وأحرقت المراكب العباسية فيها وعادت محملة بالغنائم إلى المهدية . ويستطرد سرهنك فيقول أن القائم بعث بخادمه (زيزان) بالمراكب (الأساطيل) والجيوش على مصر ، فملك الاسكندرية ، ولكن جيش الأخشيد أجلاه عنها . والراجح أن الحملة التى قامت لغزو جنوة كانت سنة ٣٢٢ ﻫ . كما يحتمل أن يكون التاريخ الذى أورده سرهنك مقصوداً به حملة أخرى تمت فى سنة ٣٢٤ ﻫ .

(٢) أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية ص ٢٣٤ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٣١٠ — ٣١٢ والمقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٠٩ — ١٢٥ .

وقد وضح يحيى بن سعيد الأنطاكى الأسباب التى دعت الفاطميين إلى الاهتمام بالأسطول والقوات البحرية فى قوله : « وكان للثورات الداخلية الخارجة على طاعة الفاطميين بالمغرب أثرها فى الاهتمام بالأسطول وحركة الفتح فى البحر المتوسط[١] . كما يؤكد المقريزى قول الانطاكى فيذكر أنه « لما فرغ — أى المنصور الفاطمى — منه (أى من ثورة أبى يزيد) أظهر موت أبيه ، وتسمى بالخلافة ، وعمل آلات الحرب والمراكب . . . وضبط الملك والبلاد »[٢] .

وليس من شك أن سلطة الفاطميين فى شمال أفريقية تمثل قمة المجد البحرى الإسلامى فى البحر المتوسط ، وعصر سيادة الأساطيل الإسلامية لهذا البحر ، فقد استطاعت الدولة الفاطمية ، وهى فى المغرب ، أن تحتل مكاناً مرموقاً فى تاريخ الأساطيل الإسلامية[٣] .

تابع الخلفاء الفاطميون — بعد عبيد الله المهدى — سياستهم البحرية ، وخاصة فيما يتعلق بإنشاء القواعد البحرية فى حوض البحر المتوسط . ذلك أن المعز لدين الله الفاطمى « (٣٤١ — ٣٦٥ هـ) رأى أن قاعدة المهدية ، ودار الصناعة بها لا يستطيعان مواجهة مطالب الأسطول الفاطمى ، فعول على تجديد قاعدة مدينة « سوسة » المنيعة[٤] التى يحيط بها البحر من ثلاث

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٠٩ — ١٢٠ . ويذكر الأنطاكى أن ثورة أبو يزيد بدأت سنة ٣٣٢ هـ ، وحقيقتها ٣٠٢ هـ . انظر الأنطاكى تاريخ سعيد بن بطريق ص ٧٤٦ (٤٨) . نشر : كراتشكوفسكى ، وفازيليف ، مجموعة Pat. Orientalis, Tomes 18, & 23.

(٢) المقريزى : المصدر السابق ص ١٢٦ .

(٣) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى جـ ١ ص ٢١٧ .

(٤) سوسة : مدينة ساحلية بينها وبين القيروان نحو ٣٦ ميلا ، ويحيط بها البحر من جهات ثلاث الشمال والجنوب والشرق . وسورها صخرى منيع ، يضرب فيه البحر وبها منار يعرف بمنار (خلف الفتى) وهى تقع فى مكان مرتفع =

جهات وتكثر بقربها الحجارة التي تحميها من الأمواج(١) . وغدت سوسة بفضل الاصلاحات التي قام بها المعز ، قاعدة ثانية للأسطول الفاطمي في بلاد المغرب(٢) .

وقد ذكر النعمان المغربي « قاضي الخليفة المعز لدين الله الفاطمي » أن المهدية كانت غاصة بالسفن ، حتى أن هذا الخليفة الفاطمي عمل على اتخاذ قاعدة ثانية تخفف الضغط عن ذلك الثغر البحري الجديد « المهدية » ، فوجد القاعدة المنشودة في « سوسة »(٣) .

أصبح للفاطميين بالمغرب في عهد المعز ميناءان هامان، يعتمدان على دور الصناعة فيهما في صناعة السفن وتعميرها . وكان المعز لدين الله يعمل على جعل حاضرته « المنصورية » ، ميناءاً ثالثاً ، من موانيه الرئيسية ، يدل على ذلك قوله : « لئن امتد المقام هاهنا — أى في المنصورية — لنجرين البحر ، بحول الله وقوته ، إلينا ، حتى تكون مراكبنا تحط وتقلع بحضرتنا(٤) .

وكان للأسطول الفاطمي في عهد المعز لدين الله، وحدات ترابط في موانى صقلية ويشرف عليه ولاتها . وقد عاون هذا الاسطول في فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ — (٩٧١ م) ، فكان واسطة الاتصال بين جوهر الصقلي بجيوشه البرية الغازية وبين الخليفة المعز لدين الله في المغرب ، كما كانت الإمدادات

= راجع ابن الأثير الكامل جـ ٨ ص ١٥٥ وحسن ابراهيم : المعــز لدين الله ص ١٨٥ والهامش .

(١) حسن ابراهيم : نفس المصدر ص ١٨٤ — ١٨٥ ، والعدوى الأساطيل العربية ص ١٤٣ — ١٤٤

(٢) النعمان ، المجالس والمسايرات جـ ٢ ورقة ٥٩١ — ٥٩٢ .

(٣) النعمان : المصدر السابق جـ ٢ ورقة ٥٩٢ .

(٤) النعمان : المصدر نفسه جـ ٢ ورقة ٥٩٢ .

تصل في حراسة الأسطول إلى القائد الفاطمي جوهر الصقلي في سهولة ويسر[1].

ومما يدلنا على شدة حرص واهتمام الخلفاء الفاطميين — وبخاصة المعز لدين الله — بالأسطول والعمل على تدبير حاجاته من مهمات ، وخامات ، وعتاد ، وموانى يرسو فيها وينطلق منها ، تلك التوقيعات (الرسائل) المتبادلة بين الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ، وكاتبه جوذر . وهذه المكاتبات يدور أغلبها حول تدبير حاجيات ولوازم الأسطول ، والعمل على مرمة حصون السواحل ، وتعمير أو صيانة موانى المهدية وسوسة والمنصورية ، وطلب تشديد الحراسة في البحر لحماية سواحل الدولة في المغرب ، من غارات الاعداء ومفاجآتهم . وهذه التوقيعات تنهض دليلا واضحاً وقوياً على إدراك الفاطميين لأهمية العامل البحرى ، في قمة دولتهم وبقائها مهيبة الجانب في حوض البحر المتوسط .

ففي رقعة من هذه التوقيعات رفع الأستاذ جوذر طلباً تقدم به « حسين ابن يعقوب » — متولى البحر بالمهدية — إلى الخليفة المعز لدين الله ، يذكر فيها حسين مايحتاجه إليه من « الحوائج لإنشاء المراكب والنفقة وأسباب البحر » ، فرد الخليفة المعز برسالة وقعها جاء فيها ما مانصه[2] « ياجوذر سلمك الله . بعثنا بجريدة ابن يعقوب المدرجة في رقعتك هذه بعد وقوفها ؛ ونحن قد استغنينا البحر . فلو لم نقاس من أهوائه إلا ما كان في هذه السفن بالمهدية[3] . لما وجب أن نذكره أبداً ، ووالله لاجعلنا من أعان علينا في

---

(١) حسن ابراهيم : المعز لدين الله ص ١٨٥ — ١٨٦ .

(٢) سيرة الأستاذ جوذر ص ٩٧ — ٩٨ (نشر الأستاذين محمد عبد الهادى شعيرة ، محمد كامل حسين .

(٣) كان الخروج المشار إليه سنة ٣٤٤ هـ . والمعروف تاريخياً أن جبل (أوراس) كان ملجأ لكل من ثار على الفاطميين بالمغرب ، وأهل هذا الجبل =

شيء مما كان سراً وعلانية فى حل أبداً ، فانتقم الله منهم بعدله ، فإنه لا يخفى لديه خافيا ، ولا نشك فى أن إقامة ما نقيمه من الحربية (المراكب الحربية) فى الصناعة — دار الصناعة — تعظم فيه الفائدة من عز الولى (الوالى) ووقم (أى رد وردع) العدو ، فإن علم ابن يعقوب أنه يأتى فى ذلك ما يرضينا . فليسرع فى إقامة عشرة (صناديل من القارب) أو سناديل من القالب (أى المراكب الشلندية) — الكبير ، ولئن كان الامر على ما نعرف فالترك من الساعة أوفق ، فلسنا نختار مقاساة أهوال البحر بعد الذى قاسيناه منه ، مع ما نستقبله من السفر فى البر الذى يقرن الله فيه العزم بالخيرة بمنه وفضله إن شاء الله » .

كما أطلع جوذر الخليفة المعز لدين الله ، على ما ورد فى رسالة أتت من «صافى بن حسين ن يعقوب ، — متولى خزائن البحر بالمهدية — من اعتزامه خزن الأزواد النافذة إليه من مسجد عند دار الشبامة بمدينة المهدية(١) — فلما وقف المعز لدين الله على ذلك ، كبر عليه أن يستخدم المسجد مخزنا فوقّع إليه : ياجوذر . . . وقفنا على ما ذكرته عن صافى ، فاكتب إليه بأن لا يقرب المساجد ولا يخزّن فيها ، فما يقوم خير ذلك بشره — أى ليس فى هذا العمل ، لو تم ، خيرا يرجى ، بل شره مستطير لاستخدام المساجد فى غير ما أقيمت لأجله — ، وفى تعظيم المساجد فضل كبير ، وأجر عظيم وفى الاستهانة بها ضد ذلك . . .»(٢) والمعز فى رسالته هذه — رداً على جوذر —

—ظلوا متمردين حتى ضمهم المعز فى هذه الحملة لطاعته ، واستأمن له وجوه السكان . أنظر سيرة جوذر ص ١٧٦ .

(١) اختير هذا المسجد بالذات فيما يبدو واقربه من البحر وسهولة نقل الأزواد منه إلى سفن الأسطول الراسية بميناء المهدية . والجدير بالذكر أنى لم أجد تحديداً لموقع دار الشبامة فى كتب الجغرافيين أو دوائر المعارف أو كتابات المؤرخين سوى ما أورده جوذر فى رسالته للمعز .

(٢) سيرة الأستاذ جوذر ص ١٠٢ .

يدلل أنه لم ينس أن دولته قائمة على أساس الدين ، ولذلك رفض التصريح بخزن الأقوات القادمة للأسطول ، في مسجد المهدية .

وليس هذا فحسب ، بل أن المعز كان يتابع بنفسه مراحل تكوين أساطيل الدولة ، ابتداء من شراء لوازم بنائها من أخشاب وخلافه ، حتى يتم بناؤها سفنا جارية في البحر . ويبدو أنه كان قد حدث في عهده ما عطل صناعة الأساطيل أو أعاقها بعض الوقت ، مما ضايقه كثيراً ، فأرسل بذلك إلى كاتبه المقرب الأستاذ جوذر عن قلقه لهذا التأخير ، فرد جوذر بأنه لم يغفل لحظة عن تحريك المأمورين بالنظر في حاجات الأسطول . وكان جواب المعز لدين الله على هذا الرد ما يلي : « ياجوذر . . . مانشك في جميل نيتك كما لا نشك في أنفسنا (وهذا يدل على ثقة كبيرة كان المعز يوليها لجوذر) وإنما أردنا من يتخلف من امتثال أمرنا ، وإنفاذه بسرعة ، (أى معاقبة كل من يتوانى عن تأدية الواجب الملقى عليه في بناء الأساطيل) ، فأما أنت يا (جوذر) فما على ماعندك مستزاد والحمد لله) (أى أنك ياجوذر أديت ما عليك وزيادة)[١] .

وهناك العديد غير ذلك من المراسلات والتوقيعات التى تبودلت بين جوذر والخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، تدور غالباً حول العناية بالموانى والأساطيل ، مما ينهض دليلا قوياً على عناية فائقة بذلها الخلفاء والمسئولون الفاطميون ، في الاهتمام بالأساطيل الحربية والقوات البحرية[٢] ، لحماية الدولة الفاطمية ضد غارات الأعداء ، خاصة الدولة البيزنطية والأمويين بالأندلس .

وكان الفاطميون يجدون أحيانا صعوبات في بناء سفن أسطولهم الحربى بسبب ندرة الخشب وصعوبة الحصول عليه ، لذلك كانوا يلجأون إلى شرائه

---

(١) سيرة الأستاذ جوذر : ص ١٠٢ — ١٠٣

(٢) نفس المصدر ص ١٠٧ — ١٠٨ .

من أى جهة وبأى ثمن . يدلنا على ذلك ما حكى على لسان جوذر نفسه ، لما احتاج بذار الصناعة إلى الصوارى ، وغير ذلك من الأخشاب التى بدونها لايكتمل المركب بناه . وكان جوذر يحتفظ لنفسه وقتها بكمية جيدة منها فى مخزنه للاحتياط ، فأراد أن يعرضها على الخليفة المعز ليأمر بإدخالها دار الصناعة ، لاستكمال المراكب الجارى صناعتها ، غير أن المعز لدين الله آثر أن يشترى ، متولى خزائن المهدية وصناعتها بنفسه ، الخشب ويلتمسه من أى مصدر آخر ، وأن يحتفظ جوذر بما لديه ويبقيه كرصيد للطوارىء[١].

ومما يدل على مدى اهتمام الفاطميين بالمغرب بأمر الأسطول والقوات البحرية ، أن الحملة التى هاجمت مصر سنة ٣٠٧هـ (٩٢٠م) كان يغلب عليها السمة البحرية وقيادتها مسندة إلى أحد أمراء البحر ، فى الأسطول الفاطمى . فاشتركت فيها قوات بحرية من أسطول شمال أفريقية ، وأسطول صقلية الفاطميين . وكان تنظيم هذه القوات البحرية الفاطمية مطابقا لتنظيم الأسطول الأموى الأندلسى[٢] . فهناك أمير البحر ، وهو أحد أربعة كبار تعتمد عليهم الخلافة .

وكان بكل القواعد البحرية الفاطمية فى المغرب — سواء فى المهدية أو سوسة أو أفريقية « تونس حاليا » — دور لصناعة السفن ، كما رابط بكل منها عدد من المراكب الحربية فى وقت السلم ، وكانت تتجمع هذه السفن عند الحروب فى مكان واحد . وكان لكل سفينة قائد مسئول عن الأسلحة والمحاربين ، وكبير للبحارة ، كما كان للحملة البحرية قائد من الأمراء أو من ذوى المناصب العليا .

كانت أساطيل الفاطميين البحرية فى المغرب تبنى فى دور صناعة منظمة ،

---

(١) سيرة جوذرى : ص ١١٩ — ١٢١ .

(٢) أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية ص ٢٤١ — ٢٤٢ .

ومجهزة بالعتاد والآلات والرجال ، وقد أدت سيطرة الفاطميين على جزيرة صقلية إلى تيسير حصولهم على الحديد ولوازم السفن من مناجم ومصانع بلرم [١] ، كما حصلوا على الحديد والفضة والرصاص من مناجم مدينة مجانة بالمغرب [٢] .

ولكى يربط الفاطميون الاتصال بين وحدات أسطولهم بعضها البعض ، وبينها وبينهم فى المغرب ، فقد استخدموا الحمام الزاجل « حمام الرسائل » فى هذا الغرض حتى انتقل الفاطميون من المغرب إلى مصر سنة ٣٦٢هـ . ولا غرو فقد كان حمام الرسائل آنذاك وسيلة اتصال سريعة وفعالة بين القوات البحرية ، وهى فى عرض البحر ، وبين قيادتها سواء فى الحملة أو فى عاصمة الدولة الفاطمية [٣] .

وكانت المراكب التى يتكون منها الأسطول الفاطمى فى البحر المتوسط على أنواع مختلفة فمنها :

١ — الشوانى : (وهى جميع شينى « Shini ») التى وردت فى كتاب ابن مماتى [٤] ، وهى أقدم أنواع السفن الحربية ، وأهم قطع الأسطول الفاطمى خاصة . والشينى (أو الشونة أو الشينية) ، أكبر السفن حجما وأكثرها

---

(١) أرشيبالد : نفس المصدر ٢٤١ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان جـ ٧ ص٣٨٦ (مادة مجانة) وهى بلد بأفريقية ، بأفريقية فتحت على يد بسر بن أبى أرطاة . ولذا سميت قلعة (بسر) وتمتاز بمعادنها الكثيرة كالحديد والفضة والرصاص . وبينها وبين القيروان خمس مراحل .

(٣) Oman : Hist. of Art of war in the middle ages, Vol. 1, P. 126 - 130 . وجرجى زيدان : التمدن الإسلامى جـ ١ ص ١٢٧ — ١٤١ .

(٤) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٣٤٠ ، سرهنك : حقائق الأخبار جـ ١ ص ٢٧٢ ، Goitein. Studies on Islamic. Hist. & Inst., P. 307

حمولة ، وكان الفاطميون يقيمون فيها أبراجا وقلاعا مربعة للدفاع والهجوم [١].

٢ — الحراريق : أو الحراقات — جمع حراقة [٢] — وهى مراكب حربية كبيرة وكانوا يحملون فيها مكاحل البارود [٣] ، والعرادات [٤] — والمنجنيقات [٥] التى يرمى فيهـــا النفط المشتعل على الأعداء . [٦] وكان بالحراقة مائة مجداف فقط بينما الشينية تسير بمائة وأربعون مجدافا [٧] .

٣ — الطريدة : « Tarida » — جمعها طرائد — ، وهى السفينة

---

(١) Aly F. : Muslim Nav. Organisation, P. 131 - 132
وعبادة : سفن الأسطول الاسلامى ص ٤ ، سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ص ٣٥٢ — ٣٥٣ .

(٢) Aly, F. : Op. Cit., p. 132 - 134.

(٣) مكاحل البارود : هى المدافع التى تقذف بقذائف مشتعلة بالنفط . « وحالها مختلف فبعضها يرمى عليها بأسهم عظام تكاد تخرق الحجر ، وبعضها يقذف عنه ببندق زنة عشرة أرطال بالمصرى ما يزيد إلى مائة رطل » . انظر القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١ ص ٢٧٦ (ط . ١٣٣٢ هـ) ، سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ص ٢٠٥ .

(٤) العرادات : سلاح قتالى تتسلح به السفينة . راجع عبادة ص ٥ .

(٥) المنجنيق : آلة خشبية ذات دفتان قائمتان بينهما سهم طويل ، رأسه ثقيل ، وذنبه خفيف ، ما أصاب شيئاً إلا هلكه ، ويلحق بالمنجنيق اللوالب والحبال التى يجذب بها . وقد أخذه العرب عن الفرس بعد الاسلام كما عرفه اليونانيون والفينيقيون والاسرائيليون قديما . انظر عبادة : سفن الأسطول الاسلامى ص ٥ حاشية ٣ .

(٦) عبادة : المصدر السابق ص ٥ .
Aly F. : Muslim Nav. Org., P. 134

(٧) جورجى زيدان : التمدن الاسلامى جـ ١ ص ١٦١ .

الخاصة بحمل خيول الأسطول وأكثر ما يحمل بها أربعون فرسا ، وهى تستخدم فى البحر المتوسط (١) .

٤ — الطرادة : جمعها طرادات ، وهى سفينة حربية صغيرة الحجم سريعة الحركة والجرى غير مدرعة . يقول عنها ابن مماتى عند كلامه على أسطول المنصور الفاطمى « ومنفعة المسلمين به أشهر من أن تذكر ، وأكثر من أن تحصر » ، ثم يقول والطراد من سفن البحر المتوسط ، ولا يزيد طولها على سبع أذرع ، — وعرضها ذراعان ونصف ذراع (٢) .

٥ — الشلندى (٣): وجمعها شلنديات . وهى مركب حربى كبير مسطح ، يستعان بها فى حمل المتاد والجند . وكانت الشلندية من قطع الأسطول الإسلامى عامة والفاطمى بصفة خاصة (٤) . يقول عنها ابن مماتى : « إن الشلندى مركب مسقف تقاتل الغزاة على ظهره ، وجذافون يجذفون تحتهم ، واستعملها العرب (٥) وكان الأسطول الفاطمى يتكون من قطع حربية أخرى مثل سفينة « الغراب » ، سميت بذلك لتشابه مقدم السفينة أو رأسها برأس الغراب ، وكانت الغراب تسير بالقلع والمجاديف ، فيوجد فى كل مركب من هذا النوع

---

(١) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ١١٢ .

(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص٣٣٩ ، سعاد ماهر : البحرية فى مصر . ص ٣٥٣ .

(٣) تعـــرف الشلندية فى اللاتينية باسم Chalandium ، ويطلق عليها الروس Chelando أما عند الإيطاليـــون فتسمى Scialando والفرنسيون Chaland وقد حرف العرب الاسم إلى صندل ، واستخدموا هذا الاسم على سفن نقل البضائع بعد ذلك . راجع عبادة : نفس المصدر ص ٦ .

Aly, F. : Muslim Sea-Power, P. 130.

(٤) ابن مماتى : المصدر السابق ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .

(٥) سعاد ماهر : المصدر السابق ص ٣٥٢ .

١٨٠ مجدافا ، وتستخدم في حمل الغزاة(١). وهناك أيضا في الأسطول الفاطمي أنواع مساعدة مثل الشباك، والفلائك، والقوارب ، والحالات ، والخزيرات (أو الجزيرات) — أو الدوامة — وهذه كثيرا ما كانت تقوم برحلات بين المغرب وصقلية (٢) .

وصفوة القول أن الفاطميين أدركوا وهم بالمغرب أن بقاء دولتهم واستمرار قوتها يكمن في وجود أسطول قوي يرسوا على سواحلها لحمايتها ، ولينطلق من قواعده في المهدية وسوسة والمنصورية ولذلك لم يدخروا وسعا في سبيل بناء أسطول قوي لهم ، في حوض البحر المتوسط ، يحقق لهم دره الأخطار الخارجية التي تتعرض لها دولتهم .

* * *

(١) Aly, F. : Muslim Nav. Organ. p. 133

(٢) سعاد ماهر : البحرية في مصر الاسلامية ص ٣٥٢ ، عبادة سفن الأسطول الاسلامي ص ٧ .

Goitein : Studies on Islamic Hist. & Inst p., 305 – 306.

٢ — موقف الفاطميين من الأمويين بالأندلس

ظهر التنافس واضحا بين الفاطميين في بلاد المغرب ، والأمويين في الأندلس ؛ بحكم ما بين دولتيهما من تقارب جغرافي . عاجعل نشاطهما يتعارض ويصطدم في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، في البر والبحر معا [١] . ولم يكن الأمويين بالأندلس راضين عن مجاورة الدولة الفاطمية الشيعية لهم ، بل نظروا إليها على أنها مزاحم خطير لنفوذهم في أسبانيا [٢] . — كما أنهم شعروا أن امتداد سلطان هذه الدولة إلى المغرب الأقصى سيمكنها من توجيه حملاتها لغزو أسبانيا الإسلامية [٣] .

أما فيما يتعلق بالفاطميين ، فإنهم واصلوا تنفيــــذ مخططهم ضد الدولة الأموية في الأندلس ، فعملوا على إخضاع المغرب الأقصى لنفوذهم ، وهاجموا — تنفيذا لذلك — صالح بن سعيد أمير نا كور [٤] ، الذي كان على علاقة طيبة مع أمويي الأندلس . غير أن عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموي بالأندلس ، لم يستطع أن يمده بقوات تعاونه في التصدي للزحف الفاطمي على بلاد المغرب الأقصى [٥] .

وليس من شك في أن كلا من الفاطميين والأمويين حاول اجتذاب البربر

---

(١) سعيد عاشور : أوربا في العصور الوسطى ج ١ ص ٢٣٧ .

(٢) النصولي : الدولة الأموية في قرطبة ج ١ ص ١١٣ .

(٣) Hassen, I. : The Relations Between the Fatimids & Umayyads In Spain, p. 55.

(٤) نا كور : مدينة في ريف المغرب الأقصى ، في المنطقة المعروفة باسم « مزمّة » (Mazama) ، واتخذها الصنهاجيون حاضرة لهم ، حتى أخذها منهم مصالة « بن حبوس » القائد الفاطمي سنة ٣٠٨ هـ ، انظر ، سرور : الدولة الفاطمية في مصر ص ٢٦ .

(٥) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ١٨٣ .

إلى ناحيته . وكان من اليسير على أمير الأندلس اجتذاب قبيلة زناتة إليهم ، بينما استمال الفاطميون قبائل صنهاجة وكتامة . فساعد «عبد الرحمن الناصر» ، موسى بن أبي العافية ، الذي خلع طاعة الفاطميين بالمغرب الأقصى ودخل في طاعة الناصر الأموي (١) ، وكان قد بعث إليه يطلب محالفته سنة ٣١٩ هـ ، مقابل أن يستميل الناصر إليه أهل العدوة المجاورين له (٢) . وفي ذلك يقول ابن خلدون : « ثم انتقض موسى بن أبي العافية ، عامل فاس والمغرب ، وخلع طاعة الشيعة ، وانحرف إلى الأموية من وراء البحر (أي الأمويين بالأندلس) وبث (أي نشر) دعوتهم في أقطار المغرب » (٣) .

ولما علم عبيد الله المهدي بدخول موسى بن أبي العافية في طاعة عبد الرحمن الناصر ، عول على محاربته . فأرسل جيشا إلى المغرب الأقصى جعل قيادته لحميد بن يصال ، عامله على تاهرت ، فأوقع الهزيمة بموسى بن أبي العافية . ودخل الجيش الفاطمي مدينة فاس سنة ٣٢١ هـ ، وأعيدت الدولة إلى الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي ، لكنها لم تلبث أن أقيمت بعد وفاته لعبد الرحمن الناصر الأموي (٤) .

وعلى الرغم من بغض الأمويين للأدارسة العلويين . إلى أنهم كانوا

---

(١) السلاوي : الاستقصا جـ ١ ص ٨١ . النصولي : الدولة الأموية في قرطبة جـ ١ ص ١١٣ ، سرور : الدولة الفاطمية في مصر ص ٢٧ .

(٢) ابن عذاري : البيان جـ ١ ص ٢٨٢ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وحضارتهم في الأندلس ص ٢٨٧ .

(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٣٩ — ٤٠ وسرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٢٠ .

(٤) سرور : المصدر السابق : ص ٢٢٠ وسعيد عاشور : مصر العصور الوسطى ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

يقربونهم ليستغلوهم فى محاربة الفاطميين من جهة ، ومد نفوذهم فى بلاد المغرب من جهة أخرى (١) .

وهكذا استمال الناصر إليه كل ثائر على الفاطميين من البربر بشمال افريقية فاعترف بسيادته « محمد بن الخزر » زعيم قبيلة « مغراوة » ومال إليه ابن أبى العافية ، زعيم مكناسة (٢) .

أصبح موسى بن أبى العافية ، بتحالفه مع عبد الرحمن الناصر الأموى ، خطراً يهدد الفاطميين فى بلاد المغرب الأقصى (٣) . ولذلك عهد الخليفة عبيد الله المهدى ، إلى ابنه وولى عهده أبى القاسم سنة ٣١٥هـ ، بالعمل على توطيد سلطته فى هذه البلاد ، فسار إليها واستطاع أن يعيد للفاطميين كثيرا من نفوذهم . وكان المهدى يعتبر عمل ابنه « أبى القاسم » فى المغرب جهادا فى سبيل الله ، ويتجلى ذلك من قوله : « اللهم أنك تعلم أنى ما أردت بإخراجه إلى المغرب إلا رضاك ، ونصرة دينك ، وإذلال أعدائك » (٤) .

لم تنته الصعوبات التى واجهت الفاطمين فى المغرب الأقصى عند هذا الحد ، بل أن عبد الرحمن الناصر — الخليفة الأموى بالأندلس — أخذ على عاتقه إثارة قواد الفاطميين أمثال : « حميد بن يصال » صاحب تاهرت ، « ويعلى ابن محمد الزناتى » . وبذلك صارت مدينة قرطبة فى عهد الناصر الأموى مركزا للكيد والتآمر على الدولة الفاطمية وخلفائها » (٥) كما نجح عبدالرحمن

---

(١) حسن إبراهيم : المعز لدين الله ص ٣٨ .

(٢) النصولى : الدولة الأموية فى قرطبة جـ ١ ص ١١٣ .

(٣) السلاوى : الاستقصاء جـ ١ ص ٨١ .

(٤) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ١٩٧ ، حسن إبراهيم : الدولة الفاطمية ص ٨٧ .

(٥) حسن إبراهيم : عبيد الله المهدى ص ٢٣٤ — ٢٣٥ ، السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٨٨ .

الناصر الأموى فى إشغال الفاطميين عنه ومنعهم من النزول على شاطىء أسبانيا الجنوبى (١) . وفضلا عن ذلك فإنه أمد « ابن كيداد » (٢) الخارج على الفاطميين بمساعدات يسرت له الاستمرار فترة طويلة فى ثورته (٣) .

أما فيما يتعلق بالفاطميين فإنهم عمدوا منذ أقاموا خلافتهم فى افريقية إلى نشر دعوتهم فى الأندلس . فبثوا عيونهم ودعاتهم بها لتقصى أحوال هذه

---

(١) محمود مكى : التشيع فى الأندلس ص ١٢١ (مقال بمجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد) والسيد عبد العزيز سالم : المصدر السابق : ص ٢٨٨ .

(٢) هو أبو يزيد مخلد بن كيداد الخارجى ، من قبيلة زناتة البربرية . نشأ فى توزر . وهو من الأباضية ورحل إلى تاهرت عاصمة بنى رستم واعتنق مذهبهم . بدأ دعوته سنة ٣٠٣ هـ . وجاهر بعدوانه للفاطميين سنة ٣١٦ هـ ، وظل يدعو الناس ١٦ عاماً حتى كثر أتباعه ، وقويت شكوته فدعا للخليفة عبد الرحمن الناصر الأموى بالأندلس .

وسمى بصاحب الحمار لأنه كان يركب حماراً فى تنقلاته . وكان يظهر الزهد والتقشف مما ألف قلوب الناس حوله ، وساعده ذلك على الصمود فى وجه الخلافة الفاطمية طويلا ، إلى أن تغلبت عليه القوات الفاطمية ، أيام خلافة المنصور الفاطمى سنة ٣٣٦ هـ ، فهزمته بعد أن انفض أتباعه من حوله . وبذلك انتهت ثورة ابن كيداد بهزيمته وأسره ثم موته فى شهر المحرم سنة ٣٣٦ هـ ، متأثراً بجراحه التى كُلِم بها خلال معاركه ضد قوات المنصور الفاطمية . أنظر ابن الأثير جـ ٨ ص ١٦٥ — ١٧٣ والمقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٠٩ — ١٢٥ — وسيرة الأستاذ جوذر ص ١٥٨ حاشية ٣٦ ، Ency. of Islam, Art, : (Abu—Yazid) by R. Basset & Art : (Al—Kaim) by : Sobernheim.

(٣) المقريزى : اتعاظ ص ٥٤ — ٥٥ وابن الأثير جـ ٨ ص ١٦٧ ، ١٥٠ — ١٥٨ .

البلاد (١) ، وكان يقوم بتلك المهمة دعاتهم وجواسيسهم متنكرين فى زى التجار أو طلاب العلم أو المتصوفة (٢) ، من أمثال : « أبو جعفر هارون البغدادى » الذى عاش أيام الخليفتين المهدى والقائم ، والرحالة الجغرافى « ابن حوقل النصيبى » (٣) (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م) .

غير أن نجاح الفاطميين فى هذا السبيل كان محدودا ، وذلك نظرا لما كان لمذهب الإمام مالك — فى الأندلس — من قوة متأصلة عند أهل تلك البلاد ، وإن كان ذلك لم يحل دون ضم بعض الشخصيات الأندلسية إلى جانب الفاطميين مثل : (٤) القائد « على بن حمدان الجذامى » ، الذى بذل جهدا كبيرا فى صد وإخماد ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد الخارجى (٥) .

وليس من شك فى أن قيام الدولة الفاطمية فى إفريقية ، ونشاط دعاتها فى نشر مذهبهم ، أصبح يمثل خطرا يهدد كيان الدولة الأموية فى الأندلس . ولم يغفل عبد الرحمن الناصر هذا الخطر ، فعمل على التصدى للفاطميين وأطماعهم بتكوين أسطول قوى بلغ عدد قطعه أواخر أيام الناصر الأموى مائتا قطعة حربية لصد هجمات الفاطميين عن الأندلس . وفى نفس الوقت عمل على جذب أنصار له من قبائل زناتة المعادين للفاطميين فى المغرب (٦) .

---

(١) Hassan I, : The Relations Between the Fatimids..., P. 65.

(٢) أحمد مختار العبادى: سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ص٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٨٧ .

(٤) العبادى : المصدر السابق ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٥) سيرة الأستاذ جوذر : ص ١٧٥ وحسن أحمد محمود : تاريخ المغرب الإسلامى ص ١٣٢ .

(٦) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢١٩ .

كما أن عبيد الله المهدى ، دعم ثورة ابن حفصون (١) ضد عبد الرحمن الناصر ، هذا فضلا عن جهوده فى نشر المذهب الفاطمى فى الأندلس ، التى حققت بعض النجاح . إذ تكونت للفاطميين فى الأندلس سرا مدرسة شيعية كان رئيسها « ابن مسرة القرطبى » (٢٧٠ — ٣١٩هـ) (٢) . ولا غرو فإن الفاطميين لم يتركوا وسيلة لجذب أنصار لهم بالأندلس ، إلا اتبعوها (٣) .

وكانت الحكومة الأموية بالأندلس تعمل من ناحيتها على إضعاف النفوذ الفاطمى فى بلاد المغرب وعرقلة امتداده إلى الأندلس . فأنفذت وسطاءها إلى المغرب الأقصى ، لموافاتها بأخبار هذه البلاد حتى يتيسر لها وضع خطتها لمجابهة الفاطميين (٤) . كما عقد عبد الرحمن الناصر الأموى محالفات مع أعداء الخلافة الفاطمية (٥) ، مثل : « هوغ » « Hugh » أمير بروفانس ، الذى كان

---

(١) زعيم هذه الثورة هو عمر بن حفص (أو حفصون) — بن عمر بن جعفر بن شيتم بن دميان بن فرغلوش بن أذفونش — وهو أول من شق عصا الطاعة على أمويى الأندلس . فبدأ بثورته من سنة ٢٧٠ هـ ، فى حصن ببشتر — (من حصون رية وبينه وبين قرطبة ٣٠ فرسخا أى ٩٠ ميلا تقريبا) — ثم استفحل أمره ودانت له حصون الأندلس كلها . وكان جيشه يقدر فى إحدى غاراته بنحو ٣٠ ألف . ويقال أنه تنصر سنة ٢٨٦ هـ . وكان كلما شعر بضعف فى قوته أمام خصومه من بنى أمية بالأندلس أظهر الطاعة لهم . وظل رغم هذا ثائراً عليهم حتى مات فى عهد عبد الرحمن الناصر سنة ٣٠٥ هـ (٩١٨ م) وقد استغل المهدى ثورته فدعمه فيها ضد عبد الرحمن الناصر . أنظر الزركلى : فهرس الأعلام جـ ٥ ص ٢٠٢ — ٢٠٣ — وحسن ابراهيم : الإسلام السياسى جـ ٣ ص ٢٩٢، ٢٩٥ وأنظر أيضاً :
Dozy : Moslems in Spain, p., 261 — 266.

(٢) حتى : تاريخ العرب جـ ٢ ص ٦٢٠ .

(٣) النصولى : الدولة الأموية فى قرطبة جـ ١ ص ١٠٤ — ١٠٥ .

(٤) Hassan, I. , The Relations Between. . . P. ,72.

(٥) عاشور : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٢٨ .

كان حانقا على الفاطميين لغارتهم على ميناء جنوة . كما عقد معاهدة سنة ٣٤٤هـ مع الامبراطور البيزنطى قسطنطين الثامن ، الذى عز عليه استيلاء الفاطميين على جزيرة صقلية ، واتخاذهم إياها قاعدة فى غزوهم شواطىء وموانى قلورية وجنوبى إيطاليا البيزنطية ، فضلا عن غزوهم موانى أسبانيا الإسلامية مثل « المرية » (١) .

اتخذ العداء بين الفاطميين والأمويين فى الأندلس ، فى عهد المعز لدين الله صورة جديدة قوية ، ففى سنة ٣٤٤هـ هاجمت إحدى السفن الأندلسية ، سفينة فاطمية صغيرة فى البحر على قصبة من جزيرة صقلية (٢) ، كانت تحمل رسولا من قبل الحسن بن على بن أبى الحسن الكلبى والى هذه الجزيرة ، وأغرقها (٣) . ومع أن هذا الحادث ليس مهما أو خطيرا فى حد ذاته ، إلا أن المعز لدين الله الفاطمى رأى أن يبرهن لعبد الرحمن الناصر الأموى على مدى قوته البحرية . فأمر واليه على صقلية بأسطول ليلحق بالسفينة الأموية ، فلما وصل المرية هاجم مرساها ، ثم دخلت قواته المدينة وعاثوا فيها نهبا وفسادا ، وعادوا بعد ذلك إلى المهدية (٤) .

ويصف أبو حنيفة النعمان المغربى ذلك الهجوم المفاجىء الذى قام به الأسطول الفاطمى فى قوله (٥) : « وجاء حسن بن على (بن أبى الحسن الكلبى) فى مراكبه . وكانت قليلة العدد ، وإنما خرجت فى طلب مركب واحد ، فوهب الله لوليه الظفر ، فاستولى أسطوله على أساطيل الأموى ، فأضرمها

---

(١) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

(٢) سرور : المصدر السابق ص ٢٢٠ .

(٣) النعمان : المجالس والمسايرات جـ ١ ورقة ٢٢٥ « نسخه مصورة بجامعة القاهرة رقم ٢٦٠٦٠ » .

(٤) النعمان : المصدر السابق جـ ٢ ورقة ٢٦٤ — ٢٦٧ .

(٥) النعمان : المصدر نفسه جـ ٢ ورقة ٢٦٧ — ٢٦٨ .

ثارا وغادرها بأسرها رمادا ، ولم يعرضوا لمن بقى ممن استسلم منهم بمكروه ، وقتلوا من ناصبهم أولا (أى من اعترض هجومهم ودافعهم فى ميناء المرية ، فضلا عمن قاموا بمهاجمة المركب الفاطمى القادم من صقلية) ، وأحرقوا المركب الذى صنع أهله ما صنعوه فيما أحرقوا ، ولم يكن أمير المؤمنين — المعز لدين الله — أمرهم بغير ذلك ، فانصرفوا سالمين غانمين ، لم يزد (لم يصب) أحد بسوء ، وحل بالأموى الداهية ، واضطربت عليه البلد (الأندلس) وخاف خوفا شديدا » .

وكان لذلك الهجوم المفاجىء ، الذى قام به الأسطول الفاطمى أثر بالغ فى نفس عبد الرحمن الناصر[1]. فأمر بلعن الفاطميين من المنابر بالمساجد ، ثم طلب فى العام التالى (أى ٣٤٥هـ / ٩٥٦م) من « غالب » قائد أسطوله تجريد حملة بحرية كبيرة ، يتجه بها إلى ساحل شمال أفريقيا ، وتهاجم مدينة سوسة[2] ويذكر ابن عذارى أن أسطول عبد الرحمن الناصر كان يضم ستين سفينة حربية مجهزة ، وقد هاجم مرسى الخزر ، ودمر كل منطقة سوسة[3] .

لم تؤد هذه الحملة إلى إضعاف نشاط الفاطميين الحربى فى حوض البحر المتوسط ، بل زادت من حدة الصراع بينهم وبين الأمويين فى الأندلس . فأمر « المعز لدين الله الفاطمى » — رداً على هذه الغارة وتحرزا من مثلها

---

(١) حسن ابراهيم : المعز لدين الله ص ٤٠ .

(٢) Hassan, I., The Relations Between the Fatimids...; P. 59.

(٣) ابن عذارى : البيـــان ج ٢ ص ٢١٨ وحتى : تاريخ العرب ج ٢ ص ٦٢٠ ٦٢٢ ، وعبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٢٨٨ — عن مقال ليفى بروفنسال :

La Politica Africana de Abd-El Rahman III, Fasc. 2, Vol., XI.

بمجلة الأندلس ، العدد ١١ ، المجلد الثانى (١٩٤٦) .

مستقبلا — بأن يكون العساكر فى كل مرسى بطريق الأندلس » . ولذلك فان الأسطول الأموى الأندلسى لم يستطع تحقيق ما كان يرمى إليه ، إذ خرج إليه أهل تلك الناحية ، فقتلوا منهم عدداً كثيراً من أفراد قواتهم وأوقعوا بهم الهزيمة ، وغنموا ما كان معهم من سلاح وبعثوا بغنائمهم إلى الخليفة الفاطمى المعز لدين الله[١] .

وواصل الأمويون فى الأندلس سياستهم العدائية ضد الفاطميين ببلاد المغرب ، فعمدوا إلى إثارة بعض قبائل البربر وزعمائها من زناته ومغراوة ومكناسة ، فأعلنت هذه القبائل خروجها على طاعة المعز لدين الله ، وأقامت الدعوة لعبد الرحمن الناصر من منابرهم[٢] . ولذلك اضطر الخليفة المعز إلى إرسال قائده « جوهر الصقلى » إلى المغرب الأقصى لإخضاع القبائل المتمردة ، والقضاء على نفوذ بنى أمية هناك .

وفى أوائل سنة ٣٤٧ هـ سار جوهر الصقلى على رأس جيش كبير ، كان يشترك فيه عدد كبير من رجاله المغاربة ، مثل « زيرى بن مناد الصنهاجى » وقصد « تاهرت » فأخذها ، وقتل واليها « يعلى بن محمد الزناتى » ، الذى عرف بخروجه على طاعة الفاطميين وانحاز إلى عبد الرحمن الناصر[٣] . ثم استأنف مسيرته نحو « فاس » ، فامتنعت عليه ، فاتجه نحو سجلماسة[٤] ، التى كان قد استبد بها رجل يعرف « بابن واسول » ، الذى تلقب « بالشاكر بالله » وخلع عليه الناس لقب « أمير المؤمنين » ، كما ضرب السكة باسمه . لكن جوهر الصقلى تعقب هذا الرجل ، حتى أسره واستعاد بذلك الفاطميون

---

(١) Hassan, I; The Relations Between . . . , p., 59.

(٢) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٢٢ .

(٣) السلاوى : الاستقصا جـ ١ ص ٨٦ وسرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ٣١ .

(٤) سرور : الدولة الفاطمية ص فى مصر ٣١ .

سيطرتهم وسيادتهم على سجلماسة ، وتخليداً لهذه الحادثة ضرب المعز بها عملة نقش عليها اسمه[1].

ونستطيع أن نقول بأن جوهر الصقلى وإن كان قد نجح فى إضعاف هذه القبائل المتمردة ، إلا أنه لم يتمكن من القضاء نهائيا على كل الموالين للأمويين فى المغرب الأقصى . فظلوا بذلك شوكة فى جنب الدولة الفاطمية ، ومصدرا للاضطراب والتمرد على سيادتها فى المغرب[2] . ففى سنة ٣٥٩ هـ ثار أحد زعماء زناتة على الخليفة المعز لدين الله ، الذى خرج إليه بنفسه لإنهاء تمرده ، فلما وصل المعز إلى مدينة «باغاية» — بأقصى أفريقية بين مجانة وقسنطينة[3] — هرب هذا الثائر من وجه المعز فبعث إليه المعز قائده زيرى بن مناد ، الذى قبض عليه ، وأخمد ثورته وعاد هذا الثائر إلى طاعة الفاطميين[4] . لكن ذلك لم ينه الاضطراب ، الذى ظل سائداً فى بلاد المغرب الأقصى ، حتى بعد انتقال الفاطميين إلى مصر[5] .

لم يلبث عبد الرحمن الناصر — إزاء الأخطار الخارجية التى أحدقت بدولته من ناحية الفرنجة ، ومسيحيي أسبانيا — أن حاول التودد إلى الخليفة الفاطمى « المعز لدين الله » فى محاولة منه لتخفيف حدة الصراع بينه وبين الفاطميين ، فأنفذ أحد رسله إلى الخليفة الفاطمى « المعز لدين الله » بمحاضرة

---

(١) النعمان: المجالس والمسايرات جـ ١ ورقة ٣٢٧ — ٣٢٨ وسرور: الدولة الفاطمية فى مصر ص ٣١ — ٣٢ .

(٢) أحمد مختار العبادى : سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ٢٠٨ « مقال منشور بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، أسبانيا » .

(٣) ياقوت : معجم البلدان مادة « باغاية » .

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٨ ص ١٩٧ — ١٩٨ ، وسرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ٢٢ .

(٥) سرور : نفس المصدر ص ٣٢ .

الخلافة الفاطمية بالمغرب[١] ، ومعه كتاب إلى بعض رجال الخليفة الفاطمى وخواصه ، يطلب فيه الموادعة والصلح ، فرفض المعز إجابة طلبه ، وقال لرسول عبد الرحمن الناصر . . . . « ما أنا بالمداهن فى دين الله ، ولا بالراكن بالمودة إلى أعداء الله ، ولا بالمخادع فى أمر من أمور الله عز وجل . . . ارجع بجوابى هذا إليه . فما له عندى سواه . ومالى من الأمر من شيء . إن الأمر كله لله عليه توكلت وإليه أنيب . فإن حركنى الله إليه وقذف فى قلبى حربه وغزوه فلا شك أن الله عز وجل أراد قطع دابره ، واستئصال شأفته وتطهير الأرض من رجسه . وحسم أيامه ومدته . وألا يقذف ذلك فى قلبى ويصرف إلى من سواه وجهى ، فلأمر هو بالغه فيه وإملاء (إمهال) هو محتج به عليه ، ومدة سبقت فى علمه له . قال الله عز وجل: (ولا تحسبن الذين كفروا إنما نملى لهم خيرا لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثما) ، فلينتظر أحد الأمرين ، وليتوقع وجها من الوجهين »[٢] .

كان من الطبيعى بعد أن رفض الخليفة المعز لدين الله عرض الهدنة الذى قدم به رسول عبد الرحمن الناصر ، أن يحتاط لما عساه يحدث من تهديد لشواطىء الدولة الفاطمية فى المغرب ، وأن يزيد اهتمامه بالأسطول والقوات البحرية . لذلك صارت السفن الحربية الفاطمية تجوب مياه الحوض الغربى للبحر المتوسط ، لمراقبة ورصد تحركات أسطول الأمويين بالأندلس فى مياه هذا البحر[٣].

---

(١) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٢١ .

(٢) النعمان : المجالس والمسايرات جـ ٢ ورقة ٢٧٥ — ٢٧٦ « نسخة حيدر آباد/دكن » أو جـ ١ ورقة ٢٣٠ — ٢٣٤ « مخطوط جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٦٠ » وسرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٢١ .

(٣) سرهنك : حقائق الأخبار جـ ١ ص ٤٠٤ ، وحسن محمود : تاريخ المغرب ، ص ١٥٩ .

على أنه من المرجح أن عبد الرحمن الناصر إنما لجأ في طلبه الصلح مع الفاطميين إلى أسلوب المناورة . فلم يشأ أن يصارح الفاطميين مباشرة برغبته في المهادنة ، وكان يرمى من ذلك إلى كسب الوقت حتى يتم استعداده ويقضى على الصعاب ، التي تواجهه . وقد أوضح أبو حنيفة النعمان ذلك بقوله (١) : أن الناصر (عبد الرحمن الناصر) حين رأى هزيمة الروم ، وما حل به هو من نكبات ، وخاف الوقعة به ، دس رسولا من قبله ، وكتب كتابا على لسان بعض رجاله ، إلى بعض رجال أمير المؤمنين — المعز لدين الله — في الموادعة والصلح ، وكف الحرب ، ويذكر ما يتوقع في ذلك من سفك دماء المسلمين واشتغال بعضهم ببعض عن غزو المشركين(٢) » .

ولا شك أن رد المعز لدين الله الفاطمى ، على رسالة عبدالرحمن الناصر ، ينم عن ثقته بنفسه وبقوته ، إذ فند مزاعمه ، ولم يسمه بلقب الخلافة ، كما استنكر اتخاذه لقب أمير المؤمنين ، وقال لرسول عبد الرحمن الناصر إليه : « إنا أهل ذلك دونه ودون من سواه » .

على أنه من المناسب هنا أن نذكر نبذاً مما أورده أبو حنيفة النعمان المغربى ؛ حول رسل الناصر ورسائله إلى المعز رغبة في مصالحته ، فقد جاء فيها(٣) : « كيف جاز له (أى المعز) أن يلعننا (نحن بنى أميـة) ، ونحن

---

(١) النعمان : المجالس والمسايرات ج ٢ ورقة ٢٧٢ — ٢٨١ « حيدر آباد/دكن/الهند » أو ج ١ ورقة ٢٣٠ ص ٢٢٣ « نسخة رقم ٢٦٠٦٠ بجامعة القاهرة) .

(٢) النعمان : المصدر السابق ج ٢ ورقة ٢٧٢ ويقابلها ج ١ ورقة ٢٣٠ - ٢٢٣ « نسخة جامعة القاهرة رقم ٣٦٠٦٠ »

Hassan, I. : The Relations.. , p. 60.

(٣) النعمان : المصــــدر السابق ج ١ ورقة ١٥٢ — ١٥٦ « حيدر آباد/ الدكن » .

مسلمون . . . وما الذى أوجب لعننا » ، ثم قال المعز معقباً : «أفسمعتم أجهل من هذا الشقى ، كأنه لم يسمع قول الله عز وجل (ألا لعنة الله على الظالمين) وهو أحدهم ، وقوله عز وجل (ومن يتولهم منكم فإنه منهم) ؛ وقول الله عز وجل (والشجرة الملعونة فى القرآن . . . الآية) ، والشجرة هنا بنو أمية » . إلى غير ذلك مما قاله الخليفة «المعز لدين الله » لجلسائه ، ولرسول عبد الرحمن الناصر . وكلام المعز لدين الله هذا يعكس لنا عمق واستحكام العداء الفاطمى الأموى .

استغل البيزنطيون العداء الذى تجلى بين الفاطميين والأمويين بالأندلس، وصراعهم المرير فى حوض البحر المتوسط ، فراسلوا الفاطميين رغبة فى محالفتهم . وقد أخبرنا النعمان عن ذلك العرض البيزنطى لمحالفة الفاطميين ، فى سياق حديثه عن المعز لدين الله ، فقال(١) : وجاءت أساطيل الروم من القسطنطينية، ومراكب بنى أمية بالأندلس، فجمع أمير المؤمنين،المعز لدين الله مجلسه، وعرفهم ذلك العرض الرومى وأن البيزنطيين سألوه عقد هدنة إلى مدة طويلة ، على أن ينصرفوا عنه (أى عن المعز والدولة الفاطمية بمقتضى هذا الصلح) ، وقال (أى المعز) ، لمجلسه : ما ترون فى ذلك ؟ . . . فقالوا الذى نراه نحن مهادنة الروم فما علينا من ذلك . (أى فليس فى ذلك بأس علينا ، بل سيكون لنا ميزة على عدونا الأموى لأنه سيمكننا من) أن نصرف وجوهنا إلى هؤلاء (أى إلى بنى أمية) بجماعتنا (أى بكل قواتنا وإمكانياتنا) .

على أن المعز لدين الله كان يرى غير رأيهم ، فلم يوافقهم على مهادنة الروم من وراء ظهر عبد الرحمن الناصر ، واستمرار مناصبة الأمويين العداء . وإلا اتهم بما اتهم به هو عبد الرحمن الناصر ، من محالفة أعداء المسلمين ، على إخوانه فى الدين ، وجاء فى رده على مجلسه : « ما كنت بادياً إلا بمن بدأ الله

---

(١) النعمان : المصدر السابق ج ٢ ورقة ٢٦٨ — ٢٦٩ « حيدر آباد » .

تبارك وتعالى ، قال تبارك اسمه (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين) ، وقال (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة)، فهم أقرب إلينا ، وحسبنا استنصارنا بالله على هؤلاء الفسقة من بنى أمية ، استنصارهم بالمشركين إخوانهم فى الدين علينا ، ودخولهم فى جملتهم ، وكونهم فى حزبهم ، وكفاهم بذلك خزية وعارا ، فى دنياهم وأخراهم » . وهذا يعنى أن المعز لدين الله عوّل على مواجهة التحالف البيزنطى الأموى بالقوة الحربية ، فى حوض البحر المتوسط(١) .

استمر عبد الرحمن الناصر — برغم رفض المعز الاستجابة لطلب الصلح معه — يوالى إرسال رسله وكتبه إلى الخليفة الفاطمى ، رغبة فى مصالحته . لكن المعز لدين الله كان يعى تماماً الهدف الذى يرمى إليه الناصر ، من وراء هذه المراسلات وهو كسب الوقت حتى يكتمل استعداد الأمويين البحرى ، فقال المعز : « إنما أراد هذا الفاسق (يعنى عبد الرحمن الناصر) أن يقطع الزمان (يستفيد بالوقت) بهذه المراسلة والمكاتبة بيننا وبينه »(٢) .

وكان المعز لدين الله محقاً فى ظنه لأن عبد الرحمن الناصر كان يعد العدة لمحاربة الفاطميين ، فى نفس الوقت الذى يعرض فيه المهادنة معهم ، حتى إذا استكمل عدته سير قواته لمواجهة القوات الفاطمية سنة ٣٤٦ هـ ، فى البلاد الخاضعة لسلطان الفاطميين فى المغرب ، فأحرزت النصر عليها ، مما أثار أهل المغرب الأقصى على المعز لدين الله ، الأمر الذى حمله على تجهيز جيش

---

(١) النعمان : المجالس والمسايرات جـ ٢ ورقة ٢٧٠ « نسخة حيدر آباد » ، سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٢٢ .

(٢) النعمان : نفس المصدر جـ ١ ورقة ٢٣٨ « نسخة جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٦٠ » ، سرور : المصدر السابق ص ٢٢١ .

بقيادة « جوهر الصقلى » لاستعادة نفوذه على مدن المغرب ، فاسترد سجلماسة وفاس أوائل سنة ٣٤٧ ، وعجز عن أخذ سبتة وطنجة[١] .

لم يكتف عبد الرحمن الناصر الأموى بمناهضة الفاطميين فى المغرب الأقصى ، بل سير حملة بحرية سنة ٣٤٧ هـ لمحاربتهم ؛ فى الوقت الذى اشتبك فيه الأسطولان البيزنطى والفاطمى فى قتال على مقربة من صقلية[٢] . وفى ذلك يقول النعمان[٣] : « وأقبل أسطول الروم ، فلقى أسطول أمير المؤمنين (المعز لدين الله) دون صقلية ، وأقبل أسطول بنى أمية لميعاد المشركين (أى البيزنطيين) ، ففتح الله لوليه (أى المعز لدين الله) على الروم فهزمهم فى البحر ، وقتل رجاله (أى رجال المعز) منهم (أى من الروم) خلقا عظيما وولوا (أى الروم) هاربين بين يدى أسطوله إلى مجاز رية (ريو Riggio) — بين صقلية وقلورية — ليحموا بلدهم ، وقد تعقب الأسطول الفاطمى ، الأسطولَ البيزنطى ، فأعمل فى جنوة القتل والسلب ، كما قام بحرق المدن والكنائس البيزنطية فى قلورية ، وبلغ غاية الأمل فيهم من النكاية » .

---

(١) السلاوى : الاستقصاء جـ ١ ص ٨٦ — ٨٧ وسرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٢٢ .

(٢) وكان مما أدى إلى هذه الموقعة سنة ٣٤٧ هـ . قيام الروم بالتحالف مع أمويى الأندلس لتكوين جبهة قوية ضد الفاطميين فى حوض البحر المتوسط بعد فشل هجومهم الذى شنوه سنة ٣٤٥ هـ . على صقلية وارتدوا بعده إلى قلورية مهزومين مما ترتب عليه نقض الهدنة السابق إبرامها بين والى صقلية الفاطمى والبيزنطيين منذ سنة ٣٤١ هـ . ليحل محلها روح العداء وتبدأ الغارات من كلا الجانبين على بلدان الجانب الآخر ، انظر : ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٨١ « ضمن حوادث سنة ٣٣٦ » ، وسرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٣٤

(٣) النعمان : المجالس والمسايرات جـ٢ ورقة ١٧٠ — ١٧١ « نسخة حيدرآباد/ الدكن » .

وهكذا أخفق الأمويون والبيزنطيون مجتمعين فى إلحاق الهزيمة بالفاطميين (١) . ولم يعد أمام البيزنطيين غير أن يطلبوا المهادنة مع الفاطميين، رغبة فى الحفاظ على سلطانهم المهدد فى قلورية جنوبى إيطاليا (٢) .

وافق المعز لدين الله هذه المرة على قبول الهدنة مع الروم، ورأى أن فى ذلك « صلاحا للدين والمسلمين بعد أن اقدره الله (أى بعد أن نصره الله) عز وجل وأمكنه (ومكنه) منهم » وكان لهذا التقارب البيزنطى الفاطمى أثر بالغ فى نفس عبد الرحمن الناصر ، الذى أيقن وقتها بفشل خططه السياسية والحربية فى إضعاف نفوذ الفاطميين فى المغرب ، او فى حوض البحر المتوسط .. ومن ثم ركز جهوده فى معاودة عرض الصلح والمهادنة مع الفاطميين منذ سنة ٣٤٧ ه إلى أن توفى سنة ٣٥٠ ه ولكن دون جدوى (٣) .

استمر النزاع بين الفاطميين والأمويين فى الأندلس بعد وفاة عبد الرحمن الناصر . فوجه ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ ه) اهتمامه إلى القضاء على نفوذ الفاطميين فى المغرب الأقصى حتى يبعد خطرهم عن الأندلس (٤) . فتحالف مع أمراء زناته واستقدم عدداً منهم سنة ٣٦٠ ه (٥) . كما أرسل حملة بعد سنتين إلى بلاد المغرب الأوسط والأقصى ، وقد تمكنت تلك الحملة من بسط سلطان الأمويين على تلك البلاد، وخرج زعماء زناته من مغراوة

---

(١) حسن ابراهيم : المعز لدين الله ص ٤١ .

(٢) النعمان : المجالس والمسايرات ج ٢ ورقة ٢٧١ - ٢٧٢ « نسخة حيدر آباد » .

(٣) النعمان : نفس المصدر ج ٢ ورقة ٢٧٢ - ٢٨١ .

(٤) حسن محمود : تاريخ المغرب الإسلامى ص ١٤١ .

(٥) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣٢٥ - ٣٢٦ .

ومكناسة على طاعة المعز لدين الله ، وأقاموا الدعوة للحكم المستنصر من منابرهم(١) .

وكان المعز لدين الله يخشى أثناء انشغاله بالعمل على ضم مصر إلى حوزته أن تقوم قوات الأمويين البحرية المعسكرة فى ميناءى سبتة وطنجة بهجوم على بلاد المغرب ، لذلك عزم قبل رحيله إلى مصر سنة ٣٦١ ه ، ليتخذها مقراً لخلافته ، أن يعهد بولاية أفريقية والمغرب إلى « يوسف بلكين بن زيرى ابن مناد الصنهاجى » حتى تقف قبيلته — صنهاجة — أمام تقـدم الأمويين بالأندلس ، فى بلاد المغرب(٢) .

على أن تولية يوسف بلكين على ولاية أفريقية والمغرب لم يؤد إلى معاونة الفاطميين ، على الوقوف فى وجه الأمويين بالأندلس ، فقد آثار تعيين يوسف بلكين غضب منافسه « جعفر ابن على بن حمدون » ، فرحل إلى الأندلس لاجئا إليها ، ومعه أخوه يحى ، حيث رحب بهما « الحكم المستنصر » واعتبرهما سلاحا جديدا يمكن استخدامه ضد الفاطميين وأنصارهم فى المغرب(٣) .

ولم يكن فى مقدور الفاطميين بعد أن استقر سلطانهم فى مصر ، واتخذوها مقرا لخلافتهم ، أن يتدخلوا تدخلا مباشرا فى شئون المغرب ، بينما واصل الأمويون سياستهم فى التدخل السلبى(٤) ، فشجعوا « محمد بن خزر الزناتى » على مناوءة قبيلة صنهاجة حليفة الفاطميين ، كما اقام الأدارسة الخطبة لخلفاء

---

(١) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٢٢ .

(٢) Hassan, I. : The Relations Between the Fatimids & Umayyads In Spain, p. 61 – 62.

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣٢ ، ٨٢ — ٨٤ ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٣ .

(٤) Hassan, I. : Op, Cit , p. 61.

بنى أمية بالأندلس، ليتجنبوا سخطهم، وبذلك امتد النفوذ الأموى إلى المغرب الأقصى، وضعف — تبعا لذلك — النفوذ الفاطمى، حتى أصبح محصورا فى إفريقية والمغرب الأوسط(١) .

أما عن يوسف بلكين (نائب الفاطميين بالمغرب) فإنه لم يكد يباشر شئون إمارته الجديدة حتى أضطربت عليه أوضاع البلاد . وثارت عليه زناته بتحريض من أمويى الأندلس، فهاجمت بلاد المغرب الأوسط ، فاتجه يوسف نحوها وطردها من تلك البلاد ، وخرب تاهرت ، ثم زحف بجيوشه على المغرب الأقصى فافتتح « فاس » وقاتل منافسيه : جعفر ويحي ولدى « على ابن حمدون » اللذين أرسلهما الحكم المستنصر لمحاربته لكنهما هزما ، وقتل جعفر بحيلة دبرها « يوسف بلكين » بينما فر أخوه يحي إلى مصر ، حيث أكرم وفادته الخليفة العزيز بالله الفاطمى (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ) ، واحتفظ به كرهينة يستخدمها إذا ما فكر بنوزيرى فى الاستقلال بأفريقيـــة عن الفاطميين(٢) .

لم تعد بلاد الأندلس فى عهد الأمويين تخشى خطرا فاطميا، بل إن الخليفة « الحكم المستنصر » رأى ألا ينازع الفاطميين السيادة على بلاد المغرب ، وأن يترك هذه المنطقة لحكامها من بنى زيرى وغيرهم(٣) . لكنه لم يلبث أن عدل عن هذا التفكير ، خشية أن يفقد نفوذه ضد أهالى بلاد المغرب فيعودون

---

(١) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٣٢٥ (ط بيروت) وسرهنك : حقائق الأخبار جـ ١ ص ٤٠٤ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٢٢ ، سرهنك : نفس المصدر جـ ١ ص ٢٨٩ .

(٣) العبادى : سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ص ٢١١ :
Hassan, I. : The Relations Between the Fatimids & Umayyads., P. 63.

إلى غزو شواطىء الاندلس . بل أنه دخل فى حرب ، مع بقايا الادارسة ، فى الوقت الذى كان يوسف بلكين مشغولا بضبط الامور فى ولاياته[١] .

لم ينته العداء بين الفاطميين . والامويين بالاندلس ، بعد أن اتخذت الخلافة الفاطمية القاهرة مقرا لها[٢]، يدلنا على ذلك قول الحكم المستنصر للعزيز بالله الفاطمى — الذى أرسل إليه كتابا يسبه فيه ويهجوه — : « قد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك[٣] » (وفى رواية أخرى لهجوناك) .

ومن ناحية أخرى اضطر « يوسف بلكين » إلى انفاذ قواته إلى المغرب الاقصى بعد سنة ٣٦٩ هـ/٩٧٩م ، لوقف تقدم قوات بنى أمية بقيادة « المنصور محمد بن أبى عامر » . غير أن القبائل الموالية للأمويين انسحبت إلى قرب سبتة . قبل وصول يوسف بلكين الذى استولى على فاس وسجلماسة[٤] . وقد لقيت الجهود التى بذلها بلكين بن زيرى فى التصدى لقوات بنى أمية ارتياحا من نفس الخليفة العزيز بالله ، فثبت ولايته على برقة وطرابلس الغرب[٥] .

على أن قوة بنى زيرى — نواب الفاطميين على المغرب — مالبثت أن ضعفت بعد وفاة يوسف بلكين سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٤م) ، مما ساعد قوات

(١) النصولى الدولة الأموية فى قرطبة جـ ١ ص ١٢٦

Hassan, Ibid. , p. 63.

(٢) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٢٨٢ « ط . بيروت » ، سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٢٢ .

(٣) ابن خلكان : وفيات جـ ٢ ص ١٥٢ ، وسرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٢٢ . وقيل عكس ذلك . راجع القيروانى : المؤنس فى تاريخ إفريقية وتونس ص ٦٦ .

(٤) Hassan, I. : The Relations. . , p. 63 – 64

وعنه انظر :

Condé : Hist. of Dominion of Arabs in Spain, Vol. 2, p. 496.

(٥) أحمد العبادى : سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ص ٢٠٤ .

«المنصور بن أبي عامر» — حاجب هشام الثاني (٣٦٦ — ٣٩٩هـ/٩٧٦ — ١٠٠٩م) على الظهور في بلاد المغرب الأقصى. وأصبحت الخطبة تقام للخليفة الأموي من منابر تلك البلاد، بينما شغل الزيريون بمنازعاتهم الأسرية الداخلية. وصارت ولايتهم مقصورة على إفريقية والمغرب الأوسط، بل عجزوا عن مواجهة النفوذ الأموي الزاحف على المغرب من الأندلس(١).

ظل الأمويون بالأندلس ينتهزون الفرص للنيل من الخلافة الفاطمية في مصر. وتجلى ذلك في الثورة التي قام بها رجل يدعى الوليد بن هشام، من ولد المغيرة بن عبد الرحمن الداخل، ويلقب «بأبي ركوة» (٢). نزح إلى برقة واستقر بين قبيلة بني قرة، وأخذ يدعو إلى عمه «هشام المؤيد» الخليفة الأموي بالأندلس؛ وأوقع الهزيمة بجيش الحاكم بأمر الله الفاطمي. واستطاع أن — يستولي على برقة، ثم تطلع إلى الاستيلاء على مصر؛ فسير إليها الحاكم جيشا بقيادة الفضل بن عبد الله الذي أخذ يطارده حتى حدود النوبة؛ حيث ظفر به رئيس ربيعة «أبو المكارم هبة الله»، وانتهى أمر «أبي ركوة» بقتله سنة ٣٩٧هـ(٣).

---

(١) العبادي: سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ٢١٤.

(٢) ابن حجر العسقلاني: رفع الإصر عن قضاة مصر ص ٥٩٦ «آخر كتاب الولاة والقضاة للكندي»، المقريزي: خطط جـ ٢ ص ٢٨٧ «ط. بولاق».

وكان أبو ركوة قد خرج من الأندلس مظهراً التصوف واستقر بين قبيلة بني قرة في برقة. ودعا على المنابر باسم الخليفة الأندلسي هشام المؤيد ولعن الحاكم بأمر الله وآباءه، واستولى على برقة، وانتصر على الجيوش التي وجهها الحاكم لمحاربته، وطاردها سنة ٣٩٦هـ، ٣٩٧هـ. (١٠٠٧م) ثم حذف اسم الحاكم بأمر الله وضرب سكة باسمه «أبو ركوه» واظهر الرفق بالرعية، فكثر اتباعه، لكن أمره انتهى بهزيمته وأسرة. أنظر سرور: سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٢٣.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٤ ص ٢١٥ — ٢١٧ سرور: سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٢٤.

مما تقدم يتبين لنا أن الصراع الفاطمى الأموى فى حوض البحر المتوسط، وصل إلى آخر مراحله فى نهاية القرن الرابع، وأوائل القرن الخامس الهجرى ولم ينتج عنه إلا ضعف وتفكك الجبهة الإسلامية فى الحوض الغربى للبحر المتوسط(١). ذلك أن الزيريين بأفريقية لم يكن فى مقدورهم أن يحتفظوا بالسيادة البحرية فى تلك المنطقة من البحر المتوسط. هذا فضلا عن أن الفاطميين بعد أن اتخذوا مصر مقر الخلافتهم سنة ٣٦٢هـ. ركزوا اهتمامهم على الحوض الشرقى لهذا البحر.

* * *

(١) حسين مؤنس: المسلمون فى حوض البحر المتوسط ١٦٨

٣ - الفاطميون وجزيرة أقريطش (كريت)

كانت جزيرة كريت (اقريطش) خاضعة للعباسيين ، ونظراً لقربها من ولاية مصر ، صارت تابعة لوالى هذه البلاد . وقد استوطنها - منذ أوائل القرن الثالث ، وحتى منتصف القرن الرابع من الهجرة - قوم من مهاجرى الأندلس يعرفون بالربضيين ، الذين ظلوا يقيمون بها مدة قرن ونصف قرن تقريبا [١] ، فى أمن واستقرار ، لم يكن يكدر صفوهم خلالها سوى بعض غارات البيزنطيين ، الذين حاولوا استعادة الجزيرة .

غير أن هذه الغارات ما لبثت أن اشتدت ، وأصبحت أكثر خطورة ابتداء من منتصف القرن الرابع الهجرى ، فتعرضت هذه الجزيرة فى سنة ٣٤٥هـ لحملة بحرية بيزنطية ، حاصرتها وشددت عليها الخناق حتى طلب سكانها من الربضيين النجدة من : الخلفاء العباسيين فى بغداد ، ومن سيف الدولة الحمدانى ، ومن ولاة مصر الاخشيديين[٢] . لكن أحدا من هؤلاء جميعا لم يسارع إلى نجدتهم . لذلك لم يكن هناك بد من اتجاههم إلى الفاطميين بالمغرب ، فأرسلوا إلى المعز لدين الله فى المنصورية يطلبون منه المساعدة والنجدة [٣] .

وكان الفاطميون وقتذاك منشغلين بضبط الأمور فى بلاد المغرب الأقصى ، فلما قدم على « المعز لدين الله » رسول كريت يطلب المساعدة [٤] بعث المعز إلى الوالى الاخشيدى بمصر يطلب منه أن تتعاون قواتهما البحرية فى نجدة

---

(١) حسن ابراهيم : المعز لدين الله ص ٤٦ - ٤٧ .

(٢) Camb. Med. History, Vol. 4, p. 142,

(٣) العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ص ١٠٣ - ١٠٤ الأساطيل العربية ص ١٢١ .

(٤) النعمان: المجالس والمسايرات جـ٢ ورقة ٤٢١، ٤٢٣ «نسخة رقم ٢٦٠٦٠ جامعة القاهرة » .

أهل اقريطش . كما أرسل إلى الامبراطور البيزنطى « رومانوس الثانى » يحذره مغبة إلحاق الأذى بمسلمى كريت أو مهاجمتهم (١) .

وكان المعز لدين الله يرى فى دعوة أهل اقريطش لنجدتهم ، فرصة سانحة لتحقيق أطماعه فى أن تكون له بكريت قاعدة بحرية ، تسهل على الفاطميين مد سلطانهم إلى مصر (٢) . ومن ناحية أخرى ، أيقن أنه بنجدته مسلمى كريت ، الخاضعين لإشراف الاخشيديين فى مصر ، والموالين للعباسيين ، يستطيع أن يجعلهم اتباعا يدينون له بالولاء الدينى والسياسى . كما أراد أن يبين للمسلمين جميعا أن الفاطميين ، وحدهم ، هم القادرون على الأخذ بناصر الربضيين فى كريت .

ويذكر أبو حنيفة النعمان المغربى أنه بعد أن أرسل أهل كريت إلى المعز مركباً فيه رجال من قبلهم ، مع وجه من وجوههم .. يستغيثون به ، ويسألونه استنقاذهم وإعانتهم (٣) . . فإنه أمر بالاستعداد فى أول زمان الإمكان (٤) — أى بأقصى سرعة ممكنة .

وقد وضح رسول كريت للخليفة المعز أهمية الجزيرة بالنسبة للدولة الفاطمية ، وأنها ستساعدهم فى فتح مصر ، وتهدد القسطنطينية عن قرب ، لأن موانى الجزيرة ستصبح قواعد وموانى يأوى إليها ، وينطلق منها ، الأسطول الفاطمى ، هذا فضلا عن غناها (أى كريت) بالمعادن ، والغابات ، مما يساعد على دعم صناعة الأساطيل البحرية للفاطميين (٥) .

---

(١) النعمان : نفس المصدر جـ ٢ ورقة ٤١٦ .
(٢) سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية ص ٩٥ .
(٣) النعمان : المصدر السابق جـ ٢ ورقة ٤١٢ .
(٤) النعمان : نفس المصدر جـ ٢ ورقة ٤١٢ — ٤١٤ .
(٥) النعمان : المجالس والمسايرات جـ ٢ ورقة ٤٢١ .

ولا شك أن المعز لدين الله كان يتوق إلى بسط سيادته على اقريطش ليتخذها قاعدة فى شرق البحر المتوسط . وقد لام المعز الرسول ، الذى وفد إليه من قبل أهل الجزيرة ، على أنهم لم يتصلوا به ويطلبوا نجدته ، إلا بعد أن استفحل الخطر البيزنطى وأحدق بهم ، ووعده فى نفس الوقت بأنه سيساعدهم، كرجل من سلالة النبى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ينظر إلى جميع المسلمين على أنهم رعاياه . وأبقى الخليفة المعز رسول أهل كريت عنده حتى يشهد صدق قوله ، ويكون فى صحبة الأسطول الفاطمى عند اقلاعه لنجدة كريت . وبعث المعز إلى أهل كريت يخبرهم بعزمه على نجدتهم (١) .

أما عن أتصال المعز لدين الله بوالى مصر الاخشيدى — وكان ذلك زمن ولاية أبى الحسن على بن الاخشيد ووصاية كافور الاخشيدى عليه (٣٤٩ — ٣٥٥هـ) (٩٦٠ — ٩٦٦م) — فإن مسلمى الجزيرة كانوا قد سبق أن انفذوا اليه رسولا منهم ، قبل أن يتصلوا بالخليفة الفاطمى « المعز لدين الله » بل أنهم راسلوا من سنة ٣٤٥هـ إلى سنة ٣٤٩هـ الوالى الاخشيدى على مصر وهو أبو القاسم أنوجور بن الاخشيد (٣٣٤ — ٣٤٩هـ / ٩٤٦ — ٩٦٠م) ، لأنهم كانوا من أهل دعوته وتابعون له . أضف إلى ذلك أن كريت كانت ترسل لها مصر كثيرا من المؤن فى ذلك الحين .

وقد أورد النعمان نص الرسالة التى بعث بها المعز إلى حكام مصر الاخشيديين سنة ٣٤٩هـ ، وقد جاء فيها (٢) أن : الله سبحانه قد خولنا من

---

(١) النعمان : المصدر السابق جـ ١ ورقة ٤٢٣ .

(٢) المجالس والمسايرات جـ ٢ ورقة ٤١٧ — ٤٢٠ . وكانت هذه الرسالة التى أرسلها المعز موجهة إلى [أبى الحسن على بن الأخشيد] باعتباره حاكما شرعيا — من الأسرة الإخشيدية — لمصر وإن كان المتصرف الفعلى فى أمور ولاية مصر آنذاك كان هو [كافور الأخشيد] باعتباره وصيا على الحاكم الشرعى لصغر سنه =

فضله . وأمدنا من معونته وتأييده ، بما نرى ، بحوله وقوته ، ونصره لنا ، وإظهارنا على عدونا ، أن نكف أيدى الكفرة ، عما تطاولت إليه من حرب هذا الصقع (البلد أو الاقليم) ، والإيقاع بأهله ، وقد انتهى الينا أنك أظهرت الحركة إلى الجهاد ، وامداد هؤلاء القوم (أهل كريت) بمراكب من قبلك . وأنت لعمرى بذلك أجدر لقربهم منك ، واتصالهم بك (أى تبعيتهم لك) وميرتهم بلدك ، وكونهم وإياك فى دعوة واحدة . ولو أسلمناهم إليك وقعدنا عنهم ، لما كان لك ولاهم علينا حجة فى ذلك . ولكننا آثرنا نصرة أمة جدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم نر التخلف عن ذلك » .

« وقد رجونا له (أى استنجدوا بنا مما نزل بهم) ، وألقوا بأنفسهم إلينا فيه (أى اعتمدوا علينا فى إنقاذهم) ، ونحن لا نحول بينك وبين الجهاد فى سبيل الله ولا نمنعك من تمام ما أملت منه ، فلا يكن ما يتصل بك من انفاذ أساطيلنا يريثك (أى لا يجب أن يقعدك ويثنيك عن عزمك ما علمته من اعتزامنا نجدة أهل كريت) عن الذى هممت به من ذلك ، ولا تخشى (وأن تخشى) على من تبعث به ، وعلى مراكبك منـــا (أى لا تخف على أسطولك ورجالك منا) ، فلك علينا عهد الله وميثاقه ، أنا لا نكون معهم إلا بسبيل خير (أى لا نعاملهم إلا بما يرضى الله عز وجل) ، وإنا نحلهم محل رجالنا (أى نسوى بينهم وبين رجالنا) ، ونجعل أيديهم مع أيدينا ، ونشركهم فيما آفاء الله علينـــا ، ونقيمهم فى ذلك وغيره مقام رجالنا ، ومراكبك مقام أساطيلنا حتى يفتح الله لنا لمن شاء الله ، ثم ينصرفوا إليك على ذلك ، أو يكون من أمر الله وقضائه ما هو فاعله . فاعلم ذلك ، وثق به منا ، ففى ذلك تظافر المسلمين على عدوهم ، واجتماع كلمتهم وإعزاز لدين الله وكبت لاعدائه . فقد سهلنا لك السبيل والله على ما نقول وكيل ، فإن وثقت

= وقتذاك . ويذكر حسن ابراهيم (المعز لدين الله ص ٣٠٣) أن الرسالة موجهة لأبى الحسن على بن الأخشيد .

بذلك ، ورأيت إيثار الجهاد ، فاعمل على أن تنفذ مراكبك إلى مرمى «طبنه» من أرض برقة، لقرب هذا المرمى من جزيرة أقريطش[1]، ويكون اجتماعهم مع أساطيلهم بهذا المرسى فى مستهل ربيع الآخر سنة ٣٥٠ه بتوفيق الله وقوته وتأييده ، ونصره وعونه . وألا ترد ذلك — (أى إذا لم يكن لك الرغبة فى نجدة كريت) — فقد أبلغنا فى المعذرة إليك والنصيحة لك ، وخرجنا مما علينا إليك » .

وهكذا نرى أن المعز لدين الله الفاطمى ، وضع خطته على أساس اشتراك الوحدات البحرية للأسطول المصرى الأخشيدى ، مع الأسطول الفاطمى ، وكانت الخطة تقضى بأن يرسل الأخشيديون قواتهم وأساطيلهم البحرية إلى مرمى طبنه — فى أرض برقة — وذلك فى شهر ربيع الآخر سنة ٣٥٠ ه . ثم تبحر هذه القوات مجتمعة من طبنه إلى جزيرة اقريطش وقد حرص المعز لدين الله فى خطابه لابن الأخشيد ، على التأكيد بأنه أعد نفسه فعلا لمواجهة البيزنطيين ، المحاصرين لكريت منذ سنة ٣٤٥ ه ، وأنه سيفعل ذلك سواء انضم إليه أسطول مصر الأخشيدى أو تقاعد عن مشاركته فى مساعدة مسلمى كريت[2] ، فقال المعز لدين الله فى رسالته — حسبما ورد فى كتاب المجالس والمسايرات لأبى حنيفة النعمان المغربى[3] : ونحن بحـــول الله وقوته ، وتأييده ونصره وعونه ، مستغنون عنك وعن غيرك ، وعلى عزم وبصيرة فى إنفاذ أساطيلنا ورجالنا وعدتنا ، وما خولنا

---

(١) قال القلقشندى : «كريت على سمت برقة ، وبينها وبين برقة مسيرة يوم وليلة ، وأقرب المراسى فى برقة لكريت هو مرسى طبنة. أنظر صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٧١ — ٣٧٢ .

(٢) حسن ابراهيم . المعز لدين الله ص ٤٩ .

(٣) النعمان : المجالس والمسايرات ج ٢ ورقة ٤٢٠ .

الله إياه ، وأقدرنا عليه ، مما يرى أننا بحولة وقوته نبلغ ما نؤم إليه بذلك ، ونصمد نحوك ، فبالله نستعين وعليه نتوكل وعلى تأييده نعوّل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل» .

على أن نداء المعز لدين الله إلى والى مصر الأخشيدى « أبى الحسن على ابن الأخشيد » ، لم يؤد إلى قيام الأخشيديين بأى إجراء من جانبهم لإنقاذ كريت ، لأن دولتهم أخذت منذ منتصف القرن الرابع الهجرى ، فى الضعف والانحلال حتى إنها عجزت عن رد هجوم بيزنطى على دمياط سنة ٣٤٧هـ (٩٥٨م)(١) .

أما عن موقف المعز لدين الله من الروم ، فيتجلى لنا من رسالته التى بعث بها إلى الأمبراطور البيزنطى « رومانوس الثانى » ، وهدده فيها بنقض الهدنة التى بينهما ، محتجاً عليه لهجومه على مسلمى اقريطش(٢) . وخيره بين أن يقلع عن حرب أهل اقريطش وبين نقض الهدنة ، التى سبق أن عقدها معه بعد هزيمته مع الأمويين بالأندلس ، أمام الأسطول الفاطمى سنة ٣٤٧هـ(٣) .

ثم يذكر المعز لدين الله فى كتابه إلى الأمبراطور البيزنطى (رومانوس الثانى) ان الإعتداء على جزيرة كريت يعد عدوانا على الدولة الفاطمية . لأن هذه الجزيرة فى رأى المعز لدين الله — كغيرها من البلدان الإسلامية — تعد من أملاك الدولة الفاطمية ، برغم تنكر أهلها لطاعة الفاطميين ، ودعائهم للعباسيين وولاتهم على مصر . فهذا الأمر منهم لا يعدو أن يكون

---

(١) سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية ص ٩٦ .

(٢) النعمان : المصدر السابق ج ٢ ص ٤١٣ — ٤١٦ .

(٣) النعمان : نفس المصدر ج ٢ ورقة ٤٢٠ — ٤٢١ .

عقوقاً لحق الفاطميين عليهم ، وهو لا يبرر بل ولا يبيح إطلاقاً تخلى الفاطميين عن نجدتهم[١] .

ويدلل المعز لدين الله فى رسالته إلى الأمبراطور البيزنطى على حقه (أى المعز لدين الله) فى نجدة كريت — باعتبارها جزءاً من دولته — . ويضرب لذلك مثلا حياً للأمبراطور البيزنطى رومانوس الثانى بن قسطنطين السابع ، يتعلق بكيفية اعتلائه العرش ، بعد أن انتزعه من مغتصبه « رومانوس الأول » (٩١٩ — ٩٤٤م / ٣٠٧ — ٣٣٣هـ) ، فيقول[٢] : « فإن قلت أنت غير ذلك — أى إذا انكر رومانوس الثانى هذا الحق على الفاطميين — وانت ترى أن ما فى يدك لك ، فقد كان رومانوس الأول — مغتصب العرش وتغلب عليك ، وعلى أبيك من قبلك ، ثم دارت لكما عليه الدائرة . فان رأيت أن من احتجز شيئا فهو له ، . . . دون صاحب الحق الذى ملكه ، فلم يكن لك ، ولا لأبيك القيام على رومانوس ، ولا إنتزاع ما صار إليه . . . فإن اعترفت لها (أو بها) فقد أنصفت ، وإن جهلتها ، لم يكن جهلك إياها حجة على من عرفها » ثم يحذره المعز لدين الله من مغبة الاعتداء على كريت أو إلحاق الضرر بها .

على أن البيزنطيين لم يعبأوا بتهديدات الخليفة الفاطمى المعز لدين الله لهم ، خاصة وأنهم رأوا أنه لم يتخــــذ خطوة إيجابية ، لمساعدة مسلمى جزيرة أقريطاش ، لانشغاله فى نفس الوقت سنة ٣٤٩هـ ، بهجوم بيزنطى على مدينة « طبرمين » فى جزيرة صقلية ، كما أنهم كانوا على علم بالصعوبات الداخلية التى يواجهها الحكم الفاطمى بالمغرب ، فضلا عن نزاع الفاطميين مع أمويى

---

(١) النعمان : المجالس والمسايرات جـ ٢ ورقة ٤٢١ وسعاد ماهر . البحرية فى مصر الإسلامية ص ٩٦ .

(٢) النعمان : المصدر السابق جـ٢ ورقة ٤١٦ .

الأندلس(١) . فانتهز القائد البيزنطى « نقفور فوكاس » هذه الفرصة ، وشرع فى مهاجمة كريت سنة ٣٤٩ﻫ (٩٦٠ م) .

وقد رابطت حول الجزيرة وحدات من سفن الروم ، لتحول دون وصول أى نجدات إليهامن الفاطميين أو غيرهم ، وهجم نقفور بعد ذلك على مدينة « قندية » عاصمة كريت ، وشدد الحصار عليها ، ثم اقتحمها فى ربيع الآخر سنة ٣٥٠ﻫ (مايو ٩٦١م) . فدانت له الجزيرة بعد حصار استمر ثمانية أشهر (٢) .

ويذكر ابن خلدون أن الربضيين استقروا فى اقريطاش مائة وأربعين سنة ، ثم غزاهم الروم ، وطردوهم منها فى عهد « رومانوس الثانى بن قسطنطين السابع » امبراطور الدولة البيزنطية سنة ٣٥١ﻫ (٣) . ويفهم من قوله هذا أن الفاطميين لم ينجدوا الجزيرة وأهلها ، بل تركوها نهبا للحملة البيزنطية . ففتحت الجزيرة أمام البيزنطيين وأزيل عنها مظهرها الإسلامى الحنيف السمح الذى ظل يلازمها طوال مائة وأربعين عاما متصلة .

لكن حدث فى أواخر سنة ٣٥٠ﻫ (٩٦١م) ، وبعد أن استولى الروم على جزيرة اقريطش ، أن توجه نحو أربعين ألف جندى من المسلمين لمهاجمة المعسكر البيزنطى بالجزيرة . ويبدو أن الفاطميين بالمغرب ، كانوا قد أرسلوا فريقا منهم ، بينما كان الفريق الآخر من داخل الجزيرة . فنهض نقفور فوكاس (القائد البيزنطى الذى قاد حملة استعادة كريت للبيزنطيين) لنجدة الحامية البيزنطية التى كانت تحاصر مدينة قندية . ودارت معركة كبيرة بين الجانبين

---

(١) العدوى : الأساطيل العربية ص ١٢٤ .

(٢) العرينى : الدولة البيزنطية ص ٤٧٩ — ٣٨١

Schlumberger : Nicephore Phocas, p. 65 (Paris, 1923).

(٣) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٢١١ .

انتصر فيها البيزنطيون واستشهد كثير من الجند الإسلامي في هذه المعركة [١]

وهكذا تم استيلاء البيزنطيين على كريت ، بينما المعز لدين الله لا يزال مقيما في بلاد المغرب . ومن المحتمل أن يكون انشغاله بإقرار الأمور في تلك البلاد ، وإعداده العدة لفتح مصر ، ومساعدته والى صقلية في صد الهجوم البيزنطي على طبرمين ، قد حال دون مسارعته لنجدة مسلمي كريت ، ومعاونتهم على استرداد الجزيرة من الروم [٢] .

ولم يكن نجاح الروم في استعادة جزيرة كريت ضرورة عسكرية فقط بالنسبة لهم ، بل كان أيضا ضرورة اقتصادية . ذلك أن بلاد الشرق الإسلامي كانت في ذلك الوقت ، تتحكم في طرق نقل السلع التي يحتاجها الأوربيون ، وتفرض الرسوم الجمركية الباهظة على تجارتهم ، مما جعل البيزنطيين يوجهون إهتمامهم للسيطرة على طرق نقل الغلات الآسيوية إليهم [٣] . وقد رأوا أن ذلك لن يتحقق إلا بتطهير البحر المتوسط من بحارة وأساطيل المسلمين ، الذين كانوا يجوبون ارجاءه ويهاجمون السفن والسواحل الأوربية . وكانت وسيلتهم إلى ذلك . العمل على انتزاع جزر البحر المتوسط . التي يتحكمون منها في طرق المواصلات البحرية في هذا البحر . فعمدت الدولة البيزنطية إلى الاستيلاء على كريت سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١م) ثم قبرص سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥م) [٤] .

---

(١) ومما يذكر أن عدد القتلى من المسلمين في هذه المعركة وصل إلى ٢٠٠,٠٠٠ كما أسر الروم مثلهم ، غير عدد لا يحصى من النساء والأطفال . أنظر العريني : الدولة البيزنطية ص ٣٨٢ حاشية ٧ .

(٢) العريني : الدولة البيزنطية ص ٣٨٣

Schlumberger : Nicephorè p., 96.

(٣) سرور : تاريخ الحضـــارة الإسلامية في الشرق ص ١٥٣ ، بينز . الامبراطورية البيزنطية ص ٢٧٢ .

(٤) سرور : المصدر السابق ص ١٥٣ — ١٥٤

Camb. Med. Hist ; Vol. 4, p. 444 – 445.

٤ علاقة الفاطميين بجزيرة صقلية

أصبحت جزيرة صقلية منذ أوائل القرن الثالث الهجرى ولاية تابعة لدولة الأغالبة بأفريقية ، وظل الحال على ذلك إلى أن تمكن « أبو عبد الله الشيعى : داعى الفاطميين فى بلاد المغرب، من الانتصار على قوات «زيادة الله الثالث» آخر أمراء الأغالبة ، فى جمادى الآخرة سنة ٢٩٦ هـ ، فى « واقعة الأربس » التى أدت إلى زوال دولة الأغالبة[١] .

ولما علم أهل صقلية بانتصار أبى عبد الله الشيعى على الأغالبة ، ثاروا على واليهم السنى « الحسن بن رباح »[٢] وولوا عليهم « على بن أبى الفوارس » فى رجب سنة ٢٩٦ هـ ، وطلبوا من أبى عبد الله الشيعى ، أن يقرهم على مافعلوه فوافق على تعيين هذا الوالى الجديد[٣] .

شهدت جزيرة صقلية ، بعد انتقال الحكم فيها من الأغالبة إلى الفاطميين، فترة (من سنة ٣٠٠ — ٣٢٧ هـ) تجلى فيها الفتن والشقاق ، ولم تكن هذه الفتن تعبيرا عن محاولات استقلالية ، أو تمرداً على الحكم الفاطمى ، وإنما كان الدافع إليها أما كره أهل الجزيرة لبعض ولاتهم الشيعيين ، بسبب ميل مسلمى صقلية للمذهب السنى والخلافة العباسية ، أو تعسف الولاة[٤] .

---

(١) سرور: سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٣١ - ٢٣٣ والدولة الفاطمية فى مصر ص ٢٠ — ٢١ .

(٢) ورد اسمه فى كتاب نهاية الأرب للنويرى . [أحمد بن أبى الحسن ابن رباح] وكان والياً على صقلية من قبل الأغالبة الخاضعين للسيادة العباسية . راجع النويرى . فى نهاية الأرب : المكتبة الصقلية ص ٤٢٤ .

(٣) النويرى : المصـــدر السابق ٤٣٤ ، محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٤٢ .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٠٧ وابن أبى دينار . المؤنس فى تاريخ إفريقية تونس ص ٥٣ .

ولما آلت الخلافة الفاطمية بالمغرب إلى « عبيد الله المهدى » عين واليا وقاضيا بصقلية ، دون أن يأخذ رأى أهلها(١) . فعزل على بن أبى الفوارس — الذى ولاه الصقليون من قبل وأقرهم عليه أبو عبد الله الشيعى — وولى مكانه سنة ٢٩٧ هـ (٢) الحسن بن أحمد بن أبى خنزير الكتامى(٣) .

ثار أهل صقلية على هذا الوالى، حين أساء السيرة فيهم واضطر عبيد الله المهدى، أن يسند ولاية الجزيرة إلى والى آخر(٤)، يدعى «على بن عمر البلوى» سنة ٢٩٨ . وكان كسلفه عسوفا(٥) ، على الرغم مما عرف عنه من أنه كان ليّنا ضعيف الإرادة ، مما جعل الناس يثورون به(٦) ، وخاصة العناصر العربية التى ساءها أن يولى الفاطميون عليهم رجلا من البربر . ووقع اختيار زعمائهم على « أحمد بن زيادة الله بن قرعب »(٧) ويقول المقريزى : « ثم أن أهل

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ج٤ ص ٢٠٧ .

(٢) هناك خلاف فى تاريخ تولية ابن أبى خنزير . فأبوا الفدا « المختصر فى أخبار البشر بالمكتبة الصقلية ص ٤٠٦ » يذكر أن هذا الوالى تولى عمل صقلية بتكليف من المهدى سنة ٢٩٦ هـ ، وليس ٢٩٧ هـ ، ويؤيده فى ذلك المقريزى : « اتعاظ الحنفا ص ٩٣ » .

(٣) ورد اسم هذا الوالى فى بعض المراجع التاريخية على أنه [الحسن بن محمد بن أبى خنزير] وليس [الحسن بن أحمد بن أبى خنزير] . راجع سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص٢٣٢ وحسن ابراهيم: عبيد الله المهدى ص ١٩٩ ، الدولة الفاطمية ص ٩٨ .

(٤) Camb. Med. Hist., Vol. 2, p. 387 & Vol. 4, p. 144.

(٥) سرور : المصدر السابق ص ٢٣٢ .

(٦) النويرى : نهاية الأرب [بالمكتبة الصقلية] ص ٤٣٥ .

(٧) الانطاكى : تاريخ سعيد بن بطريق ص ٨٢٦ [٦٤] وابن الأثير « الكامل [بالمكتبة الصقلية ص ٢٥١] أو ج ٨ ص ٢٣ . ويذكر بعض المؤرخين أن تمردهم وتولية ابن قرهب [أو قرعب] كان سنة ٢٩٧ هـ وليس سنة ٢٩٨ هـ =

صقلية خالفوا عليه وواليه بصقلية ، فأنفذ إليها وقتل من أهلها»[١] . ثم ينقل عن ابن الأثير بشيء من الإيضاح فيقول : « وخالف عليه أهل صقلية مع ابن قرهب ؛ فأنفذ (أى عبيد الله المهدى) — إليهم أسطولا »[٢] .

كان أحمد بن قرهب طموحا ، فعمد إلى تدعيم نفوذه فى جزيرة صقلية، فأرسل ابنه « عليا إلى قلعة طبرمين » ليعدها حصنا له ولحاشيته وأهل بيته ، خشية من انتقاض أهل صقلية عليه[٣] . وعند أسوار طبرمين ، تبين « لعلى ابن أحمد بن قرهب» أن الجنود من مسلمى صقلية لا يطمأن إلى جانبهم . ورغم هذا حاصر طبرمين ستة أشهر ، لكن الجند ثاروا عليه ، وأحرقوا خيامه وكادوا يقتلونه[٤] .

ولا شك أن ثورة الجند على « ابن قرهب » ترجع إلى ما لمسوه فيه من نزعة استقلالية ، أدركها أنصار الفاطميين بجزيرة صقلية ، مما دفعهم إلى التحريض ضده وضد ابنه ، الذى كادوا يفتكون به لولا حماية السنيين العرب بالجزيرة له[٥] .

= أو بعدها ، وأنهم دعوا للخليفة [المقتدر العباسى] دون الخليفة « عبيد الله المهدى الفاطمى » ، فولى عليهم ، بدلا من الحسن بن أبى خنزير ، « على بن عمر البلوى » .

(١) المقريزى : إتعاظ الحنفا ص ٩٧ هامش ، ابن خلدون . العبر ج ٤ ص ٣٨ .

(٢) المقريزى : نفس المصدر ص ٩٧ هامش .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٣ « بالمكتبة الصقلية ص ٢٥٢ » ، فيليب حتى : تاريخ العرب ج ٢ ص ٧١٨ .

(٤) ابن خلدون : العبر « بالمكتبة الصقلية ص ٤٧٦ » ؛

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٢ « بالمكتبة الصقلية » ص ٢٥٢ فيليب حتى : تاريخ العرب ج ١ ص ٧١٨ .

ويبدو أن « ابن قرهب » لم يكن يفكر في بادىء الأمر ، في الخروج على الخليفة الفاطمي « عبيد الله المهدي » ، إذ كتب إليه يقول : « أن أهل صقلية يكثرون الشغب على أمرائهم ، ولا يطيعونهم ، وينهبون أموالهم . ولا يزول ذلك إلا بعسكر يقهرهم ويزيل الرياسة عن رؤسائهم[١] » . ولكنه إرضاء منه للعرب السنيين في جزيرة صقلية وهم الذين حموه وإبنه من القتل ، وخوفا من بطشهم ، انحرف عن الفاطميين ، وأعلن ولاءه للخليفة « المقتدر العباسي » . فأقام له الخطبة ، بدلا من الخليفة الفاطمي « عبيد الله المهدي » [٢] .

وكان « ابن قرهب » صادقا في ولائه للعباسيين ، فأنفذ أسطوله لمهاجمة سواحل بلاد المغرب ، واستطاع — في بادىء الأمر — أن يوقع الهزيمة بالأسطول الفاطمي عند ساحل أفريقيا[٣] ، ثم هاجم مدينتي « طرابلس الغرب » ، و « سفاقس » ، وشرع في مهاجمة المهدية . لكن الفاطميين استطاعوا — بعد أن بذلوا جهدهم في إعــداد أسطولهم — أن يوقعوا الهزيمة بقوات « ابن قرهب[٤] » . ولم يلبث أهل صقلية أن ثاروا به ، فحاول أن يداريهم دون جدوى .

ولما شرع (ابن قرهب) في الرحيل إلى الأندلس ، لاجئاً إلى الأمويين حيل بينه وبين مايبغى ، ونهب أهل صقلية ما كان له ، وأسروه وإبنه وقاضيه

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٣ .

(٢) ابن عذارى : البيان « بالمكتبة الصقلية ص ٢٦٤ » .

(٣) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٢٣ .

(٤) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣٠٧ ، وسرور : المصدر السابق ص ٢٢٣ .

(ابن الفارسی)[1]. ثم بعثوا بهم جميعاً إلى الخليفة الفاطمى (عبيد الله المهدى) حيث أمر بقتلهم[2].

على أن أهل صقلية لم يكونوا جادين فى تحولهم عن الفاطميين، وإنما كان كل ما يبغونه هو الخلاص من (ابن قرهب) وبعد أن تم لهم ذلك أرادوا أن تصبح الحكومة فى بلادهم بأيديهم، بحيث لا يكون للخليفة الفاطمى سوى السيادة عليهم، فبعثوا إليه يطلبون منه أن يرسل إليهم واليا وقاضيا[3].

ومع أن عبيد الله المهدى نجح فى القضاء على حركة ابن قرهب، إلا أن الأمور لم تستقر للفاطميين بجزيرة صقلية ؛ وذلك بسبب المنازعات المستمرة بين أهلها المسلمين وبعضهم البعض من ناحية، وبينهم وبين المسيحيين من سكان صقلية من ناحية ثانية[4].

عوّل الخليفة الفاطمى عبيد الله المهدى — بعد تلك الأحداث التى واجهت الحكم الفاطمى فى جزيرة صقلية — على أن يرسل مع الوالى، الذى يحكمها باسم الفاطميين، جيشا يدفع عنه خطر الثائرين عليه، فضلا عن اتخاذه وسيلة لقمع الولاة الفاطميين أنفسهم، إذ حدثتهم أنفسهم بالخروج على طاعتها. وكان عبيد الله المهدى صادقا فى حدسه، فما أن وصل الوالى الجديد — أبو سعيد موسى بن احمد — إلى الجزيرة سنة ٣٠٤ هـ[5]. حتى ثار عليه كثير

(١) ابن عذارى : البيان ، بالمكتبة الصقلية ص٢٦٥ ، وابن الأثير الكامل ، بالمكتبة الصقلية ص ٢٥٢ ، .

(٢) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

(٣) أمارى : المكتبة العربية الصقلية ص ٢٦٥ [عن ابن عذارى] .

(٤) أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(٥) ذكره بعض المؤرخين [سعيد الضيف] أو [أبو سعيد المعروف بالضيف] راجع : ابن عذارى : البيان جـ٢ ص ٢٤٣ ، حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٩٩ .

من أهلها . ولولا مساعدة الجند للفاطمى لهذا الوالى لما استقر حكم (عبيد الله المهدى) فى هذه الجزيرة (١) .

كذلك واجه « سالم بن أبى راشد » (والى صقلية فى عهد الخليفة القائم الفاطمى) ثورة أهل مدينة (جرجنت (٢)) فجهز إليه هذا الخليفة جيشاً حاصر المدينة الثائرة ، لإخماد المتمردين من أهلها ؛ مما اضطرهم إلى الاستنجاد بالامبراطور البيزنطى (رومانوس الأول) فأمدهم بقوات بحرية اشتبكت مع أسطول الفاطميين ، الذى تصدى للأسطول البيزنطى . وخسر الجانبان بعض سفنهما ، ومع ذلك استمر حصار (جرجنت) حتى سنة ٣٢٩ هـ مما اضطر أهلها إلى الخروج عنها وطلب من بقى منهم الأمان من أمير البحر الفاطمى (٣) .

لم ينته بذلك التمرد على الحكم الفاطمى فى جزيرة صقلية ، بل امتد إلى مدينة بلرم (٤) ، مما اضطر الوالى الفاطمى « سالم بن أبى راشد » إلى الاستنجاد بالخليفة الفاطمى — « القائم » . فأمده بقوة على رأسها « خليل بن اسحق » (٥) . لكن سالم بن أبى راشد أثار أهل بلرم ضد « خليل بن اسحق » ، حتى لا يخلو له أمر ولاية صقلية . وقد ساعدت الأحداث « سالم بن أبى راشد » ، على تآمره ضد « خليل بن اسحق » ، وخاصة حين رأى أهل بلرم « خليلا »

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٠٧ ، ورينو : تاريخ غزوات العرب ص ، ٣٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٤٥ وابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٠٨ والنويرى . نهاية الأرب [بالمكتبة الصقلية ص ٤٣٦] .

(٣) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ٢٤٣ ، وابن خلدون ، المصدر السابق [بالمكتبة الصقلية ص ٤٧٨] .

(٤) النويرى : نهاية الأرب [بالمكتبة الصقلية ص ٤٣٧] ، حتى : تاريخ العرب ج ٢ ص ٧١٨ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٢٨ ، وكان « خليل بن اسحق » يكنى =

يشرع فى هدم أسوار مدينتهم ويبنى مدينة أخرى سماها « الخالصة » ، لذلك خافه أهل جرجنت ، وحصنوا مدينتهم ، وتأهبوا لمحاربته . فسار خليل إليهم ، وحاصرهم ثمانية أشهر ، حتى ضاقوا ذرعا من شدة الحصار ، ثم رحل عنهم سنة ٣٢٦هـ (١) .

ولقدسعى أهل جرجنت إلى تأليب أهالى المدن الصقلية الأخرى . فثارت فى سنة ٣٢٧هـ جميع القلاع بالجزيرة . مما اضطر خليل بن اسحق إلى أن يطلب من الخليفة القائم إمداده بنجدات ، فأجاب طلبه (٢) . وقد استطاع خليل بمعاونة هذه الإمدادات أن يحمل مدن وقلاع الجزيرة على الاستسلام ، بعد أن أخضع مدينة «جرجنت» (٣) .

ولا شك أن الدولة الفاطمية كانت شديدة الحرص — سواء فى أيام عبيد الله المهدى أو من جاء بعده — على الاحتفاظ بنفوذها قويا فى جزيرة صقلية . وكان يدفعها إلى ذلك عدة أسباب سياسية واقتصادية (٤) ، فجزيرة صقلية ذات أهمية خاصة فى نظر مختلف القوى فى حوض البحر المتوسط . لأن موقعها الجغرافى يمكّن المسيطر عليها من التحكم البحرى بين شرق وغرب البحر المتوسط . ولذلك اهتم الفاطميون ببسط سيادتهم عليها لاتخاذها قاعدة

= «بأبى العباس» وكان المهدى يفوضه فى الجبايات ومحاسبة العمال والدواوين التابعين للدولة الفاطمية . ثم وشى به لديه ، فكرهه المهدى وهم بقتله ، لولا توسط أبنه القائم ليعفوا عنه . راجع : ابن عذارى . البيان ج ١ ص ٣٠٥ .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١١٨ ، وابن خلدون : العبر « المكتبة الصقلية ص ٤٧٨ — ٤٧٩ » .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج ٨ ص ١١٩ .

(٣) ابن الآبار : الحلة السيراء ج ١ ص ٣٠٢ « أو بالمكتبة الصقلية ص ٢٣٠ » ، وابن الأثير : المصدر السابق ج ٨ ص ١١٩ وابن عذارى : البيان « بالمكتبة الصقلية ص ٣٦٨ » .

لأسطولهم فى البحر المتوسط ، ولصد الحملات التى يوجهها البيزنطيون نحو سواحل دولتهم (١) .

أما من الناحية الاقتصادية ، فكانت أهمية جزيرة صقلية بالنسبة للفاطميين ، تنبع من غناها بالأخشاب والمعادن مثل الذهب والفضة والرصاص والحديد وغيرها . لذلك نراهم يحرصون على بقائها خاضعة لسلطانهم (٢) ، لمد دور صناعاتهم فى إفريقية — سواء فى المهدية أو سوسة أو المنصورية فيما بعد — بما يلزمها من مواد وأخشاب لبناء أسطولهم .

استمر الفاطميون فى إرسال ولاتهم إلى جزيرة صقلية ، إلى أن قامت ثورة « أبى يزيد مخلد بن كيداد الخارجى » (٣) ، التى شغلتهم بعض الوقت فلما قضى المنصور الفاطمى على هذه الثورة سنة ٣٣٦هـ (٤) ، عين أبا الغنائم « الحسن بن أبى الحسين بن على الكلبى (٥) واليا على صقلية . وفى عهدة تجلى

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٤١ .

(٢) حسن ابراهيم : الإسلام السياسى ج ٤ ص ٣٧٣ — ٣٧٤ الدولة الفاطمية ص ٩٩ ١٠٠ .

(٣) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٣٣ .

(٤) ابن أبى دينار : المؤنس . ص ٥٩ — ٦٠ ، ٨٥ وبالمكتبة الصقلية ص ٥٢٩ — ٥٣٠ ويقول ابن الأثير عن ظروف تولية « الحسن بن على الكلبى » . « وكان سبب ولايته أن المسلمين كان قد استضعفهم الكفار بها — بصقلية — أيام عطاف لعجزه وضعفة وامتنعوا من إعطاء مال الهدنة راجع « ابن الأثير » الكامل ج ٨ ص ٢٧٠ « وبالصقلية ٢٥٧ — ٢٥٩ » وهو يقصد بالذات ثورة بنى الطبرى على عطاف الأزدى (٣٢٩ — ٣٣٦ هـ) .

(٥) ذكره ابن الأثير (ج ٨ ص ١٧٨) وجوذره فى سيرته (ص ١٧٣ هامش ٧٦) هكذا . « الحسن بن على بن أبى الحسين الكلبى » ، وهو رأس الأسرة الكلبية ، وأحد شيوخ كتامه ، ومن وجوه قوادهم .. وقد تولى صقلية خلفا لعطاف الأزادى الذى استضعفه أهلها وخرجوا عليه سنة ٣٣٥ هـ . بتحريض بنى الطبرى — بنى الطاير عند جوذر — أنظر : ابن خلدون العبر ج ٤ =

النزاع بينه وبين مسيحي صقلية الذين استنجدوا « بقسطنطين السابع » امبراطور الدولة البيزنطية فأجاب طلبهم (١) ، وأرسل قواته إلى صقلية ، حيث اشتبكت مع قوات الحسن الكلبي . وحلت الهزيمة بالجيش البيزنطي ، واضطر الامبراطور إلى طلب الصلح (٢) .

وقد عانى الحسن بن أبي الحسين الكلبي أثناء ولايته جزيرة صقلية من انحراف بني الطبري عنه ، فكانوا يكيدون له ، رغبة في خلعه من هذه الولاية ، فلما علم بذلك الخليفة المنصور الفاطمي (٣٣٤ - ٣٤١هـ) ، أمر بالقبض على اسماعيل بن الطبري وأنصاره ، فقبض الحسن عليهم واستولى على أموالهم (٣) . وبذلك تمكن الحسن الكلبي من أن يركز جهوده على ضبط الأمور في الجزيرة والقضاء على القلاقل الداخلية فيها ، ليتيسر له متابعة وتنفيذ خطة غزو قلورية .

وقد أمدنا كتاب سيرة الأستاذ جوذر بتوقيع للخليفة المنصور في هذا الصدد (٤) جاء فيه توضيح للدور الذى قام به بنو الطبري في تحريض أهل صقلية ضد الوالي الفاطمي في الجزيرة وأنهم كانوا يتحركون بتأييد محمد بن عبدون أحد أفراد هذه الأسرة الكبيرة — وكان قد احتجزه الخليفة المنصور لديه في افريقية دون أن يسيء إليه لمكانته العلمية بين أهل صقلية — وفي نفس الوقت بعث إلى الحسن الكلبي يطلب إليه أن يستمر في تعقب وإخضاع بني الطبري ، والعمل على إذعانهم للحكم الفاطمي وممثليه في الجزيرة . وأمره أن يرسل إليه

= ص ٢٠٨ وابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٧٠ ، سيرة جوذر ، ص ٧٠ ، ١٧٣ هامش ٧٦ .

(١) ابن الأثير : الكامل / بالمكتبة الصقلية ص ٢٦٧ — ٣٦٩
Cambridge Med. History, Vol. 5, p 147.

(٢) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٣٢٤ .

(٣) سيرة الأستاذ جوذر ص ٧٠ — ٧١ .

(٤) سيرة الأستاذ جوذر ص ١٧٣ — ١٧٤ هامش ٧٧ .

فى افريقية بكل من يقبض عليه منهم [١] ، ليعاقبهم ويبعدهم عن الجزيرة ، كذلك أمره الخليفة المنصور الفاطمى — على لسان كاتبه جوذر — بأن يقضى على اضطرابات جزيرة صقلية ، يدلنا على ذلك قول جوذر عن المنصور الفاطمى : « وحُضّه (أى ياجوذر انصحه) — حضا شديدا على الصرامة ، وأن يكون مرا مريرا شرسا (أى أن يكون شديد البأس عليهم صارما فى حكمه لهم) ، فانه فى بلد قد أسكرت أهله النعم ، وأبطرهم الإحسان ، واعتادوا مع خليل بن اسحق أشياء لايخرجها من رؤوسهم إلا السيوف . وليكن صعبا مستصعبا (أى يضرب بشدة) على كل فاجر وداعر ، وليرفع عنهم السوط ويستعمل فيهم السيف [٢] » .

هكذا تولى « الحسن الكلبى » ولاية جزيرة صقلية ، فى وقت كانت الجزيرة ترزح فيه تحت نير الاضطرابات والقلاقل ، فعمل على إقرار الأمور فيها ، وتابع خطة الغزو والفتح فى قلورية [٣] . واستمر على نشاطه هذا حتى توفى الخليفة الفاطمى المنصور سنة ٣٤١هـ ، وولى الخلافة « المعز لدين الله » الذى أقره على ولاية صقلية [٤] .

لقد أدت السياسة التى اتبعها عبيد الله المهدى ، والتى تقضى بضرورة وجود حامية فاطمية ، إلى جانب ولاة صقلية لمعاونتهم فى صد الأخطار الخارجية [٥] والقضاء على الاضطرابات الداخلية ، إلى إتاحة الفرصة لهؤلاء الولاة للسيطرة عليها . وتجلى ذلك بوجه خاص فى عهد ولاتها من الأسرة الكلبية ، الذين

---

(١) سيرة الأستاذ جوذر : ص ١٧٣ — ١٧٤ حاشية ٧٧ .

(٢) سيرة جوذر : ص ١٧٣ — ١٠٤ حاشية ٧٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل « بالمكتبة الصقلية ص ٢٦٠ — ٢٦١ » .

(٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج٢ ص١٠١ — ١٠٢ - أو « بالمكتبة الصقلية ص ٤٠٧ — ٤٠٨ » .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٣ — ٢٤ .

تمتعوا بقدر كبير من الاستقلال . وظلوا يلون حكم هذه الجزيرة باسم الفاطميين ، حتى بعد انتقال الخلافة الفاطمية إلى القاهرة سنة ٣٦٢هـ (١) .

لم تتمتع جزيرة صقلية بالاستقرار في عهد المعز لدين الله ، بسبب تهديد البيزنطيين لها(٢) . فقد نقض الأمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع (٩١٤ — ٩٥٩م) الهدنة التي عقدها مع الحسن الكلبي (٣) ، وكان مما شجعه على ذلك ما أحرزه من نصر على العباسيين والحمدانيين في شرق البحر المتوسط .

وهكذا أصبحت صقلية ميدانا للصراع ، بين قوتين كبيرتين في حوض البحر المتوسط هما : الدولة الفاطمية ، والدولة البيزنطية . فلم يدخر أباطرة بيزنطة — مثل قسطنطين السابع ، ونقفور فوكاس ، وميخائيل الرابع — وسعا في محاولة السيطرة عليها ، فأرسلوا الحملات البحرية الواحدة بعد الأخرى لزحزحة الفاطميين عن الجزيرة ولكن دون جدوى (٤) . بل إن « الحسن بن على الكلبي أوقع بهم الهزيمة واستطاع أن يخرجهم من ترميني (Termini) ، ثم عبر خليج مسيني (مسينا Messina) (بين جزيرة صقلية وقلورية) — وانضم إلى جيوش أخيه (عمار بن أبي الحسن الكلبي) . وما زال الحسن الكلبي وأخوه عمار يغزوان مدن قلورية ، مدينة بعد مدينة ، والإمدادات الفاطمية تتوالى عليهما من افريقية ، حتى اضطر الأمبراطور البيزنطي إلى إرسال رسول من قبله يدعى (سقراط) يطلب الهدنة والصلح سنة ٣٤٧هـ .

---

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب جـ ٢ ص٧١٨ وهو يسمى أفراد هذا البيت « الكلابيين » .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٧٨ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ٨ ص ١٧٨ .

(٤) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٤٣ ، عاشور : مصر في العصور الوسطى ص ٢٤١

Ostrogorskey : History of Byzantine State, p. 293 — 295.

وكانت هذه الهدنة مماثلة لتلك التى سبق إبرامها بين كل من الخليفة المنصور الفاطمى ، والامبراطور قسطنطين السابع ، وتقضى بأن تدفع قلورية الجزية للمسلمين (١) .

وبذلك ينتهى الدور الأول من هذه الحروب ، التى شنها ولاة كل من القائم ، والمنصور ، والمعز لدين الله الخلفاء الفاطميين ، على البيزنطيين — فى صقلية — والتى انتهت بزوال الخطر البيزنطى من هذه الأرجاء إلى حين (٢) . ولا ريب أن الفضل فى ذلك كله إنما يرجع الى إخلاص ولاة صقلية من الأسرة الكلبية وهم « الحسن بن على الكلبى » وأخوه « عمار » وغيرهما من أفراد هذه الأسرة .

ولم يقف الامبراطور البيزنطى قسطنطين السابع مكتوف اليدين أمام الخليفة الفاطمى المعز لدين الله وولاته على صقلية ، فعقد اتفاقا مع الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر ، يتضمن توحيد جهودهما فى محاربة الفاطميين والحد من نشاطهم فى البحر المتوسط وذلك بأن يقوم الأسطول البيزنطى بمهاجمة سواحل شمال افريقيا الفاطمية وجزيرة صقلية من الشرق ، بينما يطبق الأسطول الأموى من قواعده — فى سبته والمرية — على هذه المناطق من ناحيتها الغربية . غير أن جيوش وأساطيل المعز الفاطمى ، تمكنت من إحباط هذا التحالف ، فانتصرت على الروم والأمويين معا سنة ٣٤٧هـ ، مما اضطر الامبراطور البيزنطى إلى عقد هدنة مع الفاطميين لمدة خمس سنوات (٣) .

تعاقب على جزيرة صقلية من بنى الحسن الكلبيين ، نحو عشرة ولاة ،

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٢٠٩ وأمارى : المكتبة العربية الصقلية ص ١٧٥ — ١٧٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٧٨ ، ٢٠٠ .

(٣) أمارى : المكتبة الصقلية ص ١٧٥ - عن تاريخ صقلية لمؤلف مجهول .

ابتداء من سنة ٣٣٦هـ . وقد شهدت الجزيرة خلال حكمهم تقدما كبيرا فى نواحى الحياة المختلفة ، ونجاحا فى التصدى لأطماع البيزنطيين ، واهتماما بالعمل على استقرار الأمور ، وتوطيد سيادة الفاطميين (١) .

وفضلا عما تقدم فإن الكلبيين ، وعلى رأسهم الحسن بن على الكلبى (٣٣٦–٣٤٢هـ) — تمكنوا منذ بداية حكمهم — من إرضاء أهل الجزيرة ، كما عمل هذا الوالى على توثيق الصلة بين وجوه صقلية والخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، فسار يصحبه ثلاثين رجلا منهم إلى الخليفة الفاطمى لمبايعته ، فأكرمهم وخلع عليهم (٢) .

أما عن « أحمد بن الحسن بن على الكلبى » الذى ولى صقلية سنة ٣٤٢هـ ، فكان كأبيه الحسن فى ولائه للخلافة الفاطمية ، كما اقتدى به فى سياسته خلال ولايته على هذه الجزيرة ، فتابع حركة الغزو والفتح فى حوض البحر المتوسط وخاصة فى قلورية ، وعمل على تدعيم النفوذ الفاطمى بالجزيرة (٣) . فأعاد فتح طبرمين ، واستولى على قلعتها الحصينة سنة ٣٥١هـ (٤) ، بعد أن حاصرها سبعة أشهر ، مما اضطر أهلها إلى طلب الأمان ، على أن يكونوا رقيقا وتصير أموالهم لهم . ثم أطلق عليها اسم « المعزية » نسبة إلى المعز لدين الله (٥) .

---

(١) أمارى : المكتبة الصقلية ص ١٧٥ .

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ١٠١ – ١٠٢ .

(٣) أبو الفدا : المرجع السابق جـ ٢ ص ١٠٢ ، والنويرى : نهاية الأرب بالمكتبة الصقلية ص ٤٣٨ .

(٤) أبو الفدا : نفس المصدر جـ ٢ ص ١٠٢

Camb Med Hist., Vol. 2, p. 387 & Vol, 4, p. 144

(٥) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٩٥ ، ٢٠٩ ؛ ابن خلدون : العبر بالمكتبة الصقلية ص ٤٦٤ ، ويروى أن الخليفة الفاطمى المعز هو الذى أمر بنفسه بتسمية طبرمين باسم المعزية . كما أن هناك خلافاً فى الرأى حول مدة حصار هذه المدينـــة . فابن الأثير : (جـ ٧ ص ٢٠٩ ، ٢٦٣) وأبو الفداء (المختصر جـ ٢ ص ١٠٦) =

وتبع ذلك استسلام بعض المدن للقوات الفاطمية ، بينما استنجد أهل مدينة رمطة (Rmetta) بالامبراطور البيزنطي نقفور فوكاس ٣٥٢هـ (٩٦٣م) (١).

كانت المنطقة الشرقية من جزيرة صقلية ، بما فيها مدينة رمطة ، لا تعترف إطلاقا بسلطان المسلمين على الجزيرة . وقد ظل هذا الوضع إلى آخر أيام السيادة الفاطمية على جزيرة صقلية . ولذلك لم يجد ولاة الجزيرة الفاطميين بدا من اكتفاء بقبول الجزية عن أهالى هذه المنطقة ، ووجهوا اهتمامهم إلى متابعة الفتح فى جنوب إيطاليا وقلورية ، فضلا عن التأهب لصد البيزنطيين وإحباط أى محاولة من ناحيتهم ، لاسترداد أى منطقة فى صقلية (٢) .

ولما بلغ « أحمد بن الحسن بن على الكلبى » ، استعداد البيزنطيين للهجوم على جزيرة صقلية ، طلب سنة ٣٥٣هـ إمدادات بحرية وبرية من الخليفة الفاطمى بافريقية ، ليدعم بها قواته فى مواجهة الهجوم البيزنطى المتوقع . فأمده المعز لدين الله ببعض النجدات ، لعلمه بالخطر الذى يتهدد السيادة الفاطمية على جزيرة صقلية ، وقد وصل الأسطول الفاطمى بقواته من افريقية إلى جزيرة صقلية ، قبل وصول الحملة البيزنطية المهاجمة . ثم دارت معركة عنيفة بين مسلمى الجزيرة يساوئهم القوات الفاطمية ، وبين مسيحيى الجزيرة يؤازرهم البيزنطيون ، وتمكن المسلمون بمساعدة الجند الفاطمى من إحراز النصر على القوات المعادية(٣) .

لقد رأى الفاطميون أن فتح مدينة رمطة بصقلية لا يقل أهمية عن فتحهم مدينة طبرمين . ولذلك سيروا إليها جيشا بقيادة « الحسن بن عمار بن على بن

= يذكران أن طبرمين فتحت بعد حصار ٧ أشهر بينما يذكر ابن خلدون أنه كان ٩ أشهر .

(١) العرينى : الدولة البيزنطية ص ٢٤٨ .

(٢) إحسان عباس : العرب فى صقلية ص ٢٨ .

(٣) القيروانى : المؤنس فى تاريخ إفريقية وتونس ص ٨٦ .

أبي الحسن الكلبي » (١) وقد اعتقد نقفور فوكاس امبراطور الروم ، أن كثرة قواته وضخامتها يضمنان النصر على قوات الفاطميين ، أما الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، لذلك اهتم بإرسال إمدادات من القوات البرية والبحرية إلى جزيرة صقلية ، لمعاونة قوات الحسن بن عمار المحاصرة لرمطه ، فوصلت إليها سنة ٣٥٣هـ (٢) . ثم قسمت القوات الفاطمية إلى قسمين ، أحدهما بقيادة الحسن ابن عمار الذى عهد اليه بمهمة حصار مدينة رمطة (٣) ، وثانيهما بقيادة الحسن ابن على الكلبي الذى عسكر بها فى بلرم (٤). وكانت القوات الفاطمية بصفة عامة — سواء تلك التى قدمت من افريقية ، أو التى كانت فى صقلية نفسها — حسنة الاعداد (٥).

كان البيزنطيون وقتذاك قد تأهبوا للزحف إلى صقلية ، بحملة كبيرة تولى قيادتها (مانويل) ، فوصلوا سنة ٣٥٣هـ (٩٦٤م) ، فى الوقت الذى كانت فيه رمطة محاصرة بقوات الحسن بن عمار (٦) . وقد استطاع البيزنطيون السيطرة على مسينا — وتبعد عن رمطة تسعة أميال — وذلك على أثر نزولهم أرض صقلية ، كما استولوا على ترميني (Termini) وغيرها من المدن الصقلية ، وحالوا دون وصول المدد إلى الحسن بن عمار ، الذى كان يحاصر رمطة . ولا غرو فقد ركزت الحملة البيزنطية جهودها على إنقاذ هذه المدينة والقضاء على قوات الحسن بن عمار ، الذى أدرك خطر زحف الروم على هذه المدينة (٧).

---

(١) سيرة جوذر : ص ١٠٣ وابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٩٩ .
(٢) ابن الأثير : المصدر السابق (المكتبة الصقلية ص ٣٦٣ — ٣٦٤) .
(٣) ابن الأثير : المصدر السابق بالمكتبة الصقلية ص ٣٦٤ .
(٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر : جـ ٢ ص ١٠٢ .
(٥) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٨٣ .
(٦) العريني : الدولة البيزنطية ص ٤٢٨ — ٤٣٠ .
(٧) ابن الأثير : جـ ٨ ص ١٧٣ — ١٨٤

على أن الحسن بن عمار ، لم يهتم بما بلغه عن كثرة قوات البيزنطيين ، وعمد إلى تقسيم جيشه — الذى كان يحاصر به رمطة — إلى أربعة أقسام : فجعل قسما منها لحصار رمطة نفسها ، والحيلولة دون اتصال أهلها بالبيزنطيين ، كما وضع قسمين أخرين على رأس الواديين اللذين يوصلان إلى هذه المدينة ، أما القسم الرابع فاتجه به الحسن بن عمار نفسه لمقابلة جيوش «منويل» الرئيسية الزاحفة على رمطة (١) .

واستطاعت قوات الحسن بن عمار ، التى حاصرت رمطة ، أن تحول دون اتصال أهل المدينة بالبيزنطيين . وعلى الرغم من أنها كانت أقل عددا وعتادا من قوات البيزنطيين ، فإنه لما دار القتال بين الفريقين ، أظهرت قوات المسلمين من الثبات والشجاعة والجرأة ، ما أذهل أعداءهم (٢) ، وكان منويل وجنوده يعتقدون أن النصر حليفهم لا محالة . فلما تجلى ثبات المسلمين أمامهم ، دب الهلع والفزع فى صفوف البيزنطيين ، واستطاع الحسن بن عمار وجنده أن يعملوا سيوفهم فى رقاب أعدائهم ، وانتهى الأمر بهزيمة القوات البيزنطية وقتل « مانويل » القائد البيزنطى (٣) .

وهكذا تمكنت القوات الفاطمية من إحراز نصر حاسم على البيزنطيين فى موقعة رمطة سنة ٣٥٣ — ٣٥٤ هـ ، كما غنمت منهم مغانم كثيرة أرسلت إلى المعز لدين الله فى افريقية (٤) . وكان لهذه الواقعة نتائج بعيدة الأثر ، إذ قررت

---

(١) حسن ابراهيم : الدولة الفاطمية ص ١٠٢ — ١٠٣ .

(٢) ابن الأثير : جـ ٨ ص ١٩٩ — ٢٠٠ والنويرى : نهاية الأرب « المكتبة الصقلية ص ٤٢٩ » .

(٣) ابن الأثير : نفس المصدر جـ ٨ ص ٢١٣ ، والنويرى : المصدر السابق ص ٤٣٩ — ٤٤٠ .

(٤) النويرى : نفس المصدر ص ٤٤٠ — ٤٤١ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٢٠٩ .

مصير الجزيرة بأكملها . لأن رمطة كانت مركزا رئيسيا للمقاومة البيزنطية في وجه الحكم الفاطمي بجزيرة صقلية .

ولما بلغ أحمد بن الحسن بن على الكلبي - والى صقلية - هزيمة الروم أمام القوات الفاطمية بقيادة الحسن بن عمار في رمطة ، مضى في عسكره إلى مسينا ، ليقضي على فلول البيزنطيين [١] ، فوجدهم قد رحلوا عنها ، فلحق بهم في منطقة المجاز سنة ٣٥٤ه (الخليج الذي يفصل صقلية عن إيطاليا) ، حيث أوقع بهم الهزيمة في موقعة المجاز [٢]. وبهذا النصر الذي أحرزته القوات الفاطمية في واقعتي رمطة والمجاز سنتي ٣٥٣ ، ٣٥٤ه (٩٦٤ ، ٩٦٥م) ، أصبح للأسطول الفاطمي شأن كبير في الحوض الغربي للبحر المتوسط [٣] . فأخذت المدن الثائرة في جزيرة صقلية تستسلم ، الواحدة بعد الأخرى ، كما دب الهلع والخوف في قلوب أهل قلورية ؛ فعقدوا هدنة مع أحمد بن الحسن الكلبي سنة ٣٥٤ه ، تعهدوا فيها بدفع جزية سنوية للفاطميين [٤] .

كما أن البيزنطيين أدركوا — بعد ذلك النصر الذي أحرزته القوات الفاطمية في كل من رمطة والمجاز — أنه لا سبيل لهم إلا مهادنة الفاطميين . فأنفذ الامبراطور البيزنطي «نقفور فوكاس» ، إلى الخليفة الفاطمي «المعز لدين الله» بالمغرب ، سفيرا عقد معه هدنة سنة ٣٥٦ (٩٦٧م) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٠٠

Camb. Med. Hist., Vol., 2, p. 387 – 388 & Vol. 4, p. 144.

(٢) ابن الأثير : المرجع السابق ، جـ ٨ ص ١٨٣ — ١٨٤ ، سرور ، سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٣٥ .

(٣) ابن خلدون : العبر - بالمكتبة الصقلية ص ٤٦٤ - .

(٤) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٢٠٩ [أو - بالمكتبة الصقلية - ص — ٤٨١ — ٤٨٢] .

وبعد أن تم توقيع هذه الهدنة أرسل المعز كتابا إلى عامله على جزيرة صقلية ، الأمير احمد بن الحسن الكلبي يطلب إليه الكف عن مهاجمة القوات والأملاك البيزنطية فى قلورية . كما طلب منه التحوط والحذر ، واستغلال فترة الهدنة فى بناء وتدعيم أسوار وحصون مدن صقلية وأن يبنى فى كل أقليم من أقاليم الجزيرة مدينة حصينة وجامعا ومنبرا ، وأن يأخذ (يأذن) لأهل كل أقليم بسكنى مدينتهم ، ولا يتركوا متفرقين فى القرى [١] . وقد قام أحمد بن الحسن بتنفيذ ما جاء فى رسالة المعز إليه ، فشرع فى بناء سور مدينة بلرم ، وبعث إلى وجوه الجزيرة ليباشروا العمارة فى نواحيها [٢] ، كلٌّ فى جهته .

أما عن الأحوال الداخلية فى جزيرة صقلية ، بعد ذلك النصر الذى أحرزته القوات الفاطمية ، فإن أحمد بن الحسن الكلبي ظل والياً عليها حتى سنة ٣٥٨هـ ، ثم عزله المعز لدين الله . ولا يبعد أن يكون قد لاحظ عليه ميلا إلى الاستبداد بأمور الجزيرة ، وولى مكانه « يعيش » مولى الحسن الكلبي (من سنة ٣٥٨ حتى سنة ٣٥٩هـ) [٣] . ومن المرجح أن الخليفة الفاطمى كان يرى إقصاء الكلبيين عن حكم صقلية حتى لا يستأثروا بالنفوذ فيها وخاصة بعد خروج جوهر الصقلى بجيوشه إلى مصر لفتحها [٤] .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب - من المكتبة الصقلية ص ٤٤١ - .

(٢) النويرى : المصدر السابق ص ٤٤١ ، ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٢٠٩ أو المكتبة الصقلية ص ٤٨١ — ٤٨٢ .

(٣) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٢٥ .

(٤) ذكر ابن الأثير أن يعيش تولى صقلية سنة ٣٥٩ هـ (ج ٧ ص ١١٩) والقيروانى يقول أنه تولى سنة ٣٥٢ هـ وكلا التاريخين غير صحيح فالصحيح أنه تولى سنة ٣٥٨ وظل حتى سنة ٣٥٩ هـ ، حيث عزل أنظر النويرى : المصدر السابق ص ٤٤١ — ٤٤٢ . والسبب أن الحالة السياسية بجزيرة صقلية فيما بين سنتى ٣٥٦ — ٣٥٨هـ لم تكن تحتمل مثل هذا التغيير ، حتى إذا أتم المعز لدين الله =

وكان والى صقلية لا يعتبر ولايته ولاية شرعية ، إلا بعد وصول سجل التولية وخلعة التقليد من الخليفة الفاطمى بمصر . وبمضى الزمن اتخذ الأمراء الكلبيون فى صقلية الألقاب مثل : ثقة الدولة ، وتاج الدولة ، وتأييد الدولة وصمصام الدولة (١) .

ولا شك أن الخلفاء الفاطميين كانوا يحرصون على مباشرة أمور الجزيرة الداخلية إذا استدعت ظروفها ذلك ، كما اهتموا بمتابعة أحوالها وأرضوا أفراد البيت الكلبى ، لقوة عصبيتهم بصقلية (٢) .

على أننا نستطيع أن نرجع نجاح أفراد « البيت الكلبى » فى الاحتفاظ لأنفسهم بحكم جزيرة صقلية ، تحت التبعية الفاطمية ، إلى سياستهم الداخلية الاصلاحية التى انتهجوها . فقد عملوا على إرضاء الفاطميين ، كما حرصوا على كسب ثقة المسلمين بصقلية ، بتصديهم للغارات البيزنطية التى شنت على الجزيرة فى عهدهم وفضلا عن ذلك ، فان الكلبيين عمدوا إلى مراعاة التوازن بين عناصر السكان بالجزيرة فلم يظاهروا أو ينصروا عنصرا على آخر .

على أن المعز ما لبث أن عدل عن فكرة إبعاد «الكلبيين» عن حكم صقلية ، بعد

= الهدنة مع نقفور وهدأت الأحوال نسبيا ، أصبح المعز فى وضع يمكنه فيه اتخاذ قرار بمحاولة إبعاد البيت الكلبى عن حكم الجزيرة وتوليته أحد مواليهم (يعيش) . ومما يثبت كذلك خطأ تاريخ القيروانى «٣٥٣ هـ» أنه لم يكن من الحكمة أن يقدم المعز — وهو الخليفة الكيس الفطن — على إبعاد الأسرة الكلبية عن حكم الجزيرة سنة ٣٥٣ هـ فى وقت يقود أفرادها صراعاً مقدساً فى نظر المسلمين وقتذاك ، ضد البيزنطيين فى رمطة والمجاز .

(١) حسن محمود : تاريخ الغرب الإسلامى ص ١٢١ — ١٢٢ .

(٢) سيرة جوذر : ص ١٢٣ — ١٢٤ .

أن فشل (يعيش) فى إخماد فتنة قامت بين كتامة و بعض القبائل بصقلية(١). فعاد وأسند إليهم بعض المناصب الكبرى فى الدولة الفاطمية ، وولى (أبى القاسم بن الحسن الكلبى) ولاية الجزيرة، وفى عهده استقرت الأمور فى أنحاء صقلية(٢).

ولما انتقل المعز لدين الله إلى مصر سنة ٣٦٢هـ ، واتخذ القاهرة مقراً لخلافته ، صار يلى أمور صقلية والى مستقل عن ولاية افريقية والمغرب ، وقد أجيز لهذا الوالى الرجوع إلى الخليفة الفاطمى مباشرة فى تصريف شئون ولايته (٣).

وقد بدأ أبو القاسم بن الحسن الكلبى إمارته فى صقلية بتحصين حدود ولايته الشمالية ، ثم خرج بعد ذلك لغزو ممتلكات الروم فى قلورية وجنوبى إيطالية (٤) . ولم يقف الخليفة المعز لدين الله مكتوف اليدين ، إزاء ما قام به (أبو القاسم الكلبى) وما أبداه من همة ونشاط هجومى واسع النطاق، على أراضى الدولة البيزنطية سنة ٣٥٩هـ فى قلورية وجنوبى إيطاليا ، بل عمل على إمداده بحاجته من المؤن والعتاد والقوات (٥).

وقد استمر أبو القاسم بن الحسن الكلبى ، والياً على صقلية ، حتى توفى سنة ٣٧٢هـ (٩٨٢ — ٩٨٣م) ، فى غزوته الخامسة لجنوبى إيطاليا . فى

---

(١) أبو الفدا : المختصر جـ ١ ص ١٠٢ (بالصقلية ص ٤٠٧ — ٤٠٨) والقيروانى : المؤنس ص ٨٦ ، وابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢١٩ ، والنويرى : نهاية الأرب / بالمكتبة الصقلية ص ٤٤١ — ٤٤٢ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢١٩ ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٢٠٩ .

(٣) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٠٥ .

(٤) حسن ابراهيم : المعز لدين الله ص ٦٣ ، حسن محمود : تاريخ المغرب الاسلامى ص ١٣٠ .

(٥) سيرة جوذر : ص ١٠٣ — ١٠٤ .

عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمى (٣٦٥ - ٣٨٦هـ) [١] . وكان أهم عمل قام به هذا الوالى أيام خلافة المعز لدين الله ، هو توحيده جهود القوات الفاطمية بصقلية إزاء الخطر الجرمانى [٢] . يقول ابن عذارى : « وفى سنة ٣٧٢هـ - قتل أمير صقلية ، أبو القاسم على بن حسن ، فى قتاله مع الفرنج ، بعد ولاية دامت إحدى عشرة سنة ، ثم ولى ابنه جابر سنة واحدة [٣]» — أى من سنة ٣٧٢ حتى سنة ٣٧٣هـ — . وكان (جابر بن أبى القاسم بن على بن الحسن الكلبى) مستبدا خلال ولايته الجزيرة ، لذلك لم يستمر طويلا حاكما لصقلية . بل سرعان ما عزل عنها وخلفه (جعفر بن محمد بن الحسن الكلبى) ، الذى ظل والياً على صقلية من قبل الفاطميين حتى سنة ٣٧٥هـ [٤] .

وفى خلافة (العزيز بالله الفاطمى) شهدت الجزيرة عهداً يتسم بالأمن والاستقرار ، أثناء ولاية الأمير أبى الفتوح بن يوسف الملقب (ثقة الدولة) (٣٧٩ — ٣٨٨هـ) ، الذى ضبط أمور الجزيرة وأحسن معاملة الرعايا [٥] . « وحسنت فى عهده الأحوال ، وأنسى (فاق) بجلائله وفضائله كل من كان قبله من بنى أبى الحسين (الكلبيين) » . لكن أبا الفتح يوسف اعتزل منصب الولاية لمرض أصابه . ثم خلفه ابنه تاج الدولة جعفر بن ثقة الدولة أبى الفتوح بن يوسف [٦] .

(١) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٣٤٠ ، ابن خلدون : العبر/بالمكتبة الصقلية ص ٤٨٢ .

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ٢ ص ١٠٣ ، والنويرى : نهاية الأرب / بالمكتبة الصقلية ص ٤٤٣ .

(٣) ابن عذارى : البيان جـ ١ ص ٢٤٠ (ط . بيروت) ، ابن خلدون : العبر بالمكتبة الصقلية ص ٤٨٢ — ٤٨٣ .

(٤) القيروانى : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ص ٨٦ ، ابن عذارى : المصدر السابق جـ ١ ص ٣٥١ .

(٥) النويرى : نهاية الأرب / بالمكتبة الصقلية ص ٤٤٢ .

(٦) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٢١٠ .

لكن هذا الأمير لم يكن كأبيه ، فأساء معاملة أهل الجزيرة ، مما دفعهم إلى التمرد عليه وعلى عماله فخرج إليهم أبوه يوسف محمولا فى محفة لمرضه ، (وشرط للناس عزله)(١) وسكنتهم(٢) ، وقدم عليهم أخاه (تأييد الدولة أحمد بن يوسف بن عبد الله بن محمد بن الحسن الكلبى) — وهو المعروف بالأكحل) (٣) .

ولما ولى (أحمد الأكحل) أمور صقلية سنة ٤١٠هـ (١٠١٩ — ١٠٢٠م) أثار الانقسام بين سكانها من المسلمين ، فأغرى أهل صقلية بالعمل على إخراج الأفريقيين من بلادهم ، فقالوا له : « قد صاهرناهم (أى الأفريقيين) وصرنا شيئا واحدا » (٤) . ثم بذل محاولته مع الأفارقة ونجح فى اجتذابهم إليه فالتفوا حوله (٥) . وظل (أحمد الأكحل) يؤثرهم على أهل صقلية ، فيأخذ الخراج من الصقليين ويستبدبهم ، حتى ضاق الحال بأهل الجزيرة ، خاصة بعد أن استخلف عليهم ابنه على بن احمد بن يوسف) الذى أساء معاملتهم ، فسار جماعة منهم إلى المعز بن باديس بأفريقية سنة ٤٢٧هـ ، وشكوا إليه ما حل بهم (٦) .

---

(١) أى أنه وافق أهل صقلية على عزل ابنه أبى الفتوح بن يوسف .

(٢) أى هدأ من ثورتهم .

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ١٠٣ ، والقيروانى : المؤنس ص ٨٦ — ٨٧ .

(٤) النويرى : نهاية الأرب «بالمكتبة الصقلية ص ٤٤٤ — ٤٤٥» ابن خلدون ، المصدر السابق ص ٤٨٣ .

(٥) حسن ابراهيم : الإسلام السياسى جـ ٤ ص ٢٤٠ .

(٦) القيروانى : المؤنس ص ٨٦ — ٨٧ وابن خلدون : العبر / بالمكتبة الصقلية ص ٤٨٢ » ، وسرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٣٦ .

استجاب المعز بن بن باديس لأهل صقلية ، فأرسل إليهم إبنه «عبد الله» على رأس ثلاثة آلاف فارس ، حاصر بهم « الأكحل » وقتله (١) . لكن فريقا من الصقليين ما لبثوا أن تمردوا على « عبد الله بن المعز بن باديس » ، الذى جاء لنجدتهم وإنقاذهم من عسف « أحمد الأكحل » ، واستعانوا بالنورمان الذين كانوا وقتذاك فى جنوب إيطاليا . وساد الاضطراب والفوضى أنحاء الجزيرة فى عهد ولاية « الحسن بن يوسف » ، الذى خلف أخاه « أحمد الأكحل » ، وساعد النورمان أهل صقلية ، على طرد هذا الوالى (٢) .

لقد ساد الاضطراب جزيرة صقلية، بعد أن استبد كل ثائر بجهته فانفرد القائد « عبد الله بن منكوت » — أو منكود — بمازره (Mazara) واستقل « عبد الله بن الحواس » بقصريانة وجرجنت وغيرهما ، واستولى « محمد بن ابراهيم بن الثمنة » سنة ٤٣١هـ على سرقوسة (Syracuse) وبلرم وقطانية (Catane) . وتلقب بالقادر بالله . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن الفتنة امتدت إلى الثائرين أنفسهم . وانقسمت صقلية بذلك إلى عدة ولايات منفصلة ، واستنجد « ابن الثمنة » بالنورمان ، مما أدى إلى توجيه أنظارهم إلى صقلية ، لوقوفهم على تشتت قوة المسلمين فيها (٣) . فرأى ملكهم روجر فى

(١) أبو الفدا : المختصر / بالمكتبة الصقلية ص ٤١١ ، وابن خلدون . العبر / بالمكتبة الصقلية ص ٤٨٣ - ٤٨٤ ، حسن محمود : تاريخ المغرب الإسلامى ص ١٢٣ .

(٢) القيروانى : المصدر نفسه ص ٨٧ .

(٣) القيروانى : المؤنس فى تاريخ إفريقية وتونس ٨٧ . وقد ورد تفصيل هذه الفتنة فى النويرى (نهاية الأرب / بالمكتبة الصقلية ص ٤٤٥) ، وابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢١٠ ، والنص عند ابن خلدون مختلف عما عند النويرى . إذ يجعل عبد الله بن الحواس ، مستبداً بمازر وطرابنش وليس بجراتسى =

ذلك فرصة سانحة للقضاء على سيطرة الفاطميين على صقلية ، وإزاحتهم من حوض البحر المتوسط [١] .

ولا شك أن النزاع الذى ساد بين أمراء المسلمين فى صقلية ، شجع البيزنطيين ثم النورمنديين على غزوها . ففيما يتعلق بالبيزنطيين نجد أنهم شرعوا فى غزوها أيام الأمبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤ – ١٠٤٤م / ٤٢٥ – ٤٣٦هـ) فجرد عليها حملتين أولاهما سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) ، وهذه لم تحرز نجاحا يذكر ، بل يمكن القول أنها فشلت تماما . أما الحملة الثانية فكانت فى السنة التالية مباشرة (أى سنة ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م) ، وهذه استولت على مسينا (Messina) ومعظم البلاد الواقعة على الساحل الشرقى للجزيرة . لكن المسلمين تمكنوا بعد ذلك من استرداد هذه البلاد من أيدى البيزنطيين [٢] .

أما عن النورمنديين فإنهم وقفوا على الاضطرابات التى سادت صقلية . فلما قام الخلاف بين « تميم بن المعز بن باديس » وبين أهلها ، إتخذوا من ذلك فرصة لغزو هذه الجزيرة والاستيلاء عليها . واستمرت الحرب مستعرة بينهم وبين مسلمى صقلية حتى اضطر المسلمون إلى التخلى عنها [٣] . وقد بدأ غزو النورمان لصقلية باستيلاء « روجر بن تنكرد » على مسينا سنة ٤٥٢هـ (١٠٦٠م) [٤]. ثم سقطت بلرم سنة ٤٦٣هـ (١٠٧١م) ثم سرقوسة

=(جراسيا Geracie) وقصريانه . هو فى الغالب سهو ، إذ لم يلبث ابن خلدون أن صحح التسمية بعد ذلك بسطرين تماماً راجع ابن خلدون . العبر ج ٤ ص ٢١٠ .

(١) ابن أبى دينار (القيروانى) : المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس ص ٨٧

(٢) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٣٦

Camb. Med Hist. & Vol. 4, p. 150.

(٣) حسن ابراهيم : الإسلام السياسى ج ٤ ص ٢٤٠ ،

(٤) محمد مختار باشا : التوفيقيات الإلهامية ص ٢٤٢ ، وحسن ابراهيم : الدولة الفاطمية ص ٢٥٦ .

سنة ٤٧٧ — ٤٧٨هـ (١٠٨٥ م) وفى سنة ٤٨٣هـ (١٠٩٠م) تمكن روجر من السيطرة على جزيرة مالطة [١] ، وفى العام التالى (٤٨٤هـ / ١٠٩١م) استطاع أن يستولى على جميع أرجاء جزيرة صقلية .

لقد نتج عن الفتح النورمندى لجزيرة صقلية أن أصبحت السفن التجارية لدول أوربا — الصادرة منها والواردة إليها — تسير محملة بالبضائع فى البحر المتوسط ، آمنة من أى خطر يتهددها . هذا إلى جانب استمرار ورود السفن الإيطالية إلى موانى مصر الفاطمية [٢] .

كما أن الفتح النورمندى لهذه الجزيرة لم يؤدى إلى انقطاع العلاقات التجارية بينها وبين مصر فى العصر الفاطمى . فظل تجار صقلية يفدون إليها ويعاملون معاملة طيبة تنطوى على الود والرعاية ، وفضلا عن ذلك فإن «روجر بن تنكرد» صاحب صقلية عقد معاهدة تجارية مع الخليفة الفاطمى [٣] .

وكانت المعاملة الطيبة التى لقيها المسلمون فى صقلية بعد استيلاء النورمان عليها رداً من روجر بن تنكرد على حسن معاملة المسلمين — إبان سيطرتهم على الجزيرة — لمسيحيى الجزيرة ، وذلك على عكس ما حدث لمسلمى كريت حين سقطت فى يد الروم سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) .

---

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب ج ٢ ص ٧١٩ .

(٢) سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ص ١٥٤ وراشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ١٢٢ .

(٣) Heyd : Hist. du Commerce, Tome, I, p. 392.

الباب الثالث

الفاطميون بمصر والشـــام

ونشاطهم فى حوض البحر المتوسط

---

١ — اهتمام الفاطميين فى مصر بإعداد القوات البحرية

٢ — الموانى المصرية : الاسكندرية — دمياط — تنيس

٣ — الموانى الشامية : صيدا — صور — عسقلان — طرابلس — عكا

الباب الثالث

الفاطميون بمصر والشام

١ - اهتمام الفاطميين في مصر باعداد القوات البحرية

امتد سلطان الفاطميين إلى مصر منذ أن تم فتحها على يد القائد جوهر الصقلى سنة ٣٥٨هـ ، وأصبحت القاهرة حاضرة الخلافة الفاطمية بعد أن انتقل اليها المعز لدين الله الفاطمى سنة ٣٦٢هـ (٩٧٣م) (١). وكانت الضرورة السياسية والحربية تحتم على الفاطميين ، بعد أن توطدت سلطتهم فى مصر ، أن يشرعوا فى فتح بلاد الشام . فعمل جوهر الصقلى على فتح هذه البلاد ، رغبة فى تأمين حدود مصر من ناحية الشمال الشرقى ، فضلا عن الوقوف فى وجه البيزنطيين ، وقرامطة بلاد البحرين الذين امتد نفوذهم إلى تلك البلاد فى أواخر عهد الإخشيديين (٢) .

وهكذا أصبح لزاما على الفاطميين ، بعد أن امتد سلطانهم إلى بلاد الشام ، أن يوجهوا اهتمامهم إلى تجهيز قواتهم البحرية ، بكل ما يلزمها من مؤن وعتاد ، كما حرصوا على إبقاء وحدات من أسطولهم بالموانى المصرية والشامية وبخاصة فى كل من الاسكندرية ودمياط وصور وعكا (٣) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٣٤ ، ٤٢ ، ١٠٧ « حوادث ٣٦١ هـ » أو المكتبة الصقلية ص ٢٦٧ — وابن عذارى ، البيان جـ ١ ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

(٢) الأنطاكى : تاريخ سعيد بن بطريق ص ٤٥٢ (١٤٤) ، سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١١٧ .

Stanley Lane - Poole : The Story of Cairo p. 119 - 120.

(٣) عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ص ٢١٩ .

لم يواجه النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام خطراً بحريا يهدده ، خلال الفترة من ٣٦٤هـ — ٣٨٥هـ (٩٧٥ — ٩٩٥م) ، بل ظل الفاطميون محتفظين بمركزهم المتفوق فى الشام . ونستطيع أن نرجع ذلك إلى ما كانت تعانيه وقتذاك البحرية البيزنطية من الضعف وعدم اهتمام أباطرة البيزنطيين بالحوض الشرقى للبحر المتوسط (١) .

وإذا كان الفاطميون قد وجهوا عنايتهم إلى إعداد جيش قوى يكون عدة لهم ، ضد أعدائهم داخليا وخارجيا ، فانهم اهتموا فى نفس الوقت — عقب فتحهم مصر والشام — بإنشاء أسطول قوى (٢) ، يتولى حماية هذه البلاد من غارات الروم(٣) ، هذا فضلا عن حرصهم على السيطرة على سواحل الشام .
وقد بلغ من اهتمام الفاطميين فىمصر والشام، بالقوات البحرية ، أن أصبح لهم فى كل ميناء أو مرفأ فى تلك البلاد منار لهـــداية السفن ، أطلق عليه — الخشب — (٤) ، كما كان لكل سفينة « قائد » أو « مقدم » ، يرأس من يعمل فيها من الجند ، ويقوم بتدريبهم وإعداد العدة للحملات البحرية . وإلى جانب هذا القائد موظف آخر يدعى « الرئيس » ، مهمته تولى الملاحة فقط . كذلك كان هناك « القائد العام » للأسطول ، ويسمى « أمير البحر أو أمير الأسطول أو أمير الماء » (٥) .

وكان الخليفة الفاطمى يشرف بنفسه على دفع نفقات الأسطول . وفى

---

(١) سرهنك : حقائق الأخبار جـ ٢ ص ١٣٨ ، أرشيبالد : القوى البحرية ص ٣٠٤ .

(٢) سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية ص ٢١٧ — ٢٧٢ .

(٣) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى جـ ١ ص ٢١٦ .

(٤) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ١٩٢ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥٢٣ — ٥٢٤ .

(٥) المقريزى : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٩٤ (ط . بولاق) .

ذلك يذكر المقريزى(١) ، «أن الخليفة الفاطمى كان يحضر إلى ساحل المقس، ويجلس الوزير إلى جواره ، ويحضر صاحب الجيش ، وكاتب الجيش ، والوزانون من بيت المال ومعهم الأموال . ثم يدخلون البحارة ، كل مائة مع بعضهم ، ممن يؤدون أعمالا واحدة أو متشابهة ، فيقفون بين يدى الخليفة » ، ويقرأ مستوفى الجيش (٢) أسماءهم واحدا واحدا من الكشوف التى دونت بها . فإذا نودى اسم البحار عبر إلى الجانب الآخر ، وإذا بلغ عددهم عشرة ، وزن الوزانون نفقتهم (رواتبهم) ، ويعطى كل منهم (راتبا قدره) خمسة دنانير . فإذا دفعت نفقات الجند عن آخرها تجهزت السفن وأخذت أهبتها للسفر » .

وقد نوه « القلقشندى » باهتمام الخلفاء الفاطميين بالأسطول والقوات البحرية بقوله (٣) : « .. أما اهتمامهم بالأساطيل وحفظ الثغور ، واعتناؤهم بأمر الجهاد ، فكان ذلك من أهم أمورهم ، وأجل ما وقع الاعتناء به عندهم . وكانت أساطيلهم مرتبة بجميع بلادهم الساحلية : كالإسكندرية ودمياط من الديار المصرية ، وعسقلان وعكا وصور من السواحل الشامية ، حيث كانت بأيديهم قبل أن يغلبهم عليها الفرنج » .

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٨٣ (ط . بولاق) أو ج ٢ ص ٢٧٢ — ٢٧٣ (ط . بيروت) .

(٢) المستوفى : من كتاب الأموال بالدواوين ، مهمته ضبط الديوان التابع له ، والتنبيه على ما فيه مصلحته . من استخراج الأموال ونحو ذلك . ومن المستوفين « مستوفى الصحبة » وهو يشارك الوزير ويعاونه فى الأموال العامة مثل كتابة المراسيم وتسجيلها . ومثله فى النفوذ — مستوفى الدولة — ، وكان لكل ديوان رئيس أو ناظر ، وتحته المستوفى والشاد . راجع القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٦ .

(٣) القلقشندى : المصدر السابق ج ٣ ص ٥٢٣ — ٥٢٤ ، والمقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٧٧ (ط . بيروت) .

لقد عنى الخليفة المعز لدين الله، منذ قدم إلى مصر سنة ٣٦٢هـ ، عناية كبيرة بإنشاء الأساطيل وإعداد القوات البحرية ، فأكثر من صناعة السفن الحربية وعمل على تحصين ثغوره البحرية [١] . كما أنشأ هذا الخليفة فى « المقس » [٢] ، داراً لصناعة السفن بنى فيها هو والخليفة « العزيز بالله » من بعده ، نحو ستمائة مركب حربى من مختلف الأنواع ، وصفها المقريزى بقوله : « أنه لم ير مثلها فيما تقدم كبراً ووثاقة (ضخامة وجودة) وحسنا[٣] » . كما قال أيضا : « أنه لم ير مثلها فى البحر على مينا » [٤] . ومن الراجح أن المعز لدين الله لم يهمل دار صناعة السفن بالفسطاط ، وهى التى كانت تسمى « دار صناعة مصر » ، فضلا عن اهتمامه بإقامة دور جديدة لهذه الصناعة فى موانى مصر الهامة على البحر المتوسط ، مثل الأسكندرية ودمياط .

ظلت دار صناعة السفن بالجزيرة (جزيرة الروضة) بمصر ، محتفظة بمكانتها — طوال العصر الفاطمى بمصر ، وذلك على الرغم من تأسيس دار

---

(١) سرهنك : حقائق الأخبار جـ ٢ ص ١٣٩ .

(٢) راجع ياقوت ، معجم البلدان جـ ٣ ص ١٢٢ . وقد جاء فيه . (أن المقس ضيعة تعرف باسم « أم دنين » تقع على ساحل النيل . وقد جعلها المعز مرفأ صناعيا ، وأنشأ فيها الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى (٣٨٦ — ٤١١ هـ) جامع « المقس » . وقد عرفت فى أول الأمر باسم « المكس » نسبة للدراهم التى كانت تؤخذ من بائعى السلع فى الأسواق لاقامة صاحب العشار بها . ثم قلبت الكاف إلى قاف (ق) فقيل « المقس » ، راجع : أيضاً سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ص ٣١٦ .

(٣) المقريزى : خطط جـ ١ ص ١٩٧ (ط . بيروت) ، حسن إبراهيم : الاسلام السياسى جـ ٤ ص ٢٧٤ .

(٤) المقريزى : المصدر السابق جـ ٢ ص ١٩٥ .

صناعة المقس، التي أضحت تحتل مركزا مرموقا ، بين دور صناعة مصر في العصر الفاطمي [١] .

ولا شك أن المعز لدين الله الفاطمي ، كان يرمي من بناء السفن الحربية ، إلى تحقيق عدة أغراض بالنسبة للخلافة الفاطمية ، وخاصة بعد أن أصبحت مصر مقرا لها . فقد حرص على إعداد هذه القوة ، لدرء أي خطر يهدد دولته من ناحية سواحلها الشمالية والشرقية ، فضلا عن رغبته في الابقاء على نفوذ خلافته في الحوض الشرقي للبحر المتوسط [٢] .

وقد وصف المقريزي عناية المعز لدين الله الفاطمي بأساطيله وصفا مسهباً فقال [٣] « لما سار الروم إلى البلاد الشامية بعد سنة خمسين وثلثمائة ، اشتد أمرهم بأخذهم البلاد ، وقويت العناية بالأسطول في مصر منذ قدم المعز لدين الله وأنشأ المراكب الحربية ، واقتدى به بنوه . وكان لهم اهتمام بأمور الجهاد واعتناء بالأسطول . وواصلوا إنشاء المراكب بمدينة مصر والاسكندرية ودمياط عن الشواني الحربية والشلنديات والمسطحات ، وتسييرها إلى بلاد الساحل مثل صور وعكا وعسقلان ، وكانت في أيام المعز لدين الله تزيد على ٦٠٠ قطعة » .

وقد ظهرت نتائج اهتمام المعز لدين الله الفاطمي بالأساطيل ، فيما قام به الأسطول الفاطمي ، في مصر من دور هام في الحروب التي دارت بين الفاطميين والقرامطة ، فيما بين سنتي ٣٦٠ هـ و ٣٦٧ هـ — أي في خلافتي المعز لدين الله والعزيز بالله — فاستطاع أسطول مصر الفاطمي إعداد الحاميات المحاصرة

---

(١) المقريزي : خطط ج ١ ص ٤٢٨ (ط . بولاق) ، يقابلها ج ٣ ص ١١٣ — ١١٤ (ط . بيروت) .

(٢) حسن إبراهيم : المعز لدين الله ص ١٨٦ .

(٣) المقريزي : خطط ج ٢ ص ١٩٣ (ط . بولاق) وراجع أيضاً : ناصر خسرو : سفر نامة ص ٤٧ .

من وحدات القوات البحرية الفاطمية بالشام ، بالمؤن والذخائر ، مما كان سبباً فى إحرازهم النصر على القرامطة .

وقد استطاعت الدولة الفاطمية ، فى عهد الخليفة المعز لدين الله ، بفضل أسطولها ، أن تصـــل إلى أقصى ما وصلت إليه من قوة ونفوذ وهيبة ، فى الحوض — الشرقى للبحر المتوسط . فصدت قواتها البحرية هجوماً بيزنطياً على طرابلس الشام سنة ٣٦٤[١]، ولما توفى الخليفة المعز لدين الله سنة ٣٦٥هـ وخلفه ابنه العزيز بالله ، اقتدى بأبيه فى الاهتمام بالأسطول وإعداد القوات البحرية ، واستطاع الفاطميون فى عهده الاحتفاظ بسيطرتهم على موانى مصر والشام[٢].

فقد اهتم العزيز بالله بتدعيم دور صناعة السفن بالمقس والاسكندرية ودمياط ، وعمل على توفير ماتحتاجه من المواد اللازمة لبناء السفن من أخشاب وحديد[٣] فأمر وزيره « عيسى بن نسطورس » بإنشاء سفن جديدة بدار صناعة « المقس » ، ليدعم بها الأسطول الفاطمى فى مصر والشام[٤] .

وكان الفاطميون يجلبون الأخشاب اللازمة لصناعة السفن من مناطق الغابات الموجودة فى كثير من مناطق الصعيد بمصر[٥]. لكن نظراً لأن إنتاج

---

(١) الانطاكى : تاريخ سعيد بن بطريق ص ٣٦٨ — ٣٧٠ (١٦٠ — ١٦١)
(٢) المصدر السابق : ص ٤٤٧ (٢٣٩) .
(٣) سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٤٩ — ١٥٠ .
(٤) الانطاكى : المصدر السابق ص ٤٤٣ — ٤٤٨ ، المقريزى : خطط جـ ٣ ص ١١٣ — ١١٤ (ط بيروت) ، يقابلها جـ ١ ص ٤٢٨ ، جـ ٢ ص ١٩٥ — ١٩٦ ط بولاق .
(٥) المقريزى : خطط جـ ١ ص ١٩٣ ، حسن إبراهيم : الاسلام السياسى جـ ٤ ص ٣٩٤ .

البلاد من الخشب لم يكن يكفى حاجة دور صناعة السفن بالدولة الفاطمية ، لذلك عمل الفاطميون إلى استيراد الأخشاب من أوربا عن طريق التجار البنادقة ، وكثيراً ما تدخل أباطرة الدولة البيزنطية لمنع المدن الايطالية ، من تصدير الأخشاب إلى الدولة الفاطمية بمصر(١) . واشترطت الدولة البيزنطية أن يكون ما يصدره البنادقة لمصر من خشب ، من نوع اللبخ والسنديان والكافور ، وألا يتجاوز طول اللوح عن خمسة أقدام فى عرض نصف قدم فقط(٢) .

ولا شك أن هذا القرار ، الذى اتخذته الدولة البيزنطية ، كان له أثر سىء فى مصر . فخفت حدة النشاط فى دور صناعتها ، ووجد «عيسى بن نسطورس» الوزير الفاطمى صعوبة بالغة فى جميع الأخشاب ، حين أراد أن ينشىء أسطولا فاطمياً جديداً ، مكان المراكب التى احترقت فى ١٢ ربيع الثانى ٣٨٦ هـ (٤ مايو ٩٩٦ م) بتدبير عملاء الدولة البيزنطية من تجار مدينة «أمالفى Amalfi» الايطالية(٣) .

وقد أمدنا كل من يحيى بن سعيد الأنطاكى ، والمقريزى ، بتفصيلات وافية عن حادث إحراق المراكب الفاطمية الراسية فى ميناء المقس سنة ٣٨٦ هـ(٤) ، فذكرا « أن نارا وقعت فى الأسطول ، وقت صلاة الجمعة لست بقين من شهر ربيع الآخر ، فأحرقت خمس عشاريات ، وأتت على جميع ما فى الأسطول من العدة والسلاح ، حتى لم يبق منه سوى ستة مراكب

---

(١) سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٥٠ .
(٢) آدم متز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ٣١٥ — ٣٦٤ .
(٣) يسميم الأنطاكى ـ الملافظة ـ أو القلافطة .
(٤) الأنطاكى : تاريخ سعيد بن بطريق ص ٤٤٣ — ٤٤٨ ، المقريزى : خطط جـ ٣ ص ١١٣ — ١١٤ (ط . بيروت) يقابلها جـ ٢ ص ١٩٥ — ١٩٦ (ط . بولاق) .

فارغة لاشيء فيها. فحمل البحريون السلاح، واتهموا الروم النصارى، وكانوا مقيمين فى « دار فاتك » — بجوار دار الصناعة بالمقس — وحملوا على الروم، هم وجموع من العامة معهم، فنهبوا أمتعة الروم وقتلوا منهم مائة وسبعة رجال، وطرحوا جثثهم فى الطرقات، وأخذ من بقى فحبس بصناعة المقس، ثم حضر عيسى بن نسطورس ومعه أبو الحسن يانس الصقلي، ومسعود الصقلي متولى الشرطة. وأحضر الروم من الصناعة، فاعترفوا (أى الروم) بأنهم الذين أحرقوا الأسطول، فكتب (عيسى بن نسطورس) بذلك إلى العزيز بالله الفاطمى وهو مبرز يريد السفر إلى الشام، وذكر له فى الكتاب خبر من قتل من الروم وما نهب وأنه ذهب فى النهب مايقرب من تسعين ألف دينار، فطاف أصحاب الشرط — (الشرطة) فى الأسواق ونادوا برد مانهب من دار فاتك وغيرها والتوعد لمن ظهر عنده منه شيء، وحفظ أبو الحسن يانس الصقلي البلد وضبط الناس ».

ولما أتم عيسى بن نسطورس بناء أسطول آخر[1]، أبحر إلى أنطرطوس[2] بقيادة « رشيق العزيزى[3] »، لنجدة القائد الفاطمى منجوتكين[4]، غير أن

---

(١) المقريزى: خطط جـ ٣ ص ١١٣ — ١١٤ (ط. بيروت). ويذكر الأنطاكى أن عدد ما بنى من سفن بعد الحريق بلغ نحو ٢٤ مركبا، راجع الأنطاكى تاريخ سعيد بن بطريق ص ٤٤٧ — ٤٤٨.

(٢) أنطرطوس: بلدة ساحلية من أعمال طرابلس بلبنان، على ساحل البحر المتوسط، قال عنها ياقوت (هى آخر أعمال دمشق الساحلية وأول أعمال حمص، وكان بها حصن بحرى منيع)، راجع ياقوت: معجم البلدان جـ ١ ص ٣٥٩ مادة انطرطوس.

(٣) المقريزى: خطط جـ ٣ ص ١١٣ — ١١٤ (ط. بيروت)

(٤) أبو شجاع ذيل تجارب الأمم ص ٢١٧، وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١١٨، ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ٦٢.

معظم سفنه مالبثت أن تحطمت بالقرب من طرابلس الشام ، بسبب عاصفة هبت عليها وأسر الروم بعض رجال الأسطول المصرى[1] .

كانت مراكب الأسطول الفاطمى تبنى أيضا فى دار صناعة الجزيرة بالروضة ، إلى جانب دار صناعة المقس ، غير أن الخليفة « الحاكم بأمر الله » عمل على أن يكون انشاء الشوانى والمراكب النيلية الديوانية بصناعة مصر ، وأنشأ بها منظرة لجلوس الخليفة ، وأقر انشاء الحربيات والشلنديات بصناعة الجزيرة . وكان لهذه الصناعة دهليز مار بمصاطب مفروشة بالحصر ، وفيها محل « ديوان الجهاد » . . . وكان لايدخل أحـــد من باب هذه الصناعة إلا الخليفة والوزير[2] .

واصل الفاطميون فى عهد الخليفة « الحاكم بأمر الله » العناية بأساطيلهم بعد توقيع معاهدة الصلح مع الأمبراطور البيزنطى « باسيل الثانى » سنة ٣٨٩هـ ، لاعتقادهم أن البيزنطيين غير جادين فى هدنتهم أو صلحهم، الذى عقدوه معهم. ومن ثم بذل الفاطميون جهدهم لدعم قواعدهم البحرية فى الشام والعناية بالأسطول طوال فترة الهدنة (من سنة ٣٨٩ هـ إلى سنة ٤٠٩ هـ) التى سادها هدوء نسبى بسبب تلك المعاهدة[3] .

ولم تلبث مخاوف الفاطميين ، من غدر البيزنطيين ، أن تحققت حين لجأ الأمبراطور البيزنطى سنة ٤١٦هـ (١٠٢٥ م) ، إلى تأليب حكام كل من صور وطرابلس ، ومساعدتهم على شق عصا الطاعة عليهم ، غير أن الأسطول

---

(١) سرور : سياسة الفاطميين ص ١٤٦ — ١٤٧ و ٢٤١ .

(٢) المقريزى : خطط ج ٣ ص ١١٤ — ١١٥ (ط . بيروت) .

(٣) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١١٢ (ط . بولاق) ، يقابلهـــا ج ٣ ص ٤٩٠ — ٤٩٢ (ط . بيروت) ، وسعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية ص ٩٨ .

الفاطمى بمصر تصدى للتمرد الذى حدث ، كما أوقع الهزيمة بالسفن البيزنطية فى مياه طرابلس وصور[١] .

ولما ولى « الآمر بأحكام الله الفاطمى » الخلافة (٤٩٥ — ٥٢٤هـ/١١٠١ — ١١٣٠م) ، سار على نهج أسلافه فى الاهتمام بالأساطيل والقوات البحرية . فأمر وزيره « المأمون البطائحى » بإنشاء السفن من الشوانى ، والمراكب النيلية ، بدار صناعة مصر . أما المراكب الحربية ، فصارت تبنى بدار صناعة الجزيرة بالروضة ، وذلك جرياً على ما كان عليه الوضع أيام الخليفة (الحاكم بأمر الله) . وهكذا ظلت كل من دار صناعة مصر ودار صناعة الجزيرة ، عامرتين طوال العصر الفاطمى[٢] .

وقد استطاع الفاطميون بفضل اهتمامهم بإعداد أسطول قوى ، أن يدعموا نفوذهم فى شرق البحر المتوسط . فسارت سفنهم بين شواطئه ، فى مصر والشام ، محملة بالمتاجر فى أمن وطمأنينة . وبذلك تجلى النشاط فى موانى هذين القطرين ، وزادت أهمية كل من أنطاكية وطرابلس وعسقلان وتنيس ، حتى أن الامبراطور البيزنطى طلب من الخليفة الفاطمى (الآمر بأحكام الله) النزول عن (تنيس) ، لقاء مبلغ كبير من المال ، لكن طلبه رفض ؛ لأن الفاطميين كانت لهم دار كبيرة لصناعة السفن وعمارتها فى تنيس ، فضلا عن أنها ـ تنيس ـ كانت تعد من القواعد البحرية الهامة فى مصر فى العصر الفاطمى . هذا إلى جانب شهرتها الفائقة فى إنتاج بعض المنسوجات الفاخرة . ويذكر ناصر خسرو أنه « كان من بين ألف سفينة راسية فى تنيس — عدا ما هو ملك للتجار — عدد كبير ملكا للخليفة[٣] » .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٥١٣ .

(٢) المقريزى : خطط ج ٣ ص ١١٤ — ٢١٥ (ط . بيروت) .

(٣) ناصرى خسرو : سفر نامة ص ٣٨ — ٤٠ ، زكى حسن : كنوز الفاطميين ص ١٤٥ حاشية ٢ .

أما عن أسلوب الحرب البحرية الذى أتبعه الفاطميون ، فلم يكن يختلف كثيرا عما جرت عليه معركة (ذات الصوارى) سنة ٣٣ ه. فكانت المراكب الفاطمية الحربية مزودة بأنواع السلاح المختلفة[١] . فيذكر القلقشندى : «أن أسلحة رجال الأسطول الرئيسية كانت عبارة عن (القسى) التى تشد بواسطة اليد أو الرجل، أما عن أسلحة المراكب الكبيرة، فكانت تزود (بالمنجنيقات) و (العرادات) ، لقذف الحجارة أو المواد الملتهبة ، كما تزود (بالكلاليب) ، التى كانت ترمى على العدو فتوقف حركته »[٢] .

كذلك استخدم الأسطول الفاطمى فى مصر والشام ، النفط . وكانت المراكب الفاطمية تحتمى من نار العدو بتغطية هيكلها ، بدرع خارجى يسمى « لبوس » عليه غطاء يسمى « لبود » مصنوع من جلود البقر الطرية أو من البسط ، بينما يحتمى المقاتلون من النار المقذوفة عليهم بدهن أجسادهم بمادة البلسان الواقية من الحريق . وكانت قطع الأسطول الفاطمى مزودة بكل ماهو ضرورى للحرب فى البر ، كما كانت تحمل الأسلحة المستخدمة فى نقب الأسوار بموانى الأعداء كالأبراج والدبابات ، والسلالم والحبال[٣] .

* * *

لقد خصصت الدولة الفاطمية بمصر جزءاً كبيراً من إيراداتها لنفقات اعداد أسطول قوى ، وتجهيزه بحاجته من أدوات الحرب[٤] . وكان للأسطول الفاطمى ديوان كبير يعرف بديوان الجهاد[٥] . مهمته القيام بالإشراف على

---

(١) ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ص ٢٢٢ — ٢٢٥ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥٢٣ — ٥٢٤ .
(٣) ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .
(٤) المصدر السابق ص ٢١٩ .
(٥) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ٣٧٧ (ط . بيروت) .

عمليات بناء السفن وتجهيزها ، ودفع رواتب العاملين فى صناعة السفن وصيانتها ، ورجال القوات البحرية فى الأسطول الفاطمى بمصر[١] .

وقد حدثنا المقريزى عن مهمة « ديوان الجهاد » وموارده فقال[٢] : وكان ديوان الجهاد يعنى بكل ما يتعلق بالأسطول بمصر والمراكب السلطانية والأحطاب وفيه من الحواصل لعمارة المراكب شيء كثير . وإذا لم يف ارتفاعه[٣] ، بما يحتاج إليه ، استدعى له من بيت المال ما يسد خلله[٤] .

أما عن رجال الأسطول الفاطمى ، فالقائد كان يلقب « برئيس أو مقدم الأسطول » وأحيانا قائد القواد ، ويختار من بين أعيان البحريين البالغ عددهم عشرة[٥] . فيذكر — القلقشندى : « أنه كان على رأس الأسطول (المصرى) عشرة قواد ، عليهم رئيس هو « قائد القواد » ويسمى أيام الفاطميين « أمير الجيش »[٦] .

ويتقاضى كل منهم راتبا يصل إلى عشرين دينارا شهريا ، وهو مبلغ كبير — وقتذاك . كما كان الأسطول الفاطمى بمصر ميزانية ضخمة من مستغلات الاقطاعات المحبوسة عليها « وكانت جريدة قوادهم أكثر من خمسة آلاف مدونة »[٧] .

---

(١) سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٥١ ، وسعاد ماهر . البحرية فى مصر ص ٢٠١ .

(٢) المقريزى : المصدر السابق ج ٢ ص ٣٧٧ ، يقابلها ج ١ ص ٤٨٢ (ط. بولاق) .

(٣) أى إذا لم يكتمل إيراد ديوان الأسطول (الجهاد) ويغطى نفقاته ...

(٤) أى ما يغطى حاجته أو عجزه المالى .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٣ — ٥٢٤ .

(٦) القلقشندى : نفس المصدر ج ٣ ص ٥٢٣ — ٥٢٤ .

(٧) المقريزى : خطط ج ٢ ص٣٧٧ (ط. بيروت) وحسن ابراهيم: الإسلام السياسى ج ٤ ص ٢٧٤ وسرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٥١ .

وقد أوضح المقريزى عمل وواجبات قائد الأسطول ، قبل انزال الأسطول لخوض المعارك البحرية ، فقال[1] . « وكان على والى الحرب فى البحر (والى حرب البحر) إذا خرج للقتال أن يستجيد المراكب ، ويستجدّها (يعمرها ويجددها) ، ويكثر تقويتها ، وادخار آلاتها ، حتى إذا تلف شىء من ذلك وجد ما يخلفه ، ويحتاط فى تغييرها ، وإحكام مايلاقى الماء منها ، فإنه الأصل الذى يعوّل عليه ، ويتخير القواد والرؤساء العارفين بمسالك البحر ومراسيه ، وعلامات الريح ، وتغييرات الأنواء والحركات البحرية من المد والجزر . وكان من واجبات قائد الأسطول وقت الحرب ، ألا يهجم على المراسى ، لئـــلا تكون مراكب العدو بها كامنة . ولا يتقدم إلى البر إلا بعد المعرفة والأحراز من الأحجار والشعاب . والأحراش التى تتكسر عليها المراكب ، ويكثر من الماء والزاد الأكل والتقوّت به خلال المدة التى يبحرون فيها » .

ومن موظفى الأسطول : « الربان » ، ويليه فى الأهمية « الديدبان » (أى الرقيب) ، الذى يقف فى مقدمة المركب ، يستطلع أحوال البحر فى حالة السلم ، وأخبار العدو فى وقت الحرب . ثم يليه « المنادى » وهو الذى يقوم تبليغ أوامر « الربان » إلى الملاحين والنوتية « بصوته الحاد المرتفع »[2] .

كذلك كانت هناك وظيفة « القلاووز » ، وهو الدليل المرشد للسفن ، عند دخول الموانى أو عند المرور على السواحل الخطرة والمضايق الصعبة . وكان أرباب هذه الوظيفة عادة ملمين بفنون الملاحة لتسيير السفن ، فضلا عن الحسابات الفلكية وغيرها ، عالمين بطرق سير المراكب ، واقفين على أحوال السواحل والثغور ، ومسالك الموانى ومواقع الصخور المائية والمياه الضحلة[3] .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٩٧ (ط. بولاق) .

(٢) سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية ص٢٨٣ .

(٣) سرهنك : حقائق الأخبار جـ ٢ ص ٢٩ حاشية .

وكان «نقباء» الأسطول — وهم أفراد معروفون فى ديوان الجهاد — يتولون جمع المقاتلة للأسطول ، ويشترط فيهم أن يكونوا من بين الذين يعرفون الحرب البحرية ويتقنون فنها جيدا . فيجمعونهم من جميع أركان البلاد أينما كانوا ، ويقول المقريزى : (١) أنه «لم يكن أحد يكرههم أو يجبرهم على العمل فى الأسطول ، وكان الناس يقدرونهم ويعتبرون عملهم جهادا فى سبيل الله ، فأطلقوا عليهم المجاهدين فى سبيل الله والغزاةُ فى أعداء الله ويتبركون بهم » .

ومما يجدر ذكره أن الأسطول الفاطمى كان يضم قفصا أو أكثر يحتوى على أسراب من «الحمام الزاجل» الذى يستخدم فى نقل الرسائل بين مختلف وحدات الأسطول . أضف الى ذلك أن مركب رئيس أو مقدم الأسطول كان يزود بمصباح مميز تهتدى به المراكب الأخرى(٢) .

أما عن «الكاتب» فى ديوان الأسطول فى العصر الفاطمى ، فكان يحضر المجلس الذى يجلس فيه الخليفة ، لتوزيع رواتب قادة وجند الأسطول ، ومعه الوازنون الذين قدموا من بيت المال لوزن رواتب العاملين فى الأسطول(٣) . « فإذا حل موعد صرف المرتبات أدخل القابضون مائة مائة ، ويزن لهم الوزانون كل عشرة معا ، وتكتب النفقة لهم بيد النقيب(٤) ، وهكذا حتى تمضى عملية صرف الرواتب الى آخرها(٥) » .

---

(١) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ١٩٣ — ١٩٤

(٢) المقريزى : المصدر السابق جـ ١ ص ٤٨٣ (ط بولاق) ، يقابلها جـ ٢ ص ٣٧٨ ، جـ ٣ ص ١٠٨ — ١٠٩ (ط بيروت) .

(٣) سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ص ٣٠١ .

(٤) النقيب : وجمعها نقباء ومهمته تأدية الخدمات الصغيرة لسيده . ونقيب الجيش ، هو الذى يتكفل بإحضار من يطلب من الأمراء أو قواد الدولة سواء فى الجيش أو البحرية ، والأجناد وغيرهم . أنظر القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ١١ و جـ ٥ ص ٤٥٦

(٥) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٤٨٣ (ط بولاق) .

وكان الخليفة الفاطمى — بعد توزيع النفقة على الأسطول — يخرج مع الوزير إلى ساحل النيل « بالمقس » ، حيث يجلس هناك فى « منظرة المقس » — وكانت وقتذاك بجامع باب البحر — للموادعة (أى لوداع الأسطول) ثم يمر القواد بمراكبهم من تحت المنظرة[١] ، أمام الخليفة ، وقد زينت مراكبهم بالأسلحة والمجانيق (المنجنيقات) ويقومون بعمل مناورة حربية أمام الخليفة « فتسير مراكبهم بالمجاديف ذهاباً وعوداً كما هى الحال فى القتال » ، وبعد أن ينتهى العرض يأتى المقدم والريس فَيَمْثُلون بين يدى الخليفة يتلقون منه تعليماته ووصاياه « فيوصيهما ويدعو لهم بالسلامة » .

ويقول القلقشندى فى هذا الصدد[٢] : « وتنحدر المراكب — بعد العرض أمام الخليفة — الى دمياط ، وتخرج إلى البحر الملح (البحر المتوسط) ، — فيكون لها فى بلاد العدو الصيت والسمعة . فإذا غنموا مركبا اصطفى الخليفة لنفسه السبى الذى فيه ، من رجال أو نساء أو أطفال ، وكذلك السلاح . وما عدا ذلك يكون للغانمين لا يساهَمون فيه (أى لا يشاركهم أحد فيه) ، وكان لهم — أى — الفاطميون — أسطول بعيذاب » (على البحر الأحمر أيضا) .

---

(١) كانت أشهر « المناظر » — جمع منظره أى مقصوره للعرض — فى مصر الفاطمية توجد فى : القاهرة ومصر (الفسطاط) « والروضـــة ، والقرافة . وكثيراً ما كانت تستعمل أماكن للتريض والنزهة للخليفة الفاطمى . وأشهرها فى هذه المناطق هى منظر : الأزهر ، اللؤلؤة ، الدكة ، المقس (وهى أشهرها جميعا) وباب الفتوح ، ودار الملك ، منازل العز ، الهودج ، بركة الحبش ، قبة الهواء ، الأندلس . راجع : حسن ابراهيم : الفاطميون فى مصر ص ٢٧١ هامش (١) .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٣ — ٥٢٤

كذلك أمدنا المقريزى[١] ، بتفصيلات وافية عن حفل توديع الأسطول ؛ فأوضح أن الخلفاء الفاطميين كانوا يحرصون حرصا شديدا على حضور هذا الاحتفال . وهذا دليل على أن الأسطول الفاطمى بمصر والشام ، ظل محتفظا بقوته وقدرته على الخروج لغزو بلاد الدولة البيزنطية ، والتصدى لأى اعتداء يقع على الدولة الفاطمية وسواحلها ، سواء فى مصر أو الشام . كما حرص الخلفاء الفاطميون على استقبال أساطيلهم عند عودتها من الغزو فيجلس الخليفة ، فى منظرة المقس ، — ويستعرض سفنه وما أحضرته من غنائم وأسرى [٢] .

وكان المحتسب فى العصر الفاطمى ، يراقب السفن والأساطيل قبل شحنها ووسقها ،وله أن يتصدى لربان الأسطول ولرؤسائه . وليس أدل على ذلك مما ذكره صاحب كتاب « معالم القربة فى أحكام الحسبة » [٣] . « يؤخذ على أصحاب السفن والمراكب ألا يحملوها فوق العادة خوف الغرق ، وكذلك يمنعهم من السير وقت هبوب الرياح واشتدادها . وإذا حملوا فيها النسوان مع الرجال حجبوا بينهما بحائل » . ويقول المقريزى . « المحتسب له نواب يلزمون رؤساء المراكب ألا يحملوا أكثر من وسق السلامة [٤] » .

وكان يخصص لرجال الأسطول الفاطمى نصيب معين من الغلات بمخازن الغلال والاتبان ، ولهذه المخازن (حفظة) من الأمراء والمشارفين الموثوق

---

(١) المقريزى : خطط ج ٣ ص ٣٧٢ — ٣٧٣ ، ج ٣ ص ١٠٩ — ١١٠ (ط بيروت) أو ج ٢ ص ٣٦٨ — (ط بولاق) ، سعاد ماهر : البحرية فى مصر الإسلامية ص ٩٧ — ٩٨

(٢) المقريزى : خطط ج ٣ ص ١١٠ (ط بيروت) .

(٣) ابن الاخوة القرشى : معالم القربة فى أحكام الحسبة ورقة ١١٣ (مخطوط) .

(٤) المقريزى : الخطط ج ٣ ص ٢٩٥ (ط بولاق) .

فيهم أو « العدول » — كما يسميهم القلقشندى — ، وكانت السفن تصل إلى هذه المخازن بأصناف الغلات وترسوا فى ساحل مصر وساحل المقس [١] .

كذلك كانت مخازن الغلال الفاطمية الخاصة بالأسطول تسمى « الاهراء المباركة » . يقول المقريزى [٢] : « ومن الاهراء تخرج جرايات (مؤن) رجال الأسطول ، وجرايات السودان (العبيد) ، ومنها ما يستدعى بدار الضيافة ؛ لأخبار الرسل ومن يتبعهم وما يعمل من القمح برسم الكعك لزاد الأسطول » .

---

(١) المقريزى الخطط جـ ١ ص ٤٢٣ « ط بولاق » .

(٢) المقريزى : نفس المصدر جـ ١ ص ٤٢٣ ، سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ص ٣٠٤

٢ — الموانى المصرية : (الاسكندرية ، دمياط ، تنيس)

(١) الاسكندرية :

تعتبر مدينة الأسكندرية من أهم الموانى والقواعد البحرية بمصر ، المطلة على شاطىء البحر المتوسط (١) ، وهى إلى جانب ذلك مركز تجارى هام ، كما كان بها فنادق لتجار الدول الأوربية . ولم يغفل الفاطميون أهمية موقع هذه المدينة على الساحل المصرى لهذا البحر ، فاتخذوها قاعدة بحرية لأسطولهم ومراكبهم التجارية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط (٢) . وكانت الدولة الفاطمية تنقل من هذا الميناء البحرى الأسلحة والقوات البحرية لغزو بلاد الدولة البيزنطية (٣) .

وقد شارك الأسكندرية فى هذه الأهمية مدن أخرى منها دمياط وتنيس ، وكان بهما قواعد بحرية للأسطول الفاطمى بمصر (٤) وكانت العلاقات

---

(١) يقع هذا الثغر البحرى الهام فى الطرف الغربى لدلتا نهر النيل بمصر ، ويطلق الكتاب العرب على ميناء الاسكندرية إسم المنارة ، فالمقدسى (ت٣٨٧هـ) يصفها فى كتابه أحسن التقاسيم ص١٩٦ — ١٩٧ بقوله : « هى قصبة نفيسة (عظيمة) على بحر الروم ، عليها حصن منيع ، وهو بلد شريف ، جليلة الرستاق ، بناؤهم من الحجارة البحرية » . وقد ظلت الاسكندرية قاعدة وميناءا — بحريا هاما للفاطميين فى مصر . راجع أيضا ناصر خسرو : سفرنامه ص ٤٣ — ٤٤
Benjamin of Tudela, Vol, 1. P. 155 – 157 & Vol 2, P. 212 – 213 & Rhuvon guest : Art. Al-Iskandria (Ency. of Islam,)

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٥٠ — ١٥١ Benjamin of Tudela ; vol 1, P. 137 & vol. 2, P. 216.

(٣) Ency. of Islam, Val 2 P, 535

(٤) Benjamin of Tudela. Vol 1 P. 157 – 158 & Vol 2 P. 213

التجارية بين الفاطميين في مصر ، وبين الدول الأوربية المطلة على البحر المتوسط تنعكس صورتها في ميناء الأسكندرية . بل إن هذا الميناء نفسه ساعد على نمو العلاقات التجارية بين الفاطميين والدول الأوربية الأخرى . وقد نوه الرحالة الأسباني « بنيامين التطيلي »[١] بذلك النشاط التجاري الذي تميزت به هذه المدينة .

وكان بكل من الأسكندرية ودمياط دار لصناعة السفن التي كانت ترابط بعض وحداتها في الموانى الشامية مثل : صور وعكا وعسقلان [٢] . ومن ثم صارت الأسكندرية في العصر الفاطمي بمصر من أهم القواعد البحرية الحربية للدولة الفاطمية في شرق البحر المتوسط [٣] .

وترجع أهمية الأسكندرية كقاعدة للأسطول الفاطمي في البحر المتوسط ، إلى أن لها ميناءان يتسع كل منهما لعدد كبير من السفن . فضلا عن هدوء المياه فيهما ، لوقوع جزيرة « فاروس » (Pharos) ، شمال الأسكندرية ، وكانت تلك الجزيرة تتصل بمدينة الأسكندرية ، منذ نشأتها ، بجسر ضخم ، أتاح لها مرفأ آمنا للسفن حين تعصف الأنواء بمياه البحر[٤] .

وقد أشاد الجغرافيون والرحالون المسلمون ـــ أمثال المقدسي وابن حوقل وناصري خسرو ـــ بأهمية قاعدة الأسكندرية ، في نشاط الأسطول الإسلامي في العصر الفاطمي فالمقدسي يقول : « هي قصبة نفيسة على بحر الروم ، عليها حصن منيع وهو بلد شريف ، جليلة الرستاق »[٥] .

---

(١) Benjamin of Tudela, Vol 2 P. 217.

(٢) حسن ابراهيم : الاسلام السياسي جـ ٤ ص ٣٩٤

(٣) ابن مماتي : قوانين الدواوين ص ٢٤٠

(٤) ابراهيم نصحي : تاريخ البطالمة ص ٢٢٩

(٥) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٩٦ — ١٩٧ « المجموعة الجغرافية العربية ، لشر دي جوية ، بريل . ليدن . بالأوفست ١٩٦٧ » .

وكان من الطبيعي أن تنمو مدينة الاسكندرية في العصر الفاطمي بمصر، وذلك لاستقرار عدد كبير من المسلمين فيها، كما زاد عدد حاميتها حتى بلغ سبعة وعشرين ألف جندي يرابطون في المدينة لحمايتها. وهذه القوة جرى تقسيمها — منذ بداية العصر الاسلامي بمصر وحتى نهاية العصر الفاطمي (٥٦٧ هـ) — إلى عرّافات، لكل منها عريف، ولكل عريف قصر يقيم فيه مع أصحابه، فيكون بكل دار قبيلتان أو ثلاث قبائل(١).

وكان للمدينة أبراج تسمى المحارس. فإذا حاولت سفن العدو الاقتراب من الميناء أعطى حراس المحارس تنبيها لحامية وجند المدينة، المرابطين داخلها، وفي مينائها وقاعدتها البحرية، فيجتمع الجند كل طائفة في عرافتها(٢). وكان مما يساعد الحراس في آداء مهمتهم المرآة التي كانت في أعلى المنارة والتي قال عنها « بنيامين التطيلي »: « أنها تكشف السفن القادمة من على بعد مائة ميل »، وهو مايؤيد أقوال ناصري خسرو الذي زار مصر سنة ٤٣٩ هـ (١١٤٧ م)، أي قبل زيارة « بنيامين التطيلي » لها بنحو ثلاث عشرة سنة تقريبا (سنة ١١٦٠ م)(٣).

وقد بلغت الاسكندرية قمة عظمتها — كقاعدة حربية للأسطول الاسلامي في العصر الفاطمي، بسبب ازدياد علاقات الفاطميين في مصر بالمغرب وصقلية، فضلا عن اهتمامهم بالاحتفاظ بسيادتهم على بلاد الشام. وكانت المراكب تبحر من هذه المدينة قاصدة بعض بلاد حوض البحر المتوسط،

---

(١) الشيال: تاريخ الإسكندرية من أقدم العصور ص٢١٣، المجلة التاريخية أكتوبر سنة ١٩٤٩ م».

(٢) الشيال: المرجع السابق ص ٢١٣ — ٢١٤.

(٣) ناصر خسرو: سفرنامه ص ٤٢ — ٤٤

Benjamin of Tudela Itinerary, Vol. 1, P. 155—157.

المسعودي: مروج الذهب ج١ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ (ط ١٣٤٦ هـ).

لنقل المتاجر ، ومن ثم أصبحت الأسكندرية فى ذلك العصر ، مركزا حربياً وتجاريا هاما فى الساحل الجنوبى للبحر المتوسط(١) .

كان بالأسكندرية فى العصر الفاطمى داران لصناعة السفن : — أحداهما بالميناء الشرقية ، والأخرى بالميناء الغربية . وقد اشتهرت هاتان الداران بانتاج أنواع مختلفة من السفن مثل القراقر(٢)، والزوارق والطرايد(٣) والغربان(٤)، والحراريق والشوانى(٥)، والشياطى(٦)، والسلالير والمشاريات(٧) والبطس(٨) .

وظل سور الاسكندرية قائماً حتى خلافة «الآمر بأحكام الله الفاطمى» (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) ، حيث قام والى الاسكندرية سنة ٥١٧ هـ بتجديد بعض أجزائه . يقول المقريزى فى حوادث تلك السنة : «وفيها (أى فى سنة ٥١٧هـ)

---

(١) المقريزى : خطط جـ١ ص ٤٢٨ «ط. بولاق» والسيد عبد العزيز سالم تاريخ الإسكندرية وحضارتها ص ١٥٠، ١٥٥ حاشية ، سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٥٠ .

(٢) سفن لحمل البضائع .

(٣) سفن لها أبواب تفتح وتغلق لحمل الخيل فى الحرب .

(٤) سفن لحمل الغزاة تسير بالقلاع والمجاديف .

(٥) سفن حربية كبيرة ذات أبراج .

(٦) سفن تسير بثمانين مجدافا للاستطلاع وكشف أحوال العدو وقوته .

(٧) سفن لحمل البضائع تسير بعشرين مجدافا «ذات حمولات ثقيلة عكس القراقر» .

(٨) نوع من السفن الحربية الكبيرة لحمل المجانيق والعرادات .

«راجع المقريزى: خطط جـ١ ص ٤٢٨ وعبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها ص ١٥٠ — ١٥٥» .

جددت عمارة سور الاسكندرية » ، دون أن يوضح كيف تم ذلك(١). وهذا القول يثبت لنا مدى اهتمام الفاطميين بالاسكندرية كميناء وقاعدة بحرية هامة لأسطوليهم الحربى والتجارى(٢).

ولقد ساعد موقع الاسكندرية على جعلها مركزا رئيسياً للتجارة بين الشرق والغرب . فكانت تنقل منها التجارة الآتية من أوربا للبحر الأحمر ، لتواصل رحلتها إلى الشرق ، وكذلك التجارة الآتية من الشرق إلى أوربا(٣) . ويذكر ابن مماتى : إن مدينة الاسكندرية تعد من عجائب مصر « فلقد أجمع أهل العلم أنه ليس فى الدنيا مدينة على ثلاث (ثلاثة) طباق (طبقات) غيرها ومن عجائبها المنارة ، وطولها مائتان وثمانون ذراعاً فى (الهواء) . . وكان خليجها مبلطا بالرخام ، من أوله إلى آخره . . وتعتبر الاسكندرية أعظم ثغور مصر قدرا(٤) » .

على أن الحملات الصليبية التى وجهت إلى مصر فى أواخر العصر الفاطمى كان لها تأثير بالغ فى مدينة الاسكندرية . إذ صارت فى مواجهة عدائية مع دول أوربا مما ترتب عليه تقلص نشاط الحركة التجارية فيها ، حتى أصبح لا يرد إليها سوى البضائع القادمة من دول المشرق عن طريق البحر الأحمر . لكن ذلك لم يدفع الخلفاء الفاطميين إلى غلق ميناء الإسكندرية فى وجه تجارة المدن والدول الأوربية(٥) .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا حوادث ٥١٧ هـ ، الشيال : تاريخ الإسكندرية من أقدم العصور ص ٢١٨ .

(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٢٢ — ٢٧ .

(٣) سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية ، فى الشرق ص ١٥٠ .

(٤) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٧٨ ، ٣٢٥

(٥) Encyc. of Islam, Vol 2, p. 536.
Benjamin of Tudela, Vol. 2, p. 217 - 218

(ب) دمياط وتنيس :

كان هناك — إلى جانب مدينة الاسكندرية — مدناً أخرى لها أثر كبير فى نشاط البحرية الإسلامية الفاطمية شرق البحر المتوسط . ومن أهم تلك المدن دمياط[1] ، وتنيس[2] - (وهى على شط بحيرة تنيس ، بينها وبين دمياط ستة وثلاثون ميلا (١٢ فرسخاً) - وهاتان المدينتان لا تتمتعان اليوم بنفس المكانة التى حظيا بها خلال الحكم الفاطمى لمصر . وكانت دمياط فى العصر الفاطمى تطل مباشرة على ساحل البحر المتوسط ، ومن ثم غدت فى ذلك العصر قاعدة بحرية هامة تنافس الاسكندرية .

---

(١) دمياط « تمياط Damietta » مدينة « كورة » من مدن مصر الهامة ، وتسمى « المدينة البيضاء » . بينها وبين تنيس ١٢ فرسخا « ٣٦ ميلا » ويقول بنيامين التطيلى أن ما بين دمياط على ساحل البحر المتوسط ، وميناء أيله «Elim» على البحر الأحمر مسيرة ٤ أيام « راجع Benjamin of Tudela, I, p. p. 158, 159» والمعروف أن بنيامين التطيلى زار مصر فى سنة ١١٦٠م « ٥٥٥هـ » . كذلك سبقه فى وصف دمياط والإشادة بهـــا المقدسى فقال « أحسن التقاسيم ص ٢٠١ — ٢٠٢ » عنها « هى مدينة طيبة على الجانب الآخر من بحيرة تنيس . عليها حصن من الحجارة ، كثيرة الأبواب ، وفيها ربط - رباطات - كثيرة خربة . ولها موسم كل سنة ، يقصدها فيه المرابطون من كل جانب ، وبحر الروم منها قريب . راجع أيضاً : ابن بسام التنيسى ، الأنيس الجليس فى أخبار تنيس ورقة ٦٩ ، ٧٠ « مخطوط » وابن الفقيه الهمدانى : مختصر كتاب البلدان ص ٦٤ - لشر دى غوية - والمقريزى : خطط ج ١ ص ٣٧١ — ٣٧٧ - ط. بيروت .

(٢) أشاد الجغرافيون والرحالة المسلمون -بتنيس- .فقال عنها الاصطخرى: - أنها بغداد الصغرى ، وجبل الذهب ، ومتجر الشرق والغرب ، وساحل نزيه - (راجع مسالك ص ٥٢) ، أما المقدسى (أحسن التقاسيم ص ٢٠١ — ٢٠٢) فقال : عن تنيس : [ولها ساحل نزية ، إلا أنها فى جزيرة ضيقة ، والبحر عليها كحلقة - يحيط بها - والماء فى صهاريج مغلقة ، وأكثر أهلها قبط] .

وقد ساعد وقوع دمياط على شاطىء البحر المتوسط فى العصر الفاطمى، على تسهيل إبحار السفن الحربية والتجارية الفاطمية من داخل البلاد عبر مياه نهر النيـــل إلى موانى البحر المتوسط . فكانت السفن تخرج من دور الصناعة بالفسطاط والقاهرة ، ثم تبحر من مرسى هذه المدينة (دمياط) إلى البحر المتوسط ، حيث تشترك مع سفن الأسطول الفاطمى فى القيام بمهمتها الحربية(١) .

ومما يجدر ذكره أن النشاط البحرى فى دمياط كان يتجلى تبعاً لازدياد حركات الأسطول الفاطمى ونشاطه فى شرق البحر المتوسط . فلما استولى الأندلسيون على جزيرة كريت فى أوائل القرن الثـــالث الهجرى (٢١٢ هـ / ٨٢٧ م) ، زاد نشاط قاعدة دمياط البحرية ، وعلا شأنها حتى صارت أهم ميناء بحرى يزود الأسطول الإسلامى فى هذه الجزيرة بحاجته من الامدادات: من سفن وعتاد ومؤن، بل وبالقوات المحاربة . وظلت دمياط منذ ذلك الوقت قاعدة هامة ، إتخذها الفاطميون بعد ذلك مرسى لأسطولهم . وكانت توجد سلسلة عند مصب نهر النيل تحمى ميناء هذه المدينة من تسلل السفن المعادية(٢) .

وكان بدمياط دار لصناعة السفن ، أنشأها من قبل والى مصر العباسى « عنبسة بن اسحق » بعد إغارة البيزنطيين عليها سنة ٢٣٨ هـ — ولما امتد سلطان الفاطميين إلى مصر ، حرصوا على الاهتمام بهذه الدار ، ويتضح لنا ذلك مما ذكره المقريزى(٣) : « وكان من أهم أمورهم (يعنى الفاطميين)

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٣٣ والخطط جـ ١ ص ٣٧٦ — ٣٧٧ « ط. بيروت » .

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٥٢

Nadvi : Arab Nav., p. 84 «Vol. 16,».

(٣) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ١٩٣ « ط. بولاق » .

احتفالهم بالأساطيل والأجناد ، ومواصلة إنشاء المراكب بمصر والاسكندرية ودمياط ، من الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات ، إلى بلاد الساحل حين كانت بأيديهم ، مثل صور وعكاء وعسقلان . كما اهتم الفاطميون بإرسال الأجناد (الحاميات) تباعا إلى دمياط ، لتتناوب حراسة هذا الميناء والدفاع عنه[١] .

كانت وحدات الأسطول الفاطمى المرابطة فى دمياط تقوم بحمايتها والزود عنها ضد عدوان والمغيرين عليها . فحدث فى عهد الخليفة الفاطمى « الفائز بنصر الله » (٥٤٩ — ٥٥٥ ﻫ / ١١٥٤ — ١١٦٠ م) ، إن وصل إلى دمياط فى جمادى الآخرة من سنة ٥٥٠ ﻫ (أغسطس ١١٥٥م) أسطول ملك صقلية النورمندى فى نحو ستين مركبا ، فتصدى لهم الأسطول الفاطمى بدمياط[٢] . وفى خلافة « العاضد الفاطمى » بمصر (٥٥٥ — ٥٦٧ﻫ / ١١٦٠ — ١١٧١ م) نزل أسطول صليبى من عشرين شونة (سفينة حربية كبيرة) ، على دمياط فى أول شهر صفر سنة ٥٦٥ ﻫ (١١٦٩ — ١١٧٠ م) وفى ربيع الثانى من نفس السنة (٥٦٥ ﻫ) نزل الأسطول على تنيس فقتل وأسر وسبى ، فقام أسطول الفاطميين المرابط فى ميناء دمياط بمنازلته وتمكن من صده[٣] .

وكانت مدينة دمياط بجانب أهميتها كقاعدة حربية للأسطول الإسلامى فى العصر الفاطمى بمصر ، مركزا هاما للتجارة الخارجية ، فترد إليها السلع من تجار الروم ، وكان ما يجرى فيها يسير على نفس النسق الذى يجرى عليه فى الاسكندرية من تحصيل المكوس ، مع فارق بسيط فى بعض الضرائب[٤] .

---

(١) حسن ابراهيم : الإسلام السياسى ج ٤ ص ٣٩٤ .

(٢) أبو شامة : الروضتين فى أخبار الدولتين ج١ ص ١٠٥ ، وحسن ابراهيم : الإسلام السياسى ج ٤ ص ١٨٨ .

(٣) أبو شامة : المصدر السابق ج ١ ورقة ١٨٠ (حوادث ٥٦٥ ﻫ) .

(٤) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢٢٥ — ٣٢٧ .

أما عن مدينة تنيس : فهي عبارة عن جزيرة وسط بحيرة المنزلة(١) وتعتمد هذه المدينة على البحرية فى الدفاع عنها ، وفى تنمية مواردها(٢) ، كما كانت موضع إعجاب المؤرخين وبعض الرحالين ، فيصفها ابن حوقل(٣) بقوله : « وأما البحيرة التى هى بأرض مصر فى شمال الفرما ، وتتصل ببحر الروم (وتعرف ببحيرة تنيس) . . . فيها مدن كالجزائر ، وفيها يطيف ماء البحيرة بها ، ولا طريق إليها إلا فى السفن ، من أجل جزائرها تنيس ودمياط . . . وهى (أى بحيرة تنيس) قليلة العمق . . . وتلتق (فيها) السفينتان تحمل إحداهما الأخرى ، هذه صاعدة وهذه نازلة بريح واحدة » .

كذلك أشاد ابن بسام التنيسى بمدينة تنيس فى العصر الفاطمى ، فنوّه بمكانتها العظيمة كميناء ومدينة صناعية للفاطميين . فذكر « أن بها قنطرتان يسلك من تحتهما إلى ميناءين لكل منهما باب مصفح بالحديد يمنع من يريد

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٥٥ حاشية ٣ وابن حوقل : صورة الأرض ص ١٥٦ — ١٥٧ . وتقع بحيرة تنيس « بحيرة المنزلة » فى شمال مصر من رأس دمياط غربا إلى رأس كاسياس (بالقرب من مدخل بحيرة البردويل) شرقاً . فبحيرة تنيس تمتد من مدينة بيلوز القديمة إلى مدينة دمياط بطول قدره ٨٤ كيلو متراً وبشكل مستدير قطره فى إتجاه خط دمياط — القنطرة نحو ١٣٥ ك . م . وقد ذكر ناصر خسرو فى كتابه سفرنامه ص ٣٨ حاشية (٢) وص ٣٩ — ٤٠ ، ان الجزيرة التى قامت فوقها مدينة تنيس كان يرابط بها عدد كبير من السفن . وقد أيده فى ذلك كما سنرى الجغرافيون والرحالون أمثال Benjamin of Tudela «Itinerary» الذى زار مصر فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى . راجع :

Benjamin og Tudola Itinerary, Vol., 1 p. 159—160 & Vol. 2, p. 223.

(٢) ناصر خسرو : سفر نامة ص ٣٩ - ترجمة يحيى الخشاب .

(٣) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٥٦ — ١٥٧ .

أن يدخله أو يخرج منه بغير إذن »[١] ، ومعنى هذا أن الفاطميين اهتموا بتحصين المدينة ، فأحكموا السيطرة على مينائها ، حماية لقواتهم ومراكبهم الحربية المرابطة فيها ، لأن هذه المدينة كانت محط أنظار أباطرة البيزنطيين ، الذين تطلعوا مراراً للاستيلاء عليها بالقوة أحياناً ، وبالمخادعة والصلح أحياناً أخرى دون جدوى لمناعتها .

ومما يدل على اهتمام الفاطميين بأمر تنيس كميناء وقاعدة بحرية لأسطوليهم الحربي والتجاري ، ما رواه ابن بسام التنيسي من أنهم جعلوا فوق كل مسجد من مساجدها (وكان بها ١٦٠ مسجداً) منارة يرصدون منها سفن العدو إذا قدم للغزو ومداهمة الأسطول الفاطمي بتنيس[٢]. هذا فضلا عن أن تنيس كان يقيم فيها حامية كبيرة لصد أى عدوان عليها[٣] — سواء من الروم أو الفرنج — وكانت رواتب هؤلاء الجند تصل إليهم من خزانة الخليفة الفاطمي بالقاهرة، علما بأن « ما كان يحصل من تنيس من ضرائب على مصنوعاتها وتجارتها يبلغ ألف دينار مغربي يوميا تصل إلى خزانة الخليفة بلا عنف أو إكراه[٤] .

وهكذا واصل الفاطميون اهتمامهم بتنيس ، لا على أنها ميناء وقاعدة حربية فحسب ، بل لما تميزت به من نشاط تجارى وصناعى ، كما عنوا بإقامة القياسر والفنادق للتجار القادمين إليها ، حتى بلغ عددها سنة ٤٠٥ هـ ستا وخمسين فندقا[٥] .

وقد أمدنا ابن بسام التنيسي بمعلومات هامة عما كان بتنيس من منشآت

---

(١) ابن بسام التنيسي : الأنيس الجليس فى أخبار تنيس ، ورقة ٧١/أ .
(٢) المصدر السابق : ورقة ٧١/ب .
(٣) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٣٩ — ٤٠
(٤) ناصر خسرو : المرجع نفسه ص ٤٠
(٥) ابن بسام التنيسي : الأنيس الجليس فى أخبار تنيس ورقة ٧١ / ب و ٧٢ / أ .

تجارية وصناعية ، فقال[١] : «كان بها حتى عهد الحاكم بأمر الله : ٢٥٠٠ حانوت ، ١٠٠ معصرة ، ١٥٠ دكانا تبيع البز والثياب ، ١٦٠ طاحونة (وتعرف باسم أزحية) ، ٥٠٠٠ منسج يبلغ عدد عمالها جميعا عشرة آلاف عامل ، وكانت هذه المناسج تخرج أنواعا من الأقمشة يصل ثمن الثوب منها إلى ألف دينار عدا المفارش والستور والمخامل وغيرها» .

كما نوه ناصر خسرو حين زار هذه المدينة سنة ٤٣٩ هـ بثرائها ورواج التجارة فى أسواقها فتحدث عما شاهده فيها ، قائلا أنه[٢] «كان بها نحو ألف متجر ، وفى مراسى جزيرتها ألف سفينة — منها ماهو للتجار وكثير منها للسلطان (أى الخليفة) — ولم يكن بها شىء من الزرع ، بل كانت تعتمد فى أقواتها على تجارتها ، وكانت جزيرة تنيس مكشوفة للغزو من البحر ، لكنها محصنة وفيها رباط قوى»[٢] .

وكان بمدينة «تنيس» فى العصر الفاطمى دار لصناعة السفن[٣] ، وقد حرص الفاطميون على أن يمهدوا الحامية عسكرية بالإقامة فيها لصد غارات الروم أو الفرنجة . وكان أغلب أهل هذه المدينة يشتغلون بصناعة النسيج ، وقيادة للسفن[٤] ، يدلنا على ذلك ماقاله ابن حوقل من أن السفينتين كانتا تسيران فى البحيرة (بحيرة تنيس) فى اتجاهين متضادين (إحداهما نازلة

---

(١) ابن بسام : الأنيس ورقة ٧١/ب ، ٧٢/أ

(٢) ناصر خسرو : سفر نامه ص ٣٨ — ٤٠ ابن بسام : المصدر السابق ورقة ٧٣/ب .

(٣) ابن بسام : المصدر نفسه ورقة ٧٢/أ . وكانت هذه الدار تقع فى الربض الدائر بسور المدينة ، مما يلى الغرب . كما كان به دار الإمارة .

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٥٥ حاشية (٣) والخطط ج ١ ص ٢٨٤ — ٢٩٣

والأخرى مصعدة) فى وقت واحد ، مما يدلنا على حذق ومهارة لدى أهل تنيس فى فن قيادة السفن[1].

كذلك كان لمدينة الفرما[2] شأن كبير فى العصر الفاطمى ، فهى مفتاح مصر من الشرق[3] ، كما أنها كانت تشرف على الطريق من الصحراء الشرقية وتملك ناصية البحر ، فتبعد عنه بأكثر من ميل وأقل من ميلين ، ويجرى إليها فرع من النيل يؤدى إلى مصر السفلى . كما كانت أيضا رأس الطريق إلى الجزيرة العربية ، ومن ثم أصبحت مكاناً آمنا تأوى إليه القوات البحرية الفاطمية . وظلت على هذه الحال ، إلى أن استولى عليها ونهبها الصليبيون بقيادة « بلدوين الأول » ملك بيت المقدس[4] ، الذى خرج على رأس حملة

---

(١) ابن بسام : الأنيس . . . ورقة ٧٢/أ ، ٧٣/ب وابن حوقل: صورة الأرض ص ١٥٦

(٢) الفرما : (أو الفرماء) مدينة على شط بحيرة تنيس . بينها وبين مدينة تنيس أقل من ثلاثة فراسخ (٩ أميال تقريبا) . راجع ابن حوقل: المصدر السابق ص ١٦٠ والمقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٤١

(٣) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣٤١ . (ط بولاق) .

(٤) تولى بلدوين (أو بردويل كما يسميه كتاب المسلمين) إمارة بيت المقدس عقب وفاة أخيه « جودفردى دى بوايون » سنة ٤٩٤ هـ (١١٠٠ — ١١٠١ م) . وقد خرج بلدوين الأول — ثانى حكام بيت المقدس الصليبيين — بحملته الاستطلاعية لإستكشاف إمكانية غزو مصر سنة ٥١٠ هـ (١١١٦ م) فوصل إلى ميناء أيله Elim على البحر الأحمر ، ثم اتجه إلى دير القديسة كاترينا فى شبه جزيرة سيناء ، فلم يستضفه رهبان الدير ، خشية من غضب الفاطميين بالقاهرة ، فعاد متجها نحو الفرما ، واستولى عليها ونهبها ثم تقدم إلى تنيس (المنزلة) . ولم يلبث بعد ذلك أن مرض وتوفى بالعريش أثناء عودته إلى إمارة بيت المقدس الصليبية سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) راجع المقريزى : خطط جـ ١ ص ٣٤٢ ، ابن الأثير : الكامل حوادث ٥١٢ هـ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٧١ ،

Michaud : Hist. des Croisades. Tome, 1, P. 92 – 94.

لغزو مصر سنة ٥١٠ هـ (١١١٦ م)[1].

وكانت عناية الفاطميين بتجديد وتدعيم موانى دولتهم فى مصر والشام، لا تقل عن اهتمامهم ببناء الأساطيل. لأن هذه الموانى إتخذت قواعد لرسو أسطولهم وانطلاقه لأداء دوره فى حوض البحر المتوسط حربيا وتجاريا. ولذلك خصصوا جزءا من إيرادات دولتهم للانفاق على عمارتها، فضلا عن خراج الاقطاعات المحبوسة عليها. ولم تزل الأساطيل والموانى البحرية فى مصر تحتل عناية كبيرة من الفاطميين، حتى شرع «أملريك ملك بيت المقدس» فى غزو مصر فى أوائل سنة ٥٦٤ هـ. فأمر الوزير «شاور» — فى خلافة العاضد «الفاطمى» بإحراق صناعة الفسطاط بمصر، وكذلك مراكب الأسطول، حتى لاتقع فى أيدى الصليبيين، وليحول دون وصولهم إلى القاهرة[2] وكان ذلك آخر عهد الفاطميين بالأساطيل فى مصر، وكان ذلك فى ٩ صفر سنة ٥٦٤ هـ — أى قبل وصول الفرنج إلى القاهرة بيوم واحد — وقد بقيت النار مشتعلة ٥٤ يوما[3].

(١) ياقوت: معجم البلدان جـ ٦ ص ٣٦٨ وعاشور: الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣٧٨ — ٩، Nadvi,: Arabe Nav., vol. 16, 1, P, 84.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب جـ ١ ص ١٥٧ وسرور: الدولة الفاطمية فى مصر ص١٢٩

(٣) ابن واصل: نفس المصدر جـ ١ ص ١٥٧ — ١٥٨، المقريزى: خطط جـ ٢ ص ١٢٣ (ط بيروت)، يقابلها جـ ٣ ص ٣١٤ (ط. النيـــل ١٣٢٥ هـ) مرهنك: حقائق الأخبار جـ ٢ ص ٢٦ — ٢٧

٣ — الموانى الشامية

وجه الفاطميون اهتمامهم ، منذ أن شرعوا فى فتح بلاد الشام سنة ٣٥٩هـ إلى بسط سيطرتهم على موانى تلك البلاد ليتخذوها قواعد لأسطولهم فى شرق البحر المتوسط ، لصد خطر أى اعتداء خارجى عن دولتهم[١] .

وقد لقيت كل من طرابلس[٢] ، وصيدا[٣] ، وصور[٤] ، وعسقلان[٥] عناية فائقة من الفاطميين ، لتكون قواعد بحرية لأسطولهم فى شرق البحر

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٧٨ ، سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ص ١٧ — ١٨ والسيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى ص ٤٧ — ٤٨

(٢) طرابلس : مدينة على البحر المتوسط تابعة لكورة دمشق ، وهى من أهم الثغور البحرية بالشام وتبعد عن بيروت مسيرة يومين . راجع ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ص ٧ و ١٠٥ والمقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٤ والاصطخرى : مسالك الممالك ص ٦١

(٣) صيدا : « Sida, Sidon » : قال عنها بنيامين التطيلى فى القرن الثانى عشر الميلادى : « هى مدينة كبيرة بها كثير من التجار اليهود ، وأسواقها عامرة دائما بكل أنواع المتاجر ... وبينها وبين بيروت مسيرة يوم واحد .

Benjamin of Tudela, Vol. 1, P. 62 & Vol. 2. P. 71.

(٤) صور (Tyre, Sur, Tsour) من مدن السواحل الشامية الهامة ، وبها دار الصناعة ، ومنها تخرج المراكب الفاطمية لغزو الروم ، وهى حصينة جليلة : وهى من كور جند « اقليم أو رباط » فلسطين . راجع اليعقوبى : البلدان ص ٣٢٧ — (آخر كتاب الأعلاق النفيسة لابن رستة ، ضمن المجموعة الجغرافية العربية ، نشر دى غوية ، ليدن ، بريل ، ١٩٦٧ م بالأوفست) .

(٥) عسقلان : « Ascqalon » : هى مدينة على ساحل فلسطين المطل على البحر المتوسط ، بناها كاهن يهودى يسمى عزرا Ezra على الساحل مباشرة وهى =

المتوسط . فزودوا كلا من : صور وعكا وعسقـــلان بعدد من الشوانى والشلنديات والمسطحات ، كما جعلوا فيها جميعا نحو ١٠٠ قواد ، ٥٠٠٠ بحار . وكان الفاطميين ينفقون عليهم رواتب بلغت نحو ٥٥ ألف دينار ، عدا النفقات الأخرى[١] .

وقد وصف المقريزى عنايه الفاطميين بالموانى المطلة على البحر المتوسط وتدعيمها بالأساطيل الحربية والقوات والحاميات العاملة فيها وعليها فقال[٢]: وكان لهم (للفاطميين) اهتمام بأمور الجهاد ، واعتناء بالأسطول .. ، فواصلوا إنشاء المراكب . . وتسييرها إلى بلاد الساحل مثل صور عكا وعسقلان . »

وكانت طرابلس من أهم مدن الشام الواقعة على الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، لمناعتها بسبب وجود سلسلة من الصخور المرجانية[٣] . وقد حرصت الحكومة الفاطمية فى مصر على أن تقيم بها حامية للحراسة ، فضلا عن مراكب حربية تقوم بحماية شواطىء بلاد الشام[٤] . وبلغ من اهتمام الفاطميين بها أن جعلوها ولاية قائمة بذاتها منذ سنة ٣٦٣ ه ، وصار يلى

= تبعد عن مدينة أسدود بستة أميال «فرسخين» ، وبينها وبين عسقلان القديمة ٤ فراسخ « ١٢ ميلا » ، التى يقول بنيامين التطيلى عنها «انها أضحت خرابا» أيامه . وعسقلان مدينة كبيرة يرتادها التجار لتصريف بضائعهم . راجع ياقوت : معجم البلدان (مادة عسقلان) .

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٣ — ٥٢٤ وحسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٣ ص ٢٨٩

(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٩٣ (ط بولاق) .

(٣) وقد اتضح ذلك منذ عهد معاوية بن أبى سفيان فأرسل لها حملة بقيادة سفيان بن مجيب بن الأزدى فبنى عليها حصنا استولى منه على طرابلس نهائيا . راجع Ency. of Islam, Vol. 4, p. 660.

(٤) Ency. of Islam, Vol. 4, p. 660

أمورها ولاه يتميزون بالمقدرة والكفاية(١) .

كذلك لقيت مدن صور وعكا وعسقلان كثيراً من عناية الفاطميين ، لما لها من أهمية فى صد أى هجوم بيزنطى على دولتهم(٢). فعملوا على تحصين مدينة صور وتهيئتها لتكون مرفأ وقاعدة بحرية للاسطول الفاطمى بالشام . وقد حدثنا بنيامين التطيلى Benjamin of Tudela عن ميناء صور بقوله(٣): « أنه يحتل جزءاً هاما من المدينة ، ويقوم على حراسته برجان ، وفيه تلق السفن مراسيها ، ويقوم حراس البرجين بغلق الميناء كل ليلة ، بشد سلسلة حديدية غليظة بين البرجين، وذلك للحيلولة دون ولوج عدو إلى الميناء خلسة أو هرب لصوص البحر بالسفن الراسية فيه». كما أشاد بهذا الميناء فى قوله(٤): « ولا يقابل ميناء صور ميناء آخر فى الأرض » (أى لا يعادله أهمية وحصانة أى ميناء آخر) . كما ذكر أن بميناء صور كان يقيم نحو ٤٠٠ يهودى يملكون السفن ولهم مصانع تنتج الزجاج الصورى الشهير بروعة ودقة صناعته ، كما كان من بينهم أيضا الصباغون(٥) . وفضلا عن ذلك فان صور تعتبر ميناءا هاما ومركزاً تجاريا ، كما وصفها الادريسى بقوله : « أنها مدينة عظيمة على شاطىء البحر ، ذات ميناء عظيم ملىء بحركة الشحن والتفريغ ، للمتاجر القادمة إليها أو الصادرة عنها(٦) .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٠ ، ابن الفرات : تاريخه ج ٨ ص ٧٧

(٢) اليعقوبى : البلدان ص ٣٢٧ — ٣٢٨

(٣) Benjamin of Tudela Vol , p. 62 – 63

(٤) Op. Cit. Vol. 1, p. 63 & Vol. 2, p. 72 – 73

(٥) Op. Cit., Vol. 1. p. 63

(٦) الادريسى : نزهة المشتاق ج ١ ص ٣٤٩ عن
Benjamin of Tudela Vol. 2. p. 73—74

حرص الفاطميون على الاحتفاظ بنفوذهم وسيادتهم فى مدينة صور[1] فبذلوا جهدهم لإخماد الثورة التى قام بها « علاّقة » فى تلك المدينة سنة ٣٨٧ ﻫ (٩٩٨ م) . وكان هذا الثائر يلقى مساندة من البيزنطيين شجعته على إعلان تمرده على الفاطميين . لكن حركته لم تلبث أن فشلت وأخمدت ثورته ، وانتهت حياته بالقبض عليه وقتله فى القاهرة[2] . ومما يجدر ذكره أن « على ابن حيدره » والى طرابلس ، « وابن شيخ » والى صيدا قاما بدور هام فى القضاء على ثورة علاّقة[3] .

ولا شك أن الأباطرة البيزنطيين كانوا يدركون خطورة بقاء الموانى الشامية قوية ومدعمة فى قبضة الفاطميين[4] ، ومن ثم عمدوا إلى تشجيع الحركات المناهضة لسيادة الفاطميين فى المدن والموانى التى تقع فى شرق البحر المتوسط ، مثلما حدث فى تأييدهم ثورة « علاّقة » بصور سنة ٣٨٧ﻫ[5].

وإذا كان الفاطميون قد كسبوا من الروم جولة الصراع فى صور — بإخمادهم ثورة « علاّقة » — فإنهم لم يألوا جهداً فى مدافعة الخطر البيزنطى عن موانى بلاد الشام وتدعيمها بالقوات والأساطيل البحرية، وهو ماظهرت نتائجه سنة ٣٨٩ﻫ حين صد الأسطول الفاطمى فى طرابلس، الامبراطور البيزنطى باسيل الثانى وقواته البحرية ، وتمكن من رده عنها أول سنة ٣٩٠ﻫ[6] . وبذلك زادت قوة الأسطول الفاطمى فى مياه وسواحل الشام ، ولم يكن ذلك

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٧٧ وناصر خسرو : سفرنامه : ص ١٨

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٥٠

(٣) ابن القلانسى : نفس المصدر ص ٥٠

(٤) H. Honigman : Art : Sur « Ency. of Islam ».

(٥) السيد عبد العزيز سالم : طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى ص ٥٩

(٦) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٣١

ليتم للفاطميين لولا إدراكهم لأهمية موانى تلك البلاد فى درء الأخطار عن دولتهم (١) .

لم يجد البيزنطيون إزاء فشلهم فى سياسة التآمر ضد الفاطميين فى صور سنة ٣٨٧هـ ، وهزيمتهم أمام طرابلس سنة ٣٩٠ ، بدأ من عقد صلح تم توقيعه من مندوبى الدولتين الفاطمية والبيزنطية فى صيف ٣٩١هـ (١٠٠١م) وكانت مدته ١٠ سنوات . وكان من نتيجة هذا الصلح أن ظلت السواحل الشامية بمدنها وموانيها فى يد الفاطميين (٢) .

• • •

لم على أن طرابلس لم تستمر خاضعة خضوعا مباشرا للفاطميين ، بل استقل بها أمراء من أسرة بنى عمار ، وأقاموا بها إمارة مستقلة ، وظلوا يحكمونها حتى استولى عليها الصليبيون سنة ٥٠٣هـ (٣) . وقد استهدف بنو عمار من إعلانهم الاستقلال بحكم طرابلس ، أن يجعلوها بعيدة عن القلاقل التى انتشرت فى بلاد الشام فى العصر الفاطمى . ومع ذلك فإن بعض أمراء بنى عمار ـ كالأمير «جلال الملك» ـ حرص على أن تكون علاقته بالفاطميين يسودها الود (٤) . وكان هذا الأمير يرمى من انتهاجه مسلكا وديا تجاه الفاطميين ، تجنيب نفسه عداءهم (٥) .

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٤ ص ٢٠ وأسد رستم : الروم جـ ٢ ص ٥٦

(٢) الانطاكى : تاريخ سعيد بن بطريق ص ٤٦٠ — ٤٦١ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٩٣ ، وسرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٢١ وص ١٤٥ .

(٣) المقريزى : إتعاظ الحنفا ص ٢٦٦ .

(٤) السيد عبدالعزيز سالم : طرابلس الشام ص ٦٥ .

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٩٦ ، وماجد : المستنصر بالله ص ١٨٤ .

فضلا عن حرصه على عدم إثارة حفيظة أهل طرابلس عليه وهم الذين ظلوا يظهرون ميلهم إلى الفاطميين مع تمتعهم بالاستقلال الذاتى عن دولتهم (١) .

أما مدينة صور، فقد تمرد واليها الأمير «منير الدولة الجيوشى» على سلطة الدولة الفاطمية فى سنة ٤٨٦هـ ، لكن أهل المدينة أنكروا على واليهم عصيانه فلم يوافقوه على خروجه على الخليفة الفاطمى المستنصر وقائده بدر الجمالى ، «ونادوا بشعار المستنصر بالله وأمير الجيوش» . فبعث إليهم المستنصر الفاطمى جيشا بقيادة بدر الجمالى ، هاجم مدينة صور وأوقع الهزيمة بواليها الخارج على طاعة الخليفة الفاطمى ، ثم أرسل هو وخواصه إلى مصر فى ١٤ جمادى سنة ٤٨٦هـ ، حيث ضربت أعناقهم (٢).

على أن ضعف النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام ، الذى ظهرت بوادره منذ قام التنافس بين السلاجقة والفاطميين ، على بسط سلطانهم فى تلك البلاد ، (٣) أواخر القرن الخامس الهجرى ، وما صحب ذلك من انتصارات أحرزها الصليبيون فى كل من أنطاكية وبيت المقدس ، كان له أثر بالغ فى عجز الخلافة الفاطمية عن الاحتفاظ بما تبقى لها من سلطان على بلاد الشام (٤) .

* * *

---

(١) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ١٦٤ — ١٧١ ، وعبد العزيز سالم : طرابلس الشام ص ٧٠ — ٧١ .

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ٢ ص ٢١٤ ، وابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٤ — ١٢٥ .

(٣) سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ص ٦٧ - ٦٩ .

(٤) المقريزى : خطط جـ١ ص ٣٥٦ - ٣٥٧ (ط . بولاق)

Gaston Wiet : Précis de l' Hist de l' Egypte, Tome II, p. 186.

الباب الرابع

العلاقات بين الفاطميين فى مصر والدولة البيزنطية والمدن الإيطاليـــة

---

١ ـ العلاقات بين الفاطميين فى مصر والدولة البيزنطية .

٢ ـ علاقة الفاطميين بالمدن الإيطالية :

(أمالفى ـ بيزا ـ جنوة ـ البندقية)

الباب الرابع

العلاقات بين الفاطميين فى مصر والدولة البيزنطية والمدن الإيطاليــة

---

١ — العلاقات بين الفاطميين فى مصر والدولة البيزنطية

لم تستقر العلاقات بين الدولة الفاطميين ، والأمبراطورية البيزنطية على حال ، فأحيانا كانت تتسم بالعداء والقتال ، وأحيانا أخرى يسودها المهادنة . وكانت جزيرة صقلية — خلال الحكم الفاطمى لها — من أشد الجهات تهديدا للدولة البيزنطية ، كما أن خضوعها للسيادة الفاطمية جعلها أكثر تعرضا للخطر البيزنطى (١) . ومع ذلك فإن البيزنطيين — رأوا تحت حكم الظروف المحيطة بهم وبخاصة ما يتعلق بالصعوبات التى واجهتهم من ناحية البلغار (٣٠٤ — ٣٠٥هـ) ، أن يعقدوا اتفاقا مع الفاطميين سنة ٣٠٥هـ (٩١٧ — ٩١٨م) يتعهدون فيه بدفع جزية لهم (٢) .

لكن العلاقات الفاطميـــة البيزنطية ما لبثت أن سادها التوتر ، نتيجة لنقض البيزنطيين ذلك الاتفاق الذى عقد بينهم ، وبين الفاطميين سنة ٣٠٥هـ . وأصبحت منطقة قلورية، الخاضعة للنفوذ البيزنطى ، هدفا لإغارات الأسطول الفاطمى منذ سنة ٣٠٦هـ وحتى ٣١٣هـ (٩١٨ - ٩٢٥م) (٣) ، مما اضطر

---

(١) Amari : Storia dei Musulmani ... , Tome 2, p. 147 &
Rambaud : Hist. de L' Empire Grec, p. 409.

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ١ ص ٢٣٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٧ ص ١١٦ ، وابن عذارى : البيان جـ ١ ص ١٩٨ .

حاكم قلورية البيزنطى إلى معاودة التعهد للفاطميين بدفع إتاوة سنوية ، على أن تتوقف إغارات المسلمين على منطقته (١) .

ولما حاولت الدولة البيزنطية — أيام الامبراطور قسطنطين الثامن — الرد على ذلك باستعادة سيادتها المفتقدة فى غرب البحر المتوسط والبحر التيرانى، تصدى لها الفاطميون ، فقام أسطولهم بهجمات متتالية فى سنة ٣٢٣هـ على جزر سردينيا وكورسيكا ومدينة جنوة — وهى مناطق كانت تدين بالتبعية البيزنطية — وأنزل بسفن الأسطول البيزنطى ، الذى اشتبك فى الحرب ضدهم ، خلال هذه الهجمات ، كثيرا من الخسائر (٢) .

على أن البيزنطيين ما لبثوا أن أدركوا أن الصراع البحرى بينهم وبين الفاطميين لن يكون فى صالحهم . ومن ثم آثروا المهادنة ، وعقدت هدنة بين دولتيهما سنة ٣٤٥هـ ، ثم جددت سنة ٣٥٠هـ (٩٦١م) . وظل البيزنطيون يدفعون بمقتضاها جزية للفاطميين حتى امتنع الامبراطور نقفور فوكاس عن أدائها بعد سنة ٣٥٢هـ (٩٦٣م) (٣) . ولكنه ما لبث أن اضطر إلى مهادنة الفاطميين بعد هزيمة أساطيله فى موقعتى رمطة والمجاز سنتى ٣٥٣هـ ، ٣٥٤هـ (٤).

ومن ناحية أخرى كانت استعدادات « المعز لدين الله الفاطمى » لفتح مصر ، وانشغاله باقرار الأمور فى المغرب ، مما حمل هذا الخليفة على قبول مهادنة البيزنطيين الذين هزمتهم قواته بصقلية فى واقعتى رمطة والمجاز . فأمر واليه على صقلية أن يعقد صلحا مع البيزنطيين ، وتمت الهدنة بين

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١١٦ .

(٢) ابن الأثير : نفس المصدر ج ٨ ص ١٠٨ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ١٠٦ ، وابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٩٩ — ٢٠٠ ، وابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٢٠٩ .

(٤) Camb. Med. Hist., Vol : 4, p. 149.

الطرفين سنة ٣٥٧هـ . وبذلك استمرت العلاقات الودية ظاهرة بين الدولتين(١).

هكذا ساد السلام والهدوء العلاقات الفاطمية البيزنطية ، فى مستهل حكم الأمبراطور «حنا زيمسكيس» (John Tzimisces ٩٦٩–٩٧٦م / ٣٥٩ — ٣٦٦هـ) (٢) . وقد ظل الفاطميون، فى افريقية وصقلية يراعون ما بينهم وبين الروم من هدنات .

ولما تم للفاطميين فتح مصر سنة ٣٥٨هـ ، وشرعوا فى مد سلطانهم إلى بلاد الشام ، واجهوا صعوبات كثيرة من ناحية البيزنطيين ، الذين أخذوا يهددون حدود سورية الشمالية بغاراتهم المتتالية (٣) . وكانت قواتهم قد زحفت إلى أنطاكية سنة ٣٥٨ (٩٦٩م) واستطاعوا بعد فترة وجيزة أن يدخلوا حلب ويرغموا حاكمها على عقد صلح معهم (٤).

لذلك عمل الخليفة المعز لدين الله فى مصر ، على بذل كل ما يمكنه من جهد ، فى سبيل استعادة ما أخذه البيزنطيون من المدن الواقعة فى شمال بلاد الشام ، حتى لا يصيروا خطرا يهدد النفوذ الفاطمى بتلك البلاد ، وقام بتنفيذ هذه السياسة القائد «جعفر بن فلاح الكتامى» ، لكن حملات الفاطميين لاسترداد أنطاكية لم يكتب لها النجاح ، لانشغالهم بالقضاء على نفوذ القرامطة بالشام (٥) .

---

(١) القيروانى : المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ص ٦١ ، ٦٤ — ٦٥ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٣٩ .

(٢) يسميه الأنطاكى «يانيس أو يانس بن الشميشق ملك الروم» ، راجع الانطاكى : تاريخ يحيى بن سعيد البطريق ص ٣٦٨ (١٦٠) .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٢٠ .

(٤) سرور : سياسة الفاطميين ص ٢٣٩ .

(٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٧٧ — ١٨٨ .

وقد اتخذ البيزنطيون من النزاع الناشب بين القرامطة بالشام، وبين الفاطميين فرصة سانحة لمواصلة غاراتهم على تلك البلاد . فتقدم الأمبراطور حنا زيمسكيس فى عام ٩٧٥م (٣٦٤ — ٣٦٥هـ) من أنطاكية إلى حمص وبعلبك . واضطرت دمشق إلى التسليم ، وقبلت دفع جزية سنوية للروم قدرها ٦٠ ألف دينار ، كما خضعت طبرية للروم وعين زيمسكيس عليها حاكما بيزنطيا . كذلك سلمت له مدينتا عكا وقيسارية دون مقاومة ، وتابع البيزنطيون زحفهم حتى دخلوا كلا من بيروت وصيدا (١) .

غير أن القوات الفاطمية المتراجعة أمام زحف قوات زيمسكيس احتمت بالمواقع الحصينة الواقعة على ساحل البحر المتوسط ، وجاءتها الامدادات الوفيرة من البحر . فعمل الأمبراطور على التصدى لهذه القوات ، قبل أن يمضى فى مسيرته إلى بيت المقدس ، فسار شمالا حيث استولى على صيدا وبيروت (٢) .

ولما حاول الجيش البيزنطى الاستيلاء على طرابلس ، أوقعت به حامية المدينة الهزيمة ، بفضل معاونة الأسطول بقيادة « ريان الخادم » (٣) ، واضطر الأمبراطور البيزنطى إلى العودة إلى عاصمته ، ولم يلبث أن توفى فى أوائل عام ٩٧٦م (٣٦٥هـ) (٤) .

---

(١) الأنطاكى تاريخ سعيد بن بطريق ص ٣٦٨ — ٣٦٩ [١٦٠]
Camb. Med. Hist, Vol. 4. p. 148,

(٢) الانطاكى : تاريخ سعيد بن بطريق ص ٣٦٩ .

(٣) تولى « ريان الخادم » عمل دمشق بعد عزل واليها [أبا محمود بن جعفر] الذى أساء السيرة فيها منذ وليها سنة ٣٦٣ هـ . حتى عزل عنها آخر سنة ٣٦٤ هـ . راجع ابن الأثير جـ ٨ ص ٤٧٢ .

(٤) الأنطاكى : نفس المصدر ص ٣٧١ — ٣٧٢ [١٦٣ — ١٦٤] ، ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٤٧٢ وكانت وفاة زيمسكيس يوم ١٣ يناير ٩٧٦م [جمادى الأولى ٣٦٥ هـ] أى عقب وفاة الخليفة المعز لدين الله التى أخفيت ثمانية أشهر ولم تعلن إلا يوم ١٠ ذى الحجة ٣٦٥ هـ .

استمر النزاع قائما بين الدولة الفاطمية فى مصر والشام وبين الدولة البيزنطية ، حتى قدمت رسل الأمبراطور البيزنطى باسيل الثانى إلى الخليفة « العزيز بالله » سنة ٣٧٧هـ ، تحمل هدية له مكونة من ٢٨ صينية ذهبية ، وتطلب عقد الصلح مع الخليفة الفاطمى[١] . فأجاب العزيز طلبهم واشترط لذلك : « أنهم (أى الروم) يحلفون ألا يبقى فى مملكتهم أسير إلا أطلقوه ، ويخطب للعزيز بالقسطنطينية ويحمل إليه من أمتعة الروم كل ما فرضه عليهم ، وأن يكون أمد الهدنة سبع سنوات[٢] » .

ولعل الغرض الأساسى من سفارة باسيل الثانى إلى الخليفة « العزيز بالله الفاطمى » ، هو رغبته فى تجنب ما قد يقوم به الأسطول الفاطمى ، شرق البحر المتوسط ، من هجمات ضد السواحل البيزنطية فى آسيا الصغرى ، فيتحرج بذلك موقفه . كما كان يرمى إلى منع قيـــام تحالف بين الثائر البيزنطى « بارداس فوكاس » ، وبين العزيز بالله الفاطمى . ويبدو أن هذه الأهداف التى رمى إليها باسيل الثانى ، هى التى حدت به أن يقبل ما اشترطه عليه الخليفة العزيز بالله الفاطمى ، حتى يتفرغ لمواجهة فتنة بارداس فوكاس والقضاء عليها .

لكن هذه الهدنة التى قبلها الطرفان ، لم يترتب عليها وقف الحرب بينهما . لأن « سعيد الدولة أبا الفضائل بن حمدان » أمير الحمدانيين فى حلب ، لما علم بتقدم الفاطميين فى بلاد الشام ، استنجد بالأمبراطور البيزنطى باسيل الثانى[٣] ، فأمده بحملة والتقت القوات الفاطمية والبيزنطية على ضفاف نهر العاصى (Orontes) فى رمضان ٣٨١هـ (نوفمبر ٩٩١م) ، وحلت الهزيمة بالبيزنطيين .

---

(١) الانطاكى : تاريخ سعيد بن بطريق ص ٤٤٧ — ٤٤٨ [٢٢٩ ٢٤٠] ، وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٥١ .

(٢) أبو المحاسن : نفس المصدر جـ ٤ ص ١٥١ — ١٥٢ .

(٣) أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ص ٢٢٠ .

وعاد القائد الفاطمي « منجوتكين » إلى دمشق لنفاد أقوات جيشه ، فاستاء لذلك الخليفة العزيز بالله الفاطمي ، وأمره بالاستيلاء على حلب ، فسار إليها وظل يحاصرها مدة ثلاثة عشر شهرا (١) . وفي أثناء ذلك الحصار ، انصرف الامبراطور باسيل الثاني لقتال البلغار ، وأرسل إلى دوق أنطاكية « ميخائيل البرجي » يأمره بالسير إلى حلب لصد الفاطميين عنها . وكان القائد الفاطمي « منجوتكين » قد أنفذ إلى البرجي مبعوثا من قبله ليوضح له أن وجهته حلب ، وليست انطاكية ، وأنه لن يتعرض للبلاد البيزنطية بسوء . غير أن ميخائيل البرجي لم يأبه لتأكيدات منجوتكين له ، وأمر باعتقال رسوله ، وخرج بجيش ضخم لمواجهة القوات الفاطمية (٢) .

وقد أدى ورود الإمدادات من مصر إلى منجوتكين ، وانتصاراته الحاسمة عند مخاضة نهر العاصي سنة ٣٨٤هـ (٩٩٤م) على القوات البيزنطية ، إلى ازدياد الحالة سوءا في حلب ، التي كانت لا تزال محاصرة فقلت بها الأقوات ، وفشل أميرها « لؤلؤ الخادم » في انقاذ الموقف فيها ، مما حمله على الاستنجاد بالامبراطور البيزنطي « باسيل الثاني » ، محذرا له من عواقب سقوط حلب في يد قوات الفاطميين ، فقال له : « متى أخذت حلب أخذت انطاكية ، ومتى أخذت انطاكية ، أخذت قسطنطينية » (٣) .

ويبدو أن باسيل الثاني كان قد علم بأنباء الهزيمة التي حلت بقواته عند مخاضة « نهر العاصي سنة ٣٨٤هـ (٩٩٤م) ، كما علم بما تعانيه حلب من تضييق القوات الفاطمية الحصار عليها ، وبما جرى فيها من حوادث نهب على أيدي بدو الشام مما زاد من سوء أحوالها الاقتصادية . لذلك عول على العودة من بلاد البلغار والسير إلى منطقة شمال سوريا للاستيلاء عليها (٤) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٣١ ، ٦٣ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٨ .
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٩ — ١٢٠ .
(٤) أبو شجاع : ذيل تجارب الامم ص ٢٢٠ .

على أن «لؤلؤ الخادم» - أمير حلب - ما أن علم بعزم الأمبراطور البيزنطى على الزحف إلى شمال الشام، حتى أرسل إلى منجوتكين رسالة يخبره فيها وينبهه إلى خطة باسيل الثانى، ومما جاء فى هذه الرسالة : «أن الإسلام جامع بينى وبينك، وأنا ناصح لكم، وقد وافاكم ملك الروم بجنوده، فخذوا لأنفسكم».

فرأى منجوتكين - بعد أن أيقن من صحة كلام «لؤلؤ الخادم» أن يرفع الحصار عن حلب، ثم اتجه بعد ذلك إلى دمشق سنة ٣٨٥هـ (٩٩٥م) [(١)].

أما فيما يتعلق بالأمبراطور البيزنطى فإنه تمكن سنة ٣٨٥هـ من تجديد محالفته مع حلب، واستطاع أن يكتسب شروطا فى صالح مسيحيي المدينة. ثم زحف على شمال الشام، فاستولى على حصن شيزر من يد «منصور بن كراديس» أحد قواد الخليفة العزيز بالله الفاطمى [(٢)]، وفتح حمص، ثم تابع سيره حتى وصل إلى طرابلس الشام. لكنه لم يتمكن من فتحها، بسبب صمود حاميتها واستماتة أهلها، فى الدفاع عنها، مما اضطره إلى العودة إلى القسطنطينية سنة ٣٨٥هـ (٩٩٥م)، بعد أن سيطر على كثير من مدن ساحل الشام [(٣)].

وقد رأى كل من الخليفة الفاطمى «العزيز بالله» وأمير حلب «لؤلؤ الخادم»، ازاء هذا الوضع الخطير فى بلاد الشام، الذى نشأ عن وقوع كثير منها فى يد الروم، أن يركنا إلى الموادعة، وتوسط فى الصلح بينهما «بدر الحمدانى»

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٤٣، وابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٦٣.

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٢٠ — ١٢١. وهذا الحصن قرب معرة النعمان. راجع ياقوت : معجم جـ ٥ ص ٣٢٤؛ سرور : دراسات فى العلاقات السياسية بين دول الشرق الإسلامى والدولة البيزنطية ص ٣٢ — ٣٣.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٢٠ — ١٢١.
Camb. Med. History. Vol. 5, p 257.

سنة ٣٨٥هـ (٩٩٥م) وعقدت بينهما معاهدة : اعترف فيها « لؤلؤ الخادم » بالخلافة الفاطمية وأقام الدعوة للعزيز بالله الفاطمى على منابر بلاده (١) .

كذلك ساء الخليفة العزيز بالله أن تظل معظم مدن الشام الساحلية فى أيدى الروم، لما فى ذلك من تهديد خطير للنفوذ الفاطمى فى بلاد الشام. ومن ثم استقر رأيه على أن يسير بنفسه على رأس حملة لاسترداد البلاد التى سقطت فى يد البيزنطيين، وأمر وزيره « عيسى بن نسطوروس » بأن يجهز سفنا جديدة للأسطول للنبحر مع حملته البرية إلى طرابلس الشام . لكن عملاء بيزنطة بالقاهرة — المقيمين فى دار فاتك (٢) — تمكنوا من إشعال النار فى السفن التى كانت راسية فى ساحل المقس (٣) . فأثار هذا العمل غضب المصريين ، فحملوا عليهم وأعملوا فيهم القتل ، وسادت الفوضى والاضطرابات أنحاء القاهرة من جراء ذلك (٤) » .

غير أن الخليفة الفاطمى « العزيز بالله » سيطر على الموقف ، وأصدر أوامره إلى وزيره « عيسى بن نسطورس » بإنشاء أسطول آخر عوضا عن المراكب التى احترقت . فجد « ابن نسطوروس » فى تنفيذ المهمة المنوط بها ، وبدأ بجمع الأخشاب ، من كل مكان بمصر ، وحشد الصناع للقيام بعمل المراكب المطلوبة للحملة فى أسرع وقت ممكن . وأبحرت السفن الجديدة إلى « أنطرطوس » ، بقيادة « رشيق العزيزى » ، إلا أنها ما لبثت أن تحطمت فى البحر على أثر هبوب عاصفة عليها ، وهى فى عرض البحر قريبا من ميناء طرابلس الشام . وتمكن الروم من أسر بعض بحارة الأسطول المصرى

(١) الأنطاكى: تاريخ سعيد بن بطريق ص ٤٤٧ — ٤٤٨ [٢٣٩ — ٢٤٠].
Camb. Med. Hist., Vol. 5, p. 252.

(٢) الانطاكى : تاريخ سعيد بن بطريق ص٤٤٧ — ٤٤٨ [٢٣٩ — ٢٤٠].

(٣) كان عدد هذه السفن التى احترقت ٥ عشاريات ، ٦ مراكب أخرى فارغة .

(٤) مرهنك : حقائق الإخبار ج ٢ ص ١٤٠ .

نتيجة لذلك(١) أما فيما يتعلق بالحملة البرية ، فخرجت بقيادة «العزيز بالله» ، إلا أنه لم يتمكن من الوصول إلى الشام ، لاشتداد المرض عليه عند بلبيس ، ووفاته هناك فى ٢٨ رمضان ٣٨٦هـ (٩٩٦م)(٢) .

أخذ البيزنطيون ينتهزون الفرص للعمل على إضعاف النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام . ففى أوائل عهد الخليفة « الحاكم بأمر الله » قامت ثورة فى صور سنة ٣٨٧هـ (٩٩٧م) بزعامة « علاقة » ، واستنجد هذا الثائر بالامبراطور « باسيل الثانى » ، فأرسل إليه الامبراطور الإمدادات فى البحر ليدعم موقفه ضد الفاطميين . وكان هذا الثائر قد أعلن استقلال مدينته صور وسك لنفسه عملة جديدة ، بخلاف عملة الدولة الفاطمية نقش عليها عبارة « عزا بعد فاقه للأمير علاقة »(٣) .

على أن موقف باسيل الثانى ، الذى ينطوى على تأييد ثورة علاقة ضد الفاطميين لم يكن موقفا حكيما . لأن الوقت لم يكن مناسبا لمعاداة الدولة الفاطمية ، إذ كان الاستقرار يسود هذه الدولة فى أوائل سنة ٣٨٧هـ ، مما أتاح للفاطميين الفرصة لمواجهة ثورة علاقة بنجاح .

لقد رأى برجوان — الذى كان يلى الوصاية على الحاكم بأمر الله وقتذاك — أن يقوم بالقضاء على ثورة صور ، فأرسل حملة برية كبيرة سنة ٣٨٨هـ بقيادة « جيش بن محمد بن الصمصامة الكتامى » إلى صور . كما أنفذ إلى مياه صور أسطولا من عشرين سفينة حربيه مشحونة بالعساكر ، وأمر واليا طرابلس ، صيدا ، وولاة الجهات المجاورة بالمسير إلى صور ، وبذلك اجتمع على

---

(١) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ١٩٥ — ١٩٦ [ط . بولاق] وسرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٤١ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٢٢ .

(٣) الانطاكى : تاريخ سعيد بن بطريق ص ٤٥٥ [٢٤٧] وحتى : تاريخ سورية ولبنان جـ ٢ ص ٢١٣ .

باب المدينة عدد كبير من القوات الفاطمية ، التى حاصرت المدينة براً وبحراً ، ودارت معركة بين الجانبين حلت فيها الهزيمة بالبيزنطيين. واستعادت القوات الفاطمية مدينة صور، وقبض على الثائر علاقة الذى أرسله ابن الصمصامة إلى القاهرة حيث قتل[1] .

وفى نفس الوقت واصل « جيش بن محمد بن الصمصامة الكتامى» زحفه إلى أفامية (Apamea) [2] التى تعرضت لهجوم عنيف من قبل دوق انطاكية البيزنطى . واستماتِ (ابن الصمصامة) فى دفاعه عن إفامية بقوات من بيروت وصور ودمشق ، ودارت عدة معارك بين الطرفين ، انتهت بمقتل الدوق البيزنطى وهزيمة جيشه وهلاك كثير من من عساكره[3] .

استاء الأمبراطور باسيل الثانى لما حل بقواته فى أفامية من هزيمة وكان وقتذاك منشغلا بحرب البلغار . ويبدو أن الأمبراطور وافق — خشية من تشتت جهود قواته، بين جبهتى البلغار والفاطميين — على عرض (برجوان الصقلى) الصلح ومسالمة الخليفة الفاطمى . فأرسل الأمبراطور فى سنة ٣٨٨هـ (٩٩٨م) سفارة إلى القاهرة المتفاوض فى عقد الصلح أو الهدنة مع الفاطميين[4] .

لكن برجوان — الوصى وقتذاك على الخليفة الحاكم بأمر الله — أوقف

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٥٠ — ٥١ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٨٤ .

(٢) الانطاكى : تاريخ سعيد بن بطريق ص ٤٥٤ — ٤٥٥ ، ٢٤٦ — ٢٤٧ ، وابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٥٧ .

(٣) أبو شجاع : ذيل تجارب الأمم ص٢٢٧ ، وابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٨٥ وأسد رستم : الروم جـ ٢ ص ٥٥ .

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٥٤ — ٥٥ .

المفاوضات مع الوفد البيزنطى . حين علم أن باسيل الثانى عزم على الزحف على رأس جيش لمهاجمة بلاد الشام ، لينتقم لهزيمة الروم فى صور وأفامية وأنطاكية(١) .

ثم استطاع باسيل الثانى فى خلال زحفه على شمال الشام سنة ٣٨٩ هـ ، أن يستولى على شيزر ، واتجه بعدها إلى طرابلس فى ديسمبر ٩٩٩ م (ذى الحجة عام ٣٨٩ هـ) لحاصرها ، لكنه هزم أمامها لصمودها ، وعاد خائباً إلى أرمينية فى يناير سنة ١٠٠٠ م (المحرم ٣٩٠ هـ) مؤثراً استتباب السلم فى حدود بلاده الجنوبية حتى يتفرغ لمواجهة البلغار(٢) .

واستؤنفت المفاوضات فى القاهرة : بين رجال الدولة الفاطمية والسفير البيزنطى ، وتم الاتفاق على شروط الصلح فى سنة ٣٩١ هـ (١٠٠١م) ، وسافر [أريسطيس] بطريرك بيت المقدس إلى القسطنطينية بصحبة الرسول البيزنطى لعرض شروط الصلح وإقرارها من الامبراطور .

ويذكر الانطاكى أن [أريسطيس] بطريرك بيت المقدس كان مفوضا من الحاكم بأمر الله الفاطمى ، بتوقيع المعاهدة ، إذا كانت شروطها مقبولة لديه شخصياً . حتى لقد قيل لرسول بيزنطة أن ما يقره [أريسطيس] فإن الخليفة الفاطمى ممضيه ومرتضى به ، « وخلع الحاكم بأمر الله » على كل منهما خلعا نفيسة ومنحهما الكثير من الهبات والعطايا ، ثم سار المبعوثان (الفاطمى والبيزنطى) إلى القسطنطينية(٣) .

---

(١) الأنطاكى : تاريخ سعيد بن بطريق ص ٤٦١ [٢٥٣] .

(٢) الأنطاكى : المصدر السابق ص ٤٦١ [٢٥٣] ، سرورة سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

(٣) الانطاكى : تاريخ سعيد بن بطريق ص ٤٦١ [٢٥٣] .

وأبرمت المعاهدة بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية . وكانت تنص على ما يأتى(١) :

١ — أن تستمر الهدنة بين الدولتين مدة عشر سنوات .

٢ — أن تكفل الدولة الفاطمية الحرية الدينية للمسيحيين بها ، كما تتعهد بالسماح لهم بتجديد كنائسهم وأديرتهم وبنائها .

٣ — أن تقوم الدولة البيزنطية بإمداد مصر بحاجتها من الغلال(٢) .

لكن سياسة (الحاكم بأمر الله) العدائية تجاه الذميين فى مصر ، التى بدأت من شهر المحرم سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ م) أدت إلى أن يسود التوتر من جديد جو العلاقات الفاطمية البيزنطية . وظل الحال على ذلك حتى ٤٠٥ هـ (١٠١٥ م) ، ومما يذكر أن (يحيى بن سعيد الأنطاكى) نفسه كان ممن نالهم هذا الاضطهاد ، مما اضطره إلى اللجوء لأنطاكية . والمعروف أن الخليفة « الحاكم بأمر الله » أمر ، خلال هذه الفترة ، بهدم كنيسة القيامة (كنيسة القبر المقدس) ببيت المقدس فى المحرم ٣٩٨ هـ ، كما أمر بهدم كل بيع وأديرة اليهود والنصارى ، القائمة فى الدولة الفاطمية ، وخيرهم — أى الذميين — بين اعتناق الاسلام أو ترك البلاد ، وفرض عليهم ارتداء أزياء تميزهم عن المسلمين . مما اضطر الكثير منهم إظهار اعتناق الاسلام خوفاً ورهبة ، ومما أتاح للإمبراطور البيزنطى أن يجاهر بعدائه للدولة الفاطمية(٣) .

---

(١) الأنطاكى : نفس المصدر ص٤٦٠ — ٤٦١ وأبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٩٢ .

(٢) أسد رستم : الروم جـ ٢ ص ٥٧ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص٦٦ — ٦٧ ، وابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص١٤٧ .

كان من أثر سياسة الحاكم بأمر الله العدائية إزاء النصارى ، أن عمد الامبراطور البيزنطى باسيل الثانى ، إلى معاونة بعض أمراء العرب بالشام فى خروجهم على الفاطميين . فأجار كل من لجأ إليه منهم ، كما استغلهم فى إثارة القلاقل والاضطرابات فى البلدان الخاضعة للنفوذ الفاطمى بالشام منذ سنة ٣٩٨ ه ، وحتى أواخر عهد الخليفة الحاكم بأمر الله[1] . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل قطع الامبراطور البيزنطى علاقته بالدولة الفاطمية ، وشجع أميرى صور وطرابلس على الثورة على الحكم الفاطمى[2] ، وأصدر أوامره بمنع رعايا دولته من السفر إلى بلاد الدولة الفاطمية ، وتبادل التجارة معها ، مما أثار سكان الأقاليم المتاخمة لشمال الشام ، حيث كانت الحركة التجارية بين المسلمين والبيزنطيين تتسم بالنشاط .

ولما توفى « الحاكم بأمر الله » سنة ٤١١ ه (١٠٢٠ م) — وخلفه ابنه الظاهر (٤١١ - ٤٢٧ ه/١٠٢٠ - ١٠٣٥ م) حاولت عمته ست الملك — القائمة بالوصاية عليه — تحسين العلاقات بين الدولتين وتدعيمها من جديد . فأرسلت « نقفور » بطريرك بيت المقدس ، إلى الامبراطور البيزنطى باسيل الثانى ، لعقد أواصر الصداقة بين الدولتين . وليحيطه علماً بما اتخذته الدولة الفاطمية من إجراءات لرفع الغبن عن النصارى وتجديد بناء الكنائس[3] .

لكن السفارة الفاطمية التى أوفدتها « ست الملك » عادت إلى القاهرة ، دون أن تحرز تقدماً يذكر . بينما استمرت الغارات البيزنطية على شمال الشام حتى سنة ٤١٨ ه (١٠٢٧ م) ، حيث أرسل الخليفة «الظاهر الفاطمى» سفارة ثانية إلى الامبراطور البيزنطى قسطنطين الثامن (١٠٢٥ — ١٠٢٨م/٤١٥ —

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٦٧ .

(٢) ابن القلانسى : المصدر السابق ص ٥٥ .

(٣) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٤٣ .

٤١٨ هـ) لعقد الصلح . وقد نجحت هذه السفارة فى مهمتها فتم الاتفاق بين الدولتين على عقد معاهدة يلتزم بتنفيذها كل من الطرفين : الامبراطور البيزنطى والخليفة الفاطمى(١) .

فيما يتعلق بالدولة الفاطمية كان عليها أن :

١ — تسمح للبيزنطيين بإعادة بناء كنيسة القبر المقدس (كنيسةالقيامة) فى بيت المقدس .

٢ — تصرح الدولة الفاطمية للمسيحيين بإعادة بناء كل الكنائس التى هدمت فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله ، فيما عدا ما تم تحويله منها إلى مساجد ، وتأذن لمن أسلم من النصارى ، أيام الحاكم قسرا بالعودة إذا أحبوا — إلى دياناتهم ، دون ضغط أو إكراه .

٣ — يعين الامبراطور البيزنطى بطريقا فى بيت المقدس .

٤ — لا يقوم الفاطميون بأى عمل عدائى تجاه مدينة حلب ، حتى تقوم بأداء ما عليها من جزية سنوية، تعهدت بدفعها للدولة البيزنطية منذ سنة ٣٥٩هـ (٩٧٠م) . [وكان ذلك تلبية لرغبة أميرها « صالح بن مرداس » (٤١٤ — ٤٢٠هـ) هذا فضلا عما كان لحلب من أهمية تجارية بالنسبة للبيزنطيين (٢)] .

٥ — تتعهد الدولة الفاطمية بعدم مساعدة أى عدو للدولة البيزنطية ، وبخاصة أهل صقلية ، الذين كانوا مصدر تهديد دائم للبيزنطيين فى بحر الأرخبيل .

---

(١) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ١٦٢ [ط . بيروت] واتعاظ الحنفا ص ٢٧٥ .

Camb. Med. History. Vol. 5, p 256.

(٢) سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ص ٥٥ والعرينى : الدولة البيزنطية ص ٥٩٦ — ٥٩٧ وراجع أيضاً :

Camb. Med Hist. Vol., 5, p. 256.

أما بالنسبة للدولة البيزنطية فيتعهد الامبراطور بما يأتى[1] :

١ — تسمح الدولة البيزنطية بذكر اسم الخليفة الفاطمى فى الخطبة ، فى مسجد القسطنطينية والمساجد الواقعة داخل حدود الدولة البيزنطية .

٢ — يقوم الامبراطور بإعادة بناء جامع القسطنطينية ، ويعين له مؤذنا .

٣ — أن يطلق الامبراطور سراح أسرى المسلمين ، الذين فى قبضة الروم .

٤ — يتعهد الامبراطور بعدم مساعدة « حسان بن مفرج بن الجراح الطائى » صاحب الرملة ، الذى تمرد على الخليفة الظاهر الفاطمى .

على أن البيزنطيين لم يلتزموا بشروط ذلك الصلح ، فأثار الامبراطور رومانوس الثالث (١٠٢٨ - ١٠٣٤م / ٤١٩ - ٤٢٥هـ) بعض أمراء العرب بالشام على الخلافة الفاطمية ، وبخاصة فى طرابلس ، التى تعهدت سنة ٤٢١هـ بدفع جزية سنوية للامبراطور البيزنطى .

كما انضم البيزنطيون سنة ٤٢٢هـ (١٠٣٠ - ١٠٣١م) إلى بعض المناهضين للنفوذ الفاطمى من أمراء العرب فى الشام ، مثل حسان بن مفرج بن الجراح صاحب الرملة ، الذى لجأ إليهم بعد هزيمته عند طبرية ، على يد جند الخليفة الظاهر الفاطمى[2] .

ولما اضطربت الأمور فى بلاد الشام فى أواخر عهد الظاهر الفاطمى ، رأى « أنوشتكين الدزبرى » القائد الفاطمى فى تلك البلاد أن يكتب إلى دوق انطاكية البيزنطى ، يطلب منه العمل على عقد هدنة بين « الظاهر الفاطمى » ، وبين الامبراطور البيزنطى « رومانوس الثالث »[3] وقد وجدت رغبة الفاطميين فى الصلح صدى طيبا ، لدى الامبراطور البيزنطى الذى كانت أراضيه قد

Gaston, Wiet: Prècis de l' Hist de la Nation Egyptienne. (١) Vol 2, p. 183 & Camb. Med. Hist., Vol. 5, p. 256—257.

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ١٥٨ .

(٣) الأنطاكى : تاريخ سعيد بن بطريق ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .

تعرضت للغارات الفاطمية ، كما أن بلاده كانت تعانى وقتذاك من بعض الصعاب الداخلية . واتفق الطرفان على لقاء ممثليهما فى « أنطرطوس » على الحدود الفاطمية البيزنطية [١] .

لكن استيلاء دوق انطاكية على حصن بكسرائيل ـ فى إقليم جبال الأنصارية ـ [٢] سنة ٤٢٣هـ (١٠٣١ - ١٠٣٢م) ، حمل الخليفة الفاطمى على الدعوة إلى الجهاد ضد البيزنطيين . « فنودى فى الناس بمصر ، وفى سائر البلاد الشامية ، بالنفير إلى الغزو ، وقرئت فى ذلك سجلات الظاهر الفاطمى ، فى الدعوة للجهاد . امتعاضا لما أخذه الروم من المدن (مثل الرها) ونهبهم مدينة رفنية ، [٣] وما فعلوه فى غيرهما ، لتتفق الكلمة على قصدهم » [٤] .

وفى هذا الوقت أبدى البيزنطيون ميلهم إلى المهادنة والصلح ، ورأوا أن القائد الفاطمى إذا ما رغب فى ذلك ، عليه أن يبعث رسولا بصحبة السفير البيزنطى إلى الامبراطور رومانوس الثالث ، ليطلعه على شروط الصلح ، وكانت شروط الأمبراطور لقبـــول الصلح مع الفاطميين تطابق ، إلى حد ما ، الاتفاق الذى سبق عقده سنة ٤١٨هـ ، وتنص على ما يأتى [٥] :

---

(١) الانطاكى : تاريخ سعيد بن بطريق ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

(٢) العرينى : الدولة البيزنطية ص ٦٨٦ — ٦٨٧ .

وهذه الجبال تصل ما بين انطاكية وحارم فى الشرق وتمتد جنوبا على طول الساحل إلى « مرقية » Maraqiyah .

راجع ياقوت جـ ٢ ص ٢٥٦

Camb. Mad. Hier., Vol. 5, p. 257.

(٣) رفنية : مدينة [بلدة] عند طرابلس ، وهى من سواحل الشام . راجع ياقوت معجم البلدان جـ ٤ ص ٣٦٦ .

(٤) الأنطاكى : نفس المصدر ص ٢٦٩ .

(٥) الأنطاكى : نفس المصدر ص ٢٧٠ .

١ — أن يعيد الأمبراطور بناء كنيسة القيامة من ماله ، كما يعيد النصارى بناء الكنائس والأديرة التى خربت أو تهدمت فى بلدان الدولة الفاطمية وتختار القسطنطينية بطريرك بيت المقدس .

٢ — لا يتعرض الفاطميون لحلب ، ويتركوها على وضعها تؤدى ما عليها من جزية للبيزنطيين .

٣ — يتعهد الفاطميون بعدم مساعدة أعداء بيزنطة حاضرا أو مستقبلا ، وبخاصة مسلمى صقلية [١] .

كما تعهد البيزنطيون بما يأتى :

١ — إطلاق سراح الأسرى المسلمين ، عوضاً عن بناء كنيسة القيامة ، وإعادة « حسان بن مفرج الطائى » إلى ملكه واقطاعه ـ الذى كان عليه أيام الحاكم بأمر الله (بشرط حسن الطاعة ، ولزوم الطرائق الحميدة) .

٢ — ينزل الأمبراطور البيزنطى للفاطميين عن حصن شيزر ، على أن يأخذ (أفامية) عوضا عنه ، لقربها من الأراضى البيزنطية ، ولمجاورتها حصونهم [٢] .

وقد وافق الخليفة الظاهر على بعض شروط الأمبراطور ، واعترض على الشرط المتعلق بحلب ، وطلب عدم ذكره فى الاتفاق ، كما رفض إعادة حسان بن مفرج الجراح إلى ملكه وإقطاعه ، ولم يرغب فى أخذ حصن شيزر بدلا من أفامية .

أما فيما يتعلق بالأمبراطور البيزنطى (رومانوس الثالث) فإنه تمسك بالشرط الخاص بمدينة حلب . ولم تنقطع المكاتبات بين الطرفين حول

---

(١) الانطاكى : تاريخ سعيد بن بطريق ص ٢٧١ ، وأسد رستم : الروم جـ ٢ ص ٦٤ .

(٢) الانطاكى : المصدر السابق ص ٢٧١ وأسد رستم : الروم جـ٢ ص٦٤ .

الشروط التى كانت محل خلاف . ثم وافق الامبراطور البيزنطى سنة ٤٢٤هـ ١٠٣٣ - ١٠٣٤م) - أى بعد مراسلات استمرت ثلاث سنوات ونصف - على شروط الخليفة الظاهر الذى هدد البيزنطيين باستخدام ما انتزع من الكنائس - بمصر وبيت المقدس - من مواد وحجارة فى عمارة سور أقامه حول بيت المقدس (١) .

وكان مما اضطر الامبراطور البيزنطى إلى قبول شروط الظاهر الفاطمى، أن الفاطميين كانوا قد أحكموا - (وقتذاك ٤٢٣ - ٤٢٤هـ) الحصار حول طرابلس الشام ، خاصة بعد أن عجز دوق انطاكية البيزنطى عن صدهم ، وبعد فشل الحملة البيزنطية البحرية التى هاجمت فى هذا الوقت ميناء الاسكندرية (٢).
كذلك قام نصر بن صالح بن مرداس الكلابى (أمير حلب (الملقب) بشبل الدولة)(٣) (٤٢٠ - ٤٢٩هـ) بطرد مندوب الامبراطور البيزنطى الموجود فى حلب سنة ٤٢٦هـ (١٠٣٥ م) ، وهزم قوات قسطنطين دوق أنطاكية (٤) .

على أن العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين ، ما لبثت أن تحسنت فى أوائل عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى . فعقد هذا الخليفة سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٨م) هدنة مع الامبراطور البيزنطى ميخائيل الرابع (١٠٣٤ - ١٠٤١م) ، سمح له بمقتضاها أن يتم إصلاح كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، مقابل إطلاق سراح خمسة آلاف أسير مسلم ، كانوا محتجزين لدى الروم . وقد وفى الامبراطور

---

(١) الانطاكى : تاريخ سعيد بن بطريق ص ٢٧٢ .
(٢) العرينى : الدولة البيزنطية ص ٦٨٩
Schlumberger : L' Epopée Byzantin à la Fin du 10 ème Sieclo. Tome., 3. p. 131.
(٣) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ١٤٩ .
(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٢٠٢ .

بالتزامه ، فأخلى سبيل الأسرى المسلمين ، وبعث بالمعماريين وعمال البناء إلى بيت المقدس ، لإتمام إصلاح كنيسة القيامة ، وأنفق على ذلك الكثير من الأموال . ويبدوا أن الروم كانوا قد تخلوا نهائيا عن الشرط الخاص بمدينة حلب [1] .

استمرت العلاقات الودية بين الفاطميين والبيزنطيين سائدة ، طوال عهد الامبراطور ميخائيل الرابع (١٠٣٤ - ١٠٤١م / ٤٢٥ - ٤٣٣هـ) ، فاسترد القائد الفاطمى « أنوشتكين الدزبرى » مدينة حلب سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٨م) ، بعد أن أوقع الهزيمة بأميرها « نصر بن صالح بن مرداس الكلابى » . ولما ولى قسطنطين التاسع الحكم (١٠٤٢ - ١٠٥٤م) - حافظ على العلاقات الودية مع الفاطميين كما حاول تدعيمها . فأرسل هدية إلى الخليفة المستنصر الفاطمى ، عبارة عن ثلاثين قنطارا من الذهب الأحمر [2] .

وليس أدل على ما ساد العلاقة بين الخليفة المستنصر الفاطمى ، « وبين الإمبراطور البيزنطى » قسطنطين التاسع » من ود ، مما أورده العينى ، فقد روى أن الامبراطور سلم الخليفة الفاطمى سنة ٤٢٣هـ (١٠٥١م) الرسول العباسى الذى قبض عليه الروم ، وهو فى طريقه إلى المعز بن باديس بالمغرب ، ليحرضه على خلع طاعة الفاطميين ، والدعاء للعباسيين ، وشرط عليه ألا يلحق به أذى أو مكروه . لكن المستنصر الفاطمى لم يرع ذلك وشهّره على جمل فى شوارع القاهرة ، ثم رده للأمبراطور البيزنطى « الذى أظهر استياءه

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ١٦٢ ، وحسن ابراهيم حسن : الإسلام السياسى جـ ٣ ص ٢٤٠ .

Camb. Med. Hist., Vol 5. p. 257.

(٢) الأبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف جـ ٢ ص ٥٤ عن سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٤٥ ، وراجع حسن ابراهيم : الإسلام السياسى جـ ٣ ص ٢٤٠ .

من مسلك الخليفة الفاطمى إزاء الرسول العباسى واعتذر للخليفة القائم بأمر الله العباسى فى بغداد . وللمعز بن باديس فى المغرب وردّ الرسولَ مكرما إلى بغداد ثانية(١) .

وقد حاول الخليفة المستنصر الفاطمى أن يستغل فرصة تحسن العلاقات مع البيزنطيين ، لتدعيم الأحوال الاقتصادية فى دولته ، فطلب من الامبراطور البيزنطى قسطنطين التاسع سنة ٤٤٦هـ ، بعد أن حلت المجاعة بالبلاد المصرية ، أن يمده بأربعمائة ألف أردب قمح لمقاومة القحط الذى حل بمصر ، وقد وافق الامبراطور على طلب الخليفة الفاطمى (٢) .

غير أن الأحوال الداخلية فى القسطنطينية مالبثت أن تبدلت فى غير صالح الدولة الفاطمية . فقد توفى قسطنطين التاسع ، قبل أن يفى بتعهداته للمستنصر الفاطمى ، وخلفته الامبراطورة ثيودورا(٣) ، فاشترطت لتقديم هذه المعونة أن يمدها الخليفة المستنصر بالجند الفاطميين عند ماتتعرض أراضى الدولة البيزنطية لخطر خارجى ، لكن المستنصر رفض قبول هذا الشرط ، مما ترتب عليه منع إرسال الغلال إلى مصر ، وبذلك غلب التوتر على العلاقات بين الدولتين(٤) .

هكذا أثارت سياسة ثيودورا العدائية غضب الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، فعزم على محاربتها ، وجهز لذلك حملة أسند قيادتها إلى « مكين الدولة الحسن

---

(١) العينى : عقد الجمان جـ ٢٠ ورقة ٨٥ [مخطوط] .
(٢) العينى : نفس المصدر جـ ٢٠ ورقة ٨٥ [مخطوط] .
(٣) تولت ثيودورا بنت قسطنطين الثامن — آخر سلالة المقدونيين — العرش سنة ١٠٥٤ واستمرت فى الحكم حتى ١٠٥٦ م . راجع سرهنك : حقائق الأخبار جـ ٢ ص ١٤٢ .
(٤) أسد رستم : الروم جـ ٢ ص ٧٨ وسرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٤٦ .

ابن ملهم » . فنزل هذا القائد بحملته قرب أفاميه ، ثم تجول فى أعمال أنطاكية ، وأرسلت ثيودورا حملة بيزنطية بحرية ، أوقعت الهزيمة بقوات « مكين الدولة » ، وأسرته وكثيرا من جنده سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٦م[1]) . وفى ذلك يقول المقريزى : « ونودى فى بلاد الشام بالغزو ، فنزل ابن ملهم قريبا من أفامية ، وضايق أهلها ، وجال فى أعمال أنطاكية ، فسبى ونهب ، وأخرج صاحب قسطنطينية ٨٠ قطعة بحرية ، فحاربها « ابن ملهم » مكين الدولة ، عدة مرار ، وكانت عليه وأسر هو وجماعة كثيرة فى شهر ربيع الأول منها (أى من سنة ٤٤٧هـ[2]) » .

استقر رأى الخليفة « المستنصر الفاطمى » ، على أن يرسل قاضيه « أبا عبد الله القضاعى » إلى القسطنطينية سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٧ م) لتسوية الخلاف بين الدولتين ، لكن الامبراطورة ثيودورا لم تعبأ بوجوده وتجاهلته ، بينما استقبلت رسول السلطان السلجوقى « طغرلبك »[3] ، الذى قدم وقتذاك من العراق ، ومعه رسالة من السلطان ، يطلب فيها أن تسمح له الامبراطورة بالصلاة فى جامع القسطنطينية — فأجابت الامبراطورة طلب السلطان السلجوقى فدخل المسجد ، وأدى صلاة الجمعة بالمسجد ، وأقام الخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسى . ولا غرو ، فقد أدركت الامبراطورة ثيودورا ، أن السلاجقة أشد خطرا على دولتها من الفاطميين ، الذين كان سلطانهم قد أخذ فى الضعف ، بسبب ما كانت تعانيه الدولة الفاطمية وقتذاك من صعوبات داخلية فى مصر[4] .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٣٥ (ط . بولاق) .
(٢) المقريزى : المصدر السابق ج ١ ص ٣٣٥ .
(٣) Camb. Med. Hist , Vol. 5, P. 256
(٤) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٤٦ .

وبذلك عاد التوتر في العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين إلى ما كان عليه[١] . واستمر الحال على ذلك حتى وجه الفرنجة سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧م) حملاتهم إلى بلاد الشام في عهد الخليفة المستعلي الفاطمي (٤٨٧ — ٤٩٥هـ) . فاستولوا على أنطاكية وبيت المقدس ، وأسسوا بهما أمارتين[٢] ، وصاروا يشتبكون من وقت إلى آخر في معارك حربية مع القوى الاسلامية بتلك البلاد ، في عهد نور الدين محمود الذي ضم دمشق إليه سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤م)[٣] .

ولما زاد نفوذ نور الدين محمود في بلاد الشام ، حتى أضحى يمثل خطارا يهدد الفرنجة في تلك البلاد ، أرسل « أملريك » ملك بيت المقدس إلى ملوك أوروبا يستنجد بهم. لكن دعوته لم تجد استجابة منهم، فاستعان بالامبراطور البيزنطي « مانويل » الذي وافق على إرسال حملة بحرية إلى مصر[٤] . وتوجهت قوات الفرنجة والبيزنطيين إلى دمياط في صفر سنة ٥٦٥ هـ ، فأحاطت بالمدينة برا وبحراً في ربيع الأول من هذه السنة[٥] (٥٦٥ هـ — ١١٦٩ م) .

لما علم صلاح الدين الأيوبي — وزير الخليفة العاضد الفاطمي — بمسير هذه الحملة إلى دمياط ، عزم على صدها ، فأرسل جنده عن طريق النيل ، كما بعث إلى نور الدين محمود بدمشق يستنجد به . « فجهز نور الدين العساكر إرسالا (أفواجا) كلما تجهزت طائفة أرسلها ، فسارت إليه يتلو بعضها

---

(١) ابن ميسر : أخبار مصر ص٧ .

Stanley Lane-Poole : Hist. of Egypt in the Middle Ages. P. 140.

(٢) المقريزي : اتعاظ الحنفا ٢٨٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ٧٤ — ٧٥ .

(٤) حسن حبشي : نور الدين والصليبيون ص ١٣٥ .

(٥) المقريزي : خطط جـ ١ ص ٢١٥ ، ٢٣٥ (ط . بولاق) .

بعضا[1] . وفى نفس الوقت هاجم نور الدين محمود ، الإمارات الصليبية بالشام ، ليفتح على الصليبيين جبهة ثانية ، فيشغلت جهودهم . كما حرص الخليفة العاضد الفاطمى على إمداد صلاح الدين بالمال اللازم[2] .

على أن المغيرين على دمياط ، من الفرنجة والبيزنطيين ، لم يتيسر لهم تحقيق غرضهم . إذ اضطروا إلى الانسحاب من هذه المدينة فى ٢٥ ربيع الآخر سنة ٥٦٥ هـ ، بعد أن استمروا يحاصرونها نحو ٥٥ يوما ، لوقوع الخلف بين قوادهم ، على الخطة التى يتبعوها لمهاجمة دمياط من ناحية ، فضلا عما بلغهم من شروع نور الدين محمود فى الاغارة على بعض الإمارات اللاتينية بالشام[3] .

ومما يجدر ذكره أن الخلفاء الفاطميين فى مصر ، كانوا يؤثرون فى علاقتهم مع البيزنطيين جانب الموادعة ، لإدراكهم خطورة معاداة دولتهم ، التى تتاخم حدودها الجنوبية بلاد الشام . ومع ذلك ظلت العلاقات بين الطرفين لا تستقر على حال ، نظرا لتشابك مصالحهما فى شرق البحر المتوسط .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ١٣٢ .

(٢) أبو شامة : الروضتين جـ ١ ص ١٨٠ والمقريزى : المصـــدر السابق جـ ١ ص ٢١٥ .

(٣) محمد مختار إلهامى : التوفيقات الإلهامية ٢٨٣ .

٢ - علاقة الفاطميين بالمدن الايطالية

(أمالفى — بيزا — جنوة — البندقية)

قامت علاقات تجارية بين المدن التجارية الايطالية الكبرى مثل: أمالفى ، بيزا ، البندقية ، جنوة ، من ناحية ، وبين الدولة الفاطمية بمصر والشام من ناحية أخرى(١) . وكان مما ساعد على توسع هذه المدن فى علاقتها التجارية مع الدولة الفاطمية ، انتقال مسرح النشاط البحرى الفاطمى إلى شرق البحر المتوسط(٢) .

وكانت مدينة أمالفى فى مقدمة المدن الايطالية ، التى قامت بينها وبين مصر والشام فى العصر الفاطمى علاقات تجارية — وبلغ من نشاطها التجارى مع مدينة أنطاكية أن أصبح لتجارها حى خاص بهذه المدينة(٣) . كما كانوا يفدون أيضا إلى الاسكندرية لاستيراد المنسوجات وأعـــواد المسك والكافور والبخور ، وغير ذلك من لوازم الكنائس . وكانت هذه السلع تجد لها سوقا رائجة فى روما(٤) ، كما أن تجار هذه المدينة حصلوا من الحكومة الفاطمية على كثير من التسهيلات التجارية(٥) .

ومن مظاهر علاقات أمالفى مع مصر والشام فى العصر الفاطمى ، أن أحد مواطنيها الأثرياء ويدعى موروس (Maurus) استعان بمهرة الصناع والفنانين من الاسكندرية لتزيين بعض قصوره بالزجاج المعشق والفسيفساء(٦) .

---

(١) Heyd : Hist. du Comm., Tom, 1, P. 104

(٢) سعيد عاشور : أضواء جديدة على العلاقات بين بيزا وتونس ص ٣٤ (بحث نشر فى مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة)
Camb. Med. History, Vol. 3, P. 178

(٣) سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ص ١٥٥ ، Benjamin of Tudela, Vol. 2, P. 31 & Heyd : Ibid, Tome, 1, P. 104

(٤) Heyd : Op. Cit., Tome, 1 P. 94 – 96

(٥) حسن ابراهيم : الاسلام السياسى ج ٤ ص ٤٠٨ ، عاشور : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٤٣ ، Heyd : Op. Cit , Tome 1, p. 96, 104 – 106

(٦) Heyd : Op. Cit., Tome 1, p. 100—101.

كما أنه حين شرع فى بناء دير ببيت المقدس — وكانت إذ ذاك خاضعة للسيادة الفاطمية — رأى أنه لابد من التفاوض مع الحكومة الفاطمية بمصر سنة ٤١١ هـ (١٠٢٠ م) — فى أوائل عهد الخليفة الظاهر الفاطمى — لتمنحه قطعة أرض من الحى المسيحى بالمدينة المقدسة ، ليشيد عليها دير « مارى دى لاتينا » (Mare De Latina) لإيواء الحجاج والتجار من أهل أمالفى[١] .

وكانت أمالفى — التى تقع على الساحل الغربى لإيطاليا — تعتبر منافسا لا يستهان به ، بالنسبة لمدينة البندقية ، فى الاتجار مع كل من الدولتين الفاطمية والبيزنطية سواءا بسواء[٢] . كما كان لها مصالح تجارية كبيرة فى شرق البحر المتوسط ، منذ أمد طويل ، أكثر مما كان لغيرها من المدن الايطالية عدا البندقية[٣] .

وقد أفادت مدينة أمالفى من تجارتها وتعاملها مع الدولة الفاطمية . إذ كان تجارها يأتون إليها بالسلع النادرة والغالية الثمن ، وبخاصة المنسوجات الحريرية . غير أن السياسة التى سار عليها حاكم مدينة أمالفى واسمه «جيزولف ابن جو إيمار » التى تقضى بالحد من التعامل مع الفاطميين ، كان لها آثار سيئة على الحركة التجارية لامالفى مع الدولة الفاطمية فى شرق البحر المتوسط منذ سنة ١٠٧٣م[٤] .

أما مدينة بيزا (Piza) ، فان تطورها الحربى والتجارى ، يرتبطان بصراعها الذى لم يهدأ ضد المسلمين فى صقلية ، الذين كانوا يوالون

(١) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٤٩ . وقد شيد هذا الدير فى مكان كنيسة بنفس الاسم كانت قد شيدت منذ ٩٩٣ م ، ثم هدمها الحاكم بأمر الله الفاطمى سنة ١٠١٠ م راجع

Heyd : Hist. Du Comm. Tome 1, p. 102 – 105

(٢) أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية ص ٣٤٢ .

(٣) Heyd : Ibid, Tome 1, p. 108

(٤) Heyd : Ibid, Tome 1, p. 107 – 108

غزوها إبان الحكم الفاطمى فى المغرب . ويروى بعض المؤرخين أن أهمية بيزا ظهرت منذ الفترة التى اشتدت فيها هجمات الأسطول الفاطمى عليها فى عهد المعز لدين الله . لذلك عمد البيازنة إلى توجيه غاراتهم الانتقامية ضـــد الفاطميين فى كل من صقلية وبلاد المغرب(١) .

وكان البيزيون وأهل جنوه يتابعون وقتذاك (١٠٦٠م/٤٥٤هـ) ، جهود روجر النورمندى ، لاستعادة جزيرة صقلية ، وانتزاعها من المسلمين . وكانوا يرون أن تحركات روجر فى هذا السبيل بطيئة ، لاعتقادهم أن استعادة صقلية أمر لا يتحقق إلا بالاستيلاء على عاصمتها بارم ، نظراً لأهميتها التجارية . ولذلك عرضوا على «روجر النورمندى» مساعدتهم للتعجيل بالسيطرة على لرم ، لكنه رفض . فأبحر أسطولهم فى آخر سنة ١٠٦٢م لغزو لرم ، واستطاع البيزيون والجنوية أن يستولوا على البضائع التى كانت تحملها سفن مسلمى صقلية الراسية فى هذا الميناء ، لكنهم فشلوا فى فتح بلرم نفسها . وظلت المدينة على هذه الحال حتى فتحها النورمان سنة ١٠٧٣م (٤٦٤هـ) (٢) .

كذلك أسهمت حكومة بيزا فى الهجمات الصليبية التى وقعت على بلاد الشام سنة ١٠٩٩م (٤٩٢هـ) أيام الخليفة المستعلى بالله الفاطمى (٤٨٧ — ٤٩٥هـ/١٠٩٤ — ١١٠١م)(٣). وقد حصل التجار البيازنة، بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس : على تيسيرات تجارية ، وامتيازات اقتصادية لتجارتهم فى هذه المدينة . ولم يمض غير قليل حتى صارت لهم بيوتات تجارية ، فى كثير من موانى الدولة الفاطمية التى تطل على البحر المتوسط (٤) .

---

(١) Eney. Brit., Vol. 17, P.954 & Heyd: Hist De Comm. 1, P. 121.

(٢) Ency. Brit., Vol. 17. P. 955 & Stanley Lare-Poole : Hist. of Egypt in the Midde Ages. P. 186.

(٣) Ency. Brit., Vol. 17. P. 955.

(٤) Ency. Brit, Vol. 17. P. 955 Stanley : Hist. of Egypt in the Middle Ages. P. 163.

كذلك ساعدت مدينة بيزا «جود فروى دى بويون» حاكم بيت المقدس على إخضاع مدن الساحل الشامى، التى كانت فى حوزة الدولة الفاطمية، بما أمدته به من السفن والرجال — وكان من أهم هذه المدن: أرسوف وقيسارية وعكا — ونتيجة لذلك اضطر الفاطميون سنة ٤٩٣ هـ (١١٠٠ م) — أى فى عهد المستعلى بن المستنصر بالله الفاطمى ٤٨٧ — ٤٩٥ هـ / ١٠٩٤ - ١١٠١ م — إلى عقد هدنة مع الصليبيين فى بيت المقدس (١).

ولقد زادت القوة البحرية لكل من بيزا وجنوة، بحيث صارت تتعرض للسفن الفاطمية التجارية، فى عرض البحر خلال رحلاتها، وتهدد ركابها من رعايا الدولة الفاطمية منذ منتصف القرن الخامس الهجرى. ومما شجعها — أى مدينة بيزا — على ذلك، ضعف القوة البحرية للدولة الفاطمية فى حوض البحر المتوسط وعجزها عن حماية رعاياها وسفنها التجارية وموانيها الشامية، وبالذات تلك المطلة على البحر المتوسط (٢).

هكذا استمرت العلاقات بين بيزا وجنوة من ناحية، والدولة الفاطمية من ناحية أخرى، يغلب عليها طابع التوتر حتى آخر عهد الخليفة «الآمر بأحكام الله الفاطمى» (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ / ١١٠١ - ١١٣٠ م). إذ اضطرت بيزا إلى العدول عن سياستها، وحاولت تحسينها مع الدولة الفاطمية منذ منتصف القرن الثانى عشر الميلادى، وذلك لحرصها (أى بيزا) على استثمار تجارتها فى موانى وأسواق الدولة الفاطمية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط (٣). فأرسلت سفيراً لها فى سنة ١١٥٤ م (٥٤٩ هـ)، إلى بلاط الخليفة الظافر الفاطمى (٥٤٤ - ٥٤٩ هـ / ١١٤٩ - ١١٥٤ م) (٤)، لتسوية مشاكل نجمت

(١) فيليب حتى: تاريخ العرب ج ٢ ص ٧٥٧

(٢) Heyd : Hist : Du Comm., T. 1, p. 121.
Kruger : Genoese Trade. P. 377-378.

(٣) أرشيبالد: القوى البحرية والتجارية ص ٢١٥.

(٤) Kreuger : Genoese Trade. P. 378.
Amari : I Diplomi Arabi, P. 246—249

من عدوان من بعض البيازنة في إحدى السفن التجارية، على بعض التجار المصريين من رعايا الدولة الفاطمية، وتعرضهم لهم بالقتل والسلب، وهو الحادث الذي ثارت له الحكومة الفاطمية بمعاقبة التجار البيزيين المقيمين في مصر(١).

ولما وصل سفير بيزا (رانيرى بوتاش) إلى القاهرة، اتفق مع الحكومة الفاطمية على تسوية لهذا الموضوع، تضمنت «تعهداً من حكومة بيزا بالقصاص من المعتدين من رعاياها، والامتناع عن تقديم أي عون أو مساعدة للصليبيين في بلاد الشام، أو لغيرهم من أعداء الدولة الفاطمية». وذلك في مقابل أن «تتعهد الدولة الفاطمية بإطلاق سراح رعايا مدينة بيزا الذين سجنوا، بسبب اعتدائهم على بعض المصريين، وحماية الحجاج والتجار البيازنة المسافرين إلى بلدان الدولة الفاطمية في سفن غير حربية(٢)».

وقد بلغ من اهتمام حكومة بيزا بتوطيد علاقاتها بالدولة الفاطمية ورجالاتها، أنه حين أسندت الوزارة في مصر إلى «طلائع بن رزيك»، سارعت إلى إرسال وفد لتقديم التهنئة إليه. فرحب الوزير الفاطمي بقدوم هذا الوفد، وأحسن استقباله، كما وعد بالعمل على حماية رعايا مدينة بيزا في الدولة الفاطمية(٣).

وقد تبودلت الكثير من الرسائل بين حكام بيزا وأساقفتها من ناحية، وبين الحكومة الفاطمية من جهة أخرى، فيما بين سنتي ١١٤٩م، ١١٥٦م - (٥٤٤، ٥٥١هـ) - في عهد كل من الخليفة الظافر والخليفة الفائز الفاطميين - بشأن منح سفن وتجار بيزا التيسيرات التجارية والامتيازات الاقتصادية، في موانى وأسواق الدولة الفاطمية. مما يدل على التطور الذى طرأ على العلاقات

---

(١) سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص ١٥٦.
Kruger: Genoese Trade P. 378.

(٢) Kruger: Op. Cit. P. 378—379.

(٣) Heyd: Hist. Du Comm., T. I. P. 392—396 & Stanley: Hist. of Egypt in the Middle Ages. p. 180—182.

بين بيزا والدولة الفاطمية ، نتيجة لحرص بيزا على التمتع بتسهيلات تجارية في موانى الدولة الفاطمية بمصر والشام ، ورغبة في زيادة نشاطها التجارى عبر البحر المتوسط (١) .

على أن حكومة بيزا لم تكن مخلصة في تقربها من الفاطميين . فقد تجلى حرصها على مراعاة مصالحها ، حين أخذ أملريك - ملك بيت المقدس - يهدد الفاطميين في مصر ، فأظهرت استعدادها لمعاونة الصليبيين في الهجوم على مصر والشام ، مقابل وعد قدمه لها أمورى ، بمنحها بعض الامتيازات التجارية تتمتع بها في البلاد المصرية ، في حالة نجاح الغزو الصليبي لمصر (٢) .

ولما اتضح للبيزيين أن الصليبيين لن يتيسر لهم البقاء في مصر ، وأنهم في سبيل الاتفاق مع الحكومة الفاطمية للجلاء عن البلاد ، سارعت حكومة بيزا إلى الوساطة بين الطرفين ، وأفادها هذا العمل ، إذ منحها الخليفة الفاطمى العاضد (٥٥٥ - ٥٦٧ / ١١٦٠ - ١١٧١ م) كثيراً من التسهيلات والامتيازات التجارية (٣) . لكنها لم تلبث أن عادت إلى إيثار مصلحتها الخاصة ، فاشتركت مع الصليبيين سنة ١١٧٠ م ، في الهجوم على ثغر دمياط ، وذلك على الرغم مما منحته لها الحكومة الفاطمية من امتيازات تجارية (٤) .

---

(١) Amari 1 Diplomi., P. 241—254

وقد أورد أمارى في هذه الصفحات الثلاث عشرة ، نصوصاً لأربع رسائل ، (وثائق) متبادلة بين خلفاء الدولة الفاطمية في مصر وبين حكومة بيزا وأساقفتها من ناحية أخرى ، فيما بين ١٠ أكتوبر ١٢٤٩ م حتى ١١٥٦ م . تضمنت الرغبة في منح بيزا تسهيلات تجارية وامتيازات اقتصـــادية في أسواق وموانى الدولة الفاطمية . (وراجع أيضا المؤلف مقال عن العلاقات بين المدن الايطالية والدول الاسلامية (منشور بمجلة جامعة القاهرة بالخرطوم ١٩٧٣ عدد ٣) .

(٢) سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٥٧ ؛

Hyed : Hist. du Comm., T. 1. p. 392—396

(٣) Heyd : Ibid, T , 1, P. 392—396 & Stanley : Hist of Egypt in the Middle Ages, P. 181—182.

(٤) Stanley : Ibid., P. 182.

أما عن مدينة جنوة (Genoa) وعلاقة الفاطميين بها ، فإنه بعد أن استقرت أحوال الدولة الفاطمية فى المغرب للخليفة الفاطمى « عبيد الله المهدى » ، وأزعنت له جزيرة صقلية ، أعد حملة بحرية جعل على قيادتها « صابن الفتى الصقلى » ، قامت بالإغارة على مدينة جنوة سنة ٣٢٢ هـ (٩٣٤ - ٩٣٥ م) وعاثت فى نواحيها (١) .

فلما ولى «القائم بأمر الله الفاطمى» الخلافة سنة ٣٢٢هـ ، سار على نهج أبيه عبيد الله المهدى . فأرسل إلى إيطاليا حملة سنة ٣٢٣هـ (٩٣٥ م) - بقيادة «يعقوب بن إسحق» - بمحت شطر نابلى ، وجنوة للمرة الثانية ، وهاجمت الحملة المدينتين ونهبتهما (٢) . ثم عاودت الإغارة - كسابقتها - على جزيرتى سردينيا وكورسيكا ، كما أحرقت الكثير من السفن البيزنطية والجنوية معا ، وفى ذلك يقول المقريزى (٣) : « فلما فرغ (أى القائم بأمر الله الفاطمى) من جميع ما يريده أظهر موت أبيه واستقل بالأمر . . . وتبع سيرة أبيه ، وثار عليه جماعة نظفر بهم ، وبث جيشه فى البر والبحر ، فسبوا وغنموا من بلدة جنوة » .

وقد ظل طابع العداء يسود العلاقات بين الدولة الفاطمية ، ومدينة جنوة ، منذ بداية القرن العاشر الميلادى ، حتى أيقنت حكومة هذه المدينة من صعوبة مواجهة الفاطميين وبحريتهم فى البحر المتوسط ، فعمدت إلى التودد إليهم وبخاصة بعد أن اتخذوا مصر مقرا لخلافتهم سنة ٣٦٢هـ(٤) .

---

(١) ابن الأثير الكامل جـ ٨ ص ١٠٨ (بالمكتبة الصقلية ص ٢١٧ — ٢١٨) وابن عذارى البيان جـ ١ ص ٢٩٦ وحسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١١١ .

(٢) القيروانى : المؤنس ، ص ٥٤ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٠٨ — المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٠٨ وابن عذارى : المصدر السابق جـ ١ ص ٢٩٦

(٣) المقريزى : خطط جـ ٢ ، ص ١٥٥ ، (ط بيروت بيروت) .

(٤) Kruger : Genoese Trade, P. 377.

على أن نمو العلاقات بين مدينة جنوة وبين مصر ، تجلى في النصف الأخير من القرن الحادى عشر الميلادى، إذ عقد مندوب عنها معاهدة تجارية مع الحكومة الفاطمية سنة ١٠٦٣م (٤٥٥ هـ) . كما وافق بعض خلفاء العصر الفاطمى الأخير على حماية رعايا جنوة أثنـــاء إقامتهم فى المدن أو الموانى المصرية والشامية(١) . وكان كثير من تجار جنوة يتوافدن إلى الأسكندرية لاستيراد بعض السلع وبخاصة التوابل ، والشب ، والنطرون التى احتكرت الحكومة الفاطمية تجارته ، واحتفظت لنفسها بحق بيعه للروم(٢) . وكان لأهل جنوة جالية تقيم فى الأسكندرية (٣) .

وليس أدل على ما كان بين جنوة ومدن الشام فى العصر الفاطمى من علاقات تجارية مما ذكره ـ أسقف كرويلاند واينجولف ـ من أنه بعد انتهاء زيارته للأماكن المقدسة فى بيت المقدس عام ٤٥٥هـ (١٠٦٣م) ، فى عهد المستنصر الفاطمى ، أبحر إلى مدينة يافا على مركب تجارى جنوى . هذا فضلا عن أن « فوجود دى بويون » قام بزيارة سياحية إلى القبر المقدس فى كنيسة القيامة ببيت المقدس ، قبل الحرب الصليبيـــة الأولى (١٠٩٤ - ١٠٩٥م) ، بصحبة « الكونت دى فلاندرز » ، ثم سافر إلى مدينة الأسكندرية أيضا فى أحد المراكب التجارية الجنوية(٤) .

على أن الجنوية والبيازنة ، لم يبدأوا نشاطهم التجارى الحقيقى فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط مع الدولة الفاطمية إلا بعد عام ١٠٩٥م . فحتى هذا

---

(١) سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ، ص ١٥٧

Heyd : Hist Du Comm., T. 1, P. 391.

(٢) المقريزى : خطط ، جـ ١ ، ص ١٠٩ ، وسرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٥ ، المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

(٣) Heyd : Ibid, T. 1, P. 107.

(٤) Heyd : Hist. Du Comm., T., 1. P. 124

الوقت كانت العلاقات التجارية مع الدولة الفاطمية بمصر والشام ، تكاد تكون مقصورة على الأمالفيين والبنادقة ، الذين قاموا بتزويد باقى مدن إيطاليا وغرب أوربا بتجارة الشرق(١) .

لقد قامت جنوة بدور كبير وبارز منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، فى التجارة مع بلدان الدولة الفاطمية . ذلك أن الأسر الجنوية التجارية التى قدمت مساعدات وافرة للحركة الصليبية ، أصبحت فى وضع طيب ، ليس فقط فى جنوة وحدها ، بل فى المناطق الخاضعة للنفوذ التجارى لهذه المدينة فى شرق البحر المتوسط . فقامت هذه الأسرات التجارية الجنوية ، فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى ، باحتلال مكان الصدارة فى تجارة جنوة عبر البحر المتوسط ، مع الشام ومصر وشمال أفريقيا (٢) . فكثر تردد سفنهم التجارية ، وزادت استثماراتهم فى الدولة الفاطمية فى نطاق تجارة جنوة فى شرق البحر المتوسط ، هذا فضلا عن اتجارهم مع بلدان الحوضين الأوسط والغربى لهذا البحر(٣) .

وكان من أهم السلع التى قام تجار جنوة لنقلها على سفنهم إلى مصر والشام فى العصر الفاطمى ، الأقمشة القطنية ذات الوبر ، وهى من إنتاج بافيا Pavia ، وميلان Milan . وكان التجار الجنويون يستوردون من مصر المنسوجات المصنوعة فى مدينة تنيس ، فضلاً عن بضائع المشرق الواردة من الهند والصين(٤) .

على أن تجار جنوة أخذوا فى أواخر عام ١١٦٣ م (٥٥٨ هـ) يوجهون

---

(١) Heyd : Hist du Comm. T. I, P. 125

(٢) Kruger : The Wares of Exchange, P. 57

(٣) Kruger : Op. Cit, P. 57 – 58.

(٤) Kruger : Op. Cit, P. 59 – 60.

اهتمامهم إلى موانى شمالى أفريقيا المختلفة . ولم يتم بالتالى عقد أى اتفاقات تجارية مع الحكومة الفاطمية فى ذلك العام . كما منعت المدن الإيطالية من الاتجار مع الدولة الفاطمية ، بسبب حروب بيزا التى بدأت منذ سنة ١١٦٢م مع دولة الموحدين بالمغرب (١) .

ومما يجدر ذكره أن مدينة جنوة ركزت نشاطها التجارى فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط على الدولة الفاطمية ، حيث منح تجارها كثير من التسهيلات والامتيازات التجارية ، التى كان من شأنها تشجيعهم على القدوم الى موانى وأسواق هذه الدولة (٢) .

وكان يقوم بالتجارة مع الدولة الفاطمية بعض كبار التجار الذين ينتمون إلى خمس أسرات جنوية . ويعد هؤلاء التجار بمثابة الوسطاء بين جنوة وهذه الدولة (٣) . فاستغلوا ما منح لهم من تيسيرات اقتصادية وتجارية فى العمل على زيادة حركة التجارة بين جنوة والدولة الفاطمية فى مصر . كما أن امتلاكهم المراكب التجارية الكبيرة ، وما كانت تقدمه لهم حكوماتهم من معونة ، سهل لهم سبيل التبادل التجارى ، مما عاد عليهم بالربح الوفير (٤) .

كذلك كان للبندقية صلات تجارية بمصر الفاطمية — (وهى صلات ترجع فى الغالب إلى ما قبل القرن العاشر الميلادى) — وعلى هذا لم يكن اهتمام البندقية بإقامة علاقات مع الفاطميين فى مصر والشام بعد سنة ٣٦٢ هـ بأقل من غيرها من المدن الإيطالية (٥) .

---

(١) Kruger : Genoese Trade, P. 381–382.

(٢) Kruger : Ibid, P. 382.

(٣) Byrne : Genoese Trade with Syria, P. 198.

(٤) Ency. Brit. Vol. 10, P. 117, Kruger : Genaese Trade, P. 378.

(٥) عاشور ، مصر فى العصور الوسطى ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤

Heyd : Hist. Du Comm., p. 1, p. 114–115, 391.

وكان لموقع البندقية الجغرافى أثره البالغ فى نشاطها التجارى ،وقيامها بدور الوسيط التجارى بين شعوب أوربا وبين أقطار الشرق الإسلامى بصفة عامة (١). فكانت سفن البنادقة التجارية تقوم برحلاتها ذهابا وإيابا ، ما بين سواحل شمال أفريقيا وجزيرة صقلية أيام الفاطميين - بل وقبلهم — لنقل المسافرين والبضائع . كما كان البنادقة يترددون كثيرا على سورية ومصر منذ أن اتخذ الفاطميون القاهرة حاضرة لهم (٢) .

وكانت سفن البندقية تنقل إلى الدولة الفاطميـــة فى مصر الأخشاب والحديد والأسلحة (٣) حتى سنة ٩٧١م ، حيث أمر دوقهم بطرس الرابع وأسقفهم كانديانو Candiano ، بمنع التجار البنادقة من أن يصدروا للمسلمين حاجاتهم من الخشب والحديد اللازم لبناء السفن . وقد شمل الحظر الأخشاب الواردة للبندقية ، من غابات دالماشيا Dalmatia ، وفريول Frioul واستريا Ostria . أما الأسلحة فمنع بيعها للفاطميين أيا كان نوعها سواء الدروع أو التروس والسيوف والرماح . ثم تكرر تجديد الحظر نتيجة لإغفال حكومة وتجار البندقية تنفيذه طمعا فى الكسب التجارى (٤) .

وقد ساء أباطرة الدولة البيزنطية أن حكومة البندقية وتجارها لم يذعنوا لقرارات الحظر التى تضمنت عـــدم مد الفاطميين بالأخشاب والحديد والأسلحة ، وهى سلع تمكن الفاطميين ، من محاربة الدولة البيزنطية برا وبحرا (٥) .

---

(١) Heyd : Hist du T. 1, p. 109.

(٢) Hegel : Ibid, T. 1, p. 110.

(٣) راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٢٩٢ ، حسن ابراهيم : الإسلام السياسى ج ٤ ، ص ٣٩٤ .

(٤) Schlumberger : L'Epopée Byz .., T, I, p. 239.

(٥) Ibid, T. I, p. 239.

وقد احتج كل من باسيل الثانى وقسطنطين الثامن ، على استمرار تجارة الأخشاب والحديد والأسلحة التى توردها البندقيـة للفاطميين . كما هدد الأمبراطور « حنا زيمسكيس » البنادقة ، بأنه إذا لم تتوقف هذه المتاجر غير المشروعة — مع الفاطميين — فسوف تتعرض (سفن البنادقة) للحرق والغرق والتدمير بحمولاتها [١] .

ومن المرجح أن هذا التحذير البيزنطى حمل « بطرس الرابع » دوق البندقية على عقد اجتماع مع « ماران » Marin أسقف أوليفولو Olivolo ، وسائر رجال الدين البنادقة ، وعدد كبير من البنادقة معظمهم من الأعيان والتجار لمناقشة الوسيلة الفعالة التى تمكنهم من صرف الأمبراطور حنا زيمسكيس البيزنطى عن تشدده ومعالجة ذلك الأمر الخطير [٢] .

وقد قرر المجتمعون أن يتعهد تجار البندقية أمام دوقهم بطرس الرابع بعدم الاتجار فى الأخشاب والذخائر وبيعها للمسلمين [٣] . وفرضت غرامة كبيرة على من يخالف هذا الحظر ، وشددوا العقوبة إلى الاعدام فى حالة تكرار حدوث المخالفة وضبط التاجر متلبسا بتوريد أخشاب للدولة الفاطمية . وقد نفذت هذه القرارات الصارمة فور صدورها على ثلاث سفن كانت على وشك الإبحار : اثنتان منها كانت وجهتهما المهدية ، والثالثة إلى طرابلس الغرب ، ولم يكن تنفيذ هذا القرار بالنسبة لمصر والشام أقل صرامة من تنفيذه فى شمال أفريقيا [٤] .

---

(١) العرينى : الدولة البيزنطية ، ٤٧٧ ، حاشية (١)
Heyd : Hist. du Comm. T. I, p. 113.
(٢) العرينى : المصدر السابق ، ص ٤٧٧ — ٤٧٨ .
(٣) Schlumberger : Ibid, T I, p. 240.
(٤) Heyd : Hist. Du Comm., T. I, p. 113.

ثم تجلى فى مستهل القرن الحادى عشر الميلادى ازدياد التوتر فى العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين ، مما أثر بالتالى على حركة تجارة مدينة البندقية مع الدولة الفاطمية ، كما تأثرت تجارة كل من أمالفى ونابلى وجنوة وبيزا . ففى سنتى ١٠٠٤ ، ١٠٠٥م (٣٩٤ — ٣٩٥هـ) — أيام خلافة الحاكم بأمر الله الفاطمى — تعرضت جنوة لهجوم من أسطول مسلمى صقلية ، بينما تمكن البنادقة فى سنة ١٠٠٤م (٣٩٤هـ) من تخليص بارة (بارى Bari) من حصار ضربه عليها أسطول فاطمى . كما تمكن البيازنة فى السنة التالية (١٠٠٥م) ٣٩٥هـ من هزيمة وتدمير أسطول فاطمى أبحر من صقلية ، أمام مدينة ريو — (رجيو Riggio) — فى قلَّورية جنوب إيطاليا[١] .

وكان لقرار حظر إرسال خشب السفن إلى الفاطميين الذى أصدرته حكومة البندقية أثر سيء فى مصر . إذ ترتب عليه عدم توافر الخشب الصالح لصناعة السفن للاسطول الفاطمى[٢] ، فى عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمى (٣٦٥ — ٣٨٦هـ) ، مما اضطر وزيره « عيسى بن نسطورس » إلى إصدار أوامره بقطع الأخشاب من مختلف جهات القطر المصرى[٣] ، « حتى قلعت (نزعت) ، صوار (جذوع) كبار ، كانت مسقفه على دار الضرب بمصر ، بجانب دار الشرطة ، وفى البيمارستان الذى فى سوق الحمام ، ونشروا جميعها ، وأعدوا أسطولا آخر[٤] » .

ولم يكن فى مقدور حكومة البندقية وقتذاك الخروج على قرارات الحظر التجارية .

---

(١) Camb. Med. Hist, Vol. 4, p. 371.

(٢) آدم متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٣١٥

Heyd : Hist. Du Comm., T. I, p. 113-114.

(٣) الأنطاكى : تاريخ سعيد بن بطريق ص ١٧٨ — ١٧٩ ، والمقريزى : خطط ج ٢ ص ١٩٦ .

(٤) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٩٦ — ١٩٧ « ط . بولاق » .

لذلك آثر البنادقة التزام جانب بيزنطة ، بتنفيذ الحظر على التجارة فى السلع المحظورة (الخشب والحديد والأسلحة) ، مع الدولة الفاطمية[١] . وظل الحال على ذلك حتى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى ، حيث أصدر دوق البندقية الجديد « بيترو الثانى أورسيولو (Pietor Orseolo) فى سنة ١٠٠٠ م (٣٩١ هـ) ، قراراً بإيفاد سفراء من البندقية إلى الدول الاسلامية المطلة على على البحر المتوسط ، للحصول على تسهيلات تجارية تضمن للبنادقة امتيازات خاصة فى سوريا ومصر وبلاد المغرب وصقلية[٢] .

وقد نجح الدوق « بيترو أورسيولو » فى مسعاه ؛ فحصل لمدينته على تيسيرات وامتيازات تجارية فى أراضى وموانى الدولة الفاطميـة بمصر والشام ، فلما خلفه أخوه « أوتو بن أورسيولو (١٠٠٩ — ١٠٢٦ م) فى دوقية البندقية سار على سياسته ، فنمت فى عهده علاقات البندقية التجارية مع الدولة الفاطمية[٣] .

وهكذا رأت البندقية — حين واتتها القوة والفرصة لحماية نفسها — ألا تضحى بمصالحها الخاصة مع المسلمين ، فى سبيل إرضاء أباطرة الدولة البيزنطية . فعملت على تنمية علاقاتها التجارية مع المسلمين ، واستطاعت أن تحصل على امتيازات لسفنها فى موانى الدولة الفاطمية[٤] . وكانت سفن البنادقة تنقل من موانى مصر منتجات آسيا إلى أسواق أوروبا[٥] .

ولا شك أن ازدياد قوة المدن الإيطالية بعد عام ٩٦٠ م « ٣٤٩ هـ » أفاد تجار هذه المدن إلى حد كبير . فأمنهم من هجمات الأسطول الفاطمى

---

(١) أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية ص ٣٩٥ — ٣١٦ .

(٢) Hey : Hist. Du Comm., T. I, p. 114–115.

(٣) Heyd : Ibid, T. I, p. 116–117,

(٤) سرور . سياسة الفاطميين الخارجية ص ٢٥١ .

(٥) Heyd : Hist. Du Comm., T. I, p. 114.

فى جزيرة صقلية. وأصبح فى استطاعتهم الوصول إلى القسطنطينية فى أمن وطمأنينة ، كما صار فى إمكانهم الوصول إلى سواحل مصر والشام دون أن يضايقهم الحظر البيزنطى المفروض على تجارة المسلمين فى حوض البحر المتوسط .

ولقد أذنت الحكومة الفاطميه فى مصر لتجار المدن الايطالية وغيرهم ، بإنشاء الفنادق الخاصة باقامتهم فى مصر ، فكثر عدد هذه الفنادق فى العصر الفاطمى نتيجة للتوسع التجارى فى هذا العصر . وكان لكل جالية فى مدينة الأسكندرية فندق عبارة عن بناء يقيم فيه التجار الأوروبيون ، ويحفظون فيه بضائعهم أما داخل المدينة أو خارجها[1] . وكان كل فندق يحتوى على كنيسة صغيرة يقيم فيها التجار الوافدون شعائرهم الدينية ، كما كان به فرن يصنعون فيه الخبز حسب عاداتهم وكان يصرح لهم فيه بشرب النبيذ، وكانت كل جالية تختار أحد أفرادها للاشراف على تنظيم إقامتهم فى الفندق ، ويمثلهم أمام السلطات الفاطمية الحاكمة سواء فى الأسكندرية أو القاهرة ، ويسمى هذا الشخص الفندقى[2] .

ومما لا شك فيه أن الدولة الفاطمية فى مصر والشام شهدت رخاءا تجاريا فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، بسبب اهتمام الحكومة الفاطمية بتدعيم علاقاتها مع المدن الايطالية ، برغم ماشاب هذه العلاقات أحيانا من توتر وعداء[3] . ذلك أن المدن الايطالية قامت بنشاط كبير فى التجارة بفضل

---

(١) البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٢٧١ ، وسرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ص ٢٦٠ .

(٢) البراوى : المرجع السابق ص ٢٧١ ، سرور : نفس المرجع ص ١٦٠ . وعنه راجع :

Kamerer : La Mer Rouge, Tome, 1, p. 29.

(٣) Goitein : Studies on Islamic Hist., p. 311.

ما أتيح لها من فرص فى موانى الدولة الفاطمية . فأسهمت بذلك بقسط وافر من النشاط الاقتصادى ، الذى شهده الحوض الشرقى للبحر المتوسط خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين . لأنها — أى المدن الايطالية — كانت أكثر بيعا الفاطميين وأكثر شراءا من الدولة البيزنطية(١) .

وصفوة القول أن السفن التابعة لبعض المدن الايطالية ، مثل أمالفى والبندقية نشطت حركتها فى المدن الساحلية بالشام ومصر فى العصر الفاطمى. وهذا دليل على انتقال حركة النشاط التجارى صوب الجنوب ، بعيدا عن القسطنطينية . ثم لم تلبث الدولة البيزنطية أن ابتعدت عن كل نشاط تجارى ، مع المدن الايطالية ، وبخاصة بعد أن حصل البنادقة فى سنة ١٠٨٢ م على كثير من الامتيازات الاقتصادية والتيسيرات التجارية من الفاطميين بمصر(٢). وهكذا صار للمدن الايطالية ، منذ مطلع القرن الثانى عشر الميلادى ، شأن كبير فى الحركة التجارية بحوض البحر المتوسط . فزاد نشاطها التجارى فى موانى الدولة الفاطمية بمصر والشام ، وعبرت سفنها معظم جهات هذا البحر ، فيما بين شواطىء الأندلس غربا ، والشام شرقا ، ومصر جنوبا(٣) . كما غدت هذه المدن مراكز هامة للوساطة التجارية بين الشرق والغرب(٤) .

لكن ذلك النشاط التجارى للمدن الايطالية ، لم يلبث أن اتخذ طابعا عدائيا تجاه الدولة الفاطمية . حين أسهمت بعض هذه المدن فى الحملات الصليبية التى أغارت على بعض مدن الشام ومصر فى أواخر العصر الفاطمى(٥).

---

(١) Goitein : Studies on Islamic, p. 311 – 312.

(٢) Ibid, p. 311 – 312.

(٣) فيليب حتى : تاريخ العرب جـ ٢ ص ٧٥٧ .

Heyd : Hist Du Comm. T. I. p. 109 – 110.

(٤) فيليب حتى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٧٥٧ .

(٥) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٣٩ .

فاستولى أسطول بندقى - بعد شهر من وفاة « جودفروى دى بويون » سنة ١١٠٠م[١] - على ميناء حيفا دون أن يلقى أدنى مقاومة من الأسطول الفاطمى[٢]. بل أن أسطول البنادقة تمكن من إغراق أسطول فاطمى سنة ٥١٧هـ (١١٢٣م) تجاه حيفا ، وأسر بعض قطعه[٣] . وكانت مدن أرسوف وقيسارية ، قد سقطت فى يد أسطول جنوى سنة ٤٩٣هـ (١١٠٠م)[٤] .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٠١ .

(٢) حتى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٧٥٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل (بالمكتبه الصقلية ص ٢٨٤) .

Stevenson : The Cruseders in the East, p. 82

(٤) ابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ١٨٦ ، وحتى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٧٥٩ — ٧٦١ .

الباب الخامس

انحلال الدولة الفاطمية وأثره على نشاطها البحرى

فى شرق البحر المتوسط

---

١ — مظاهر انحلال الدولة الفاطمية .

٢ — تقلص النفوذ الفاطمى فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط .

الباب الخامس

انحلال الدولة الفاطمية واثره على نشاطها البحرى في شرق البحر المتوسط

١ — مظاهر انحلال الدولة الفاطمية

دخلت الدولة الفاطمية بمصر فى دور الاضمحلال والضعف، منذ أواخر القرن الخامس الهجرى ، وتجلى هذا التدهور فى عدة مظاهر . فقد زادت سلطة الوزراء الفاطميين ، واستأثروا بالسلطة دون الخلفاء(١) . فأقدم الوزير الأفضل ابن بدر الجمالى على تولية « أبي القاسم أحمد بن المستنصر » الخلافة ولقبه « بالمستعلى بالله » ، فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٤٨٧ هـ ، وأقصى أخاه الأكبر نزار رغم أحقيته للخلافة(٢) ، مما ترتب عليه اضطراب الأمور فى بعض البلاد المصرية . فانحاز أهل الاسكندرية وواليها الفاطمى الى نزار وبايعوه بالخلافة ، ولقبوه « بالمصطفى لدين الله »(٣) . لكن الأفضل تمكن من القضاء على الفتنة التى أثارها نزار ، كما ألحق بأهل الاسكندرية الذين شايعوه كثيراً من الضر والأذى(٤) .

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٢١ ، وابن الداواداري . الدورة المضيئة ص ٣٥٩ .

Stanley Lane Poole : Hist of Egypt. p. 146 – 147

(٢) ابن ميسر: المصدر السابق ص ٣٥ ، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٤٢ ، سرور : الدور الفاطمية ص ١١٣ .

(٣) ابن ميسر : المصدر السابق ص ٣٦ — ٣٧ .

(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفاص ٢٨٢، عبدالمنعم ماجد: السجلات المستنصرية ص ٤٣ ، ١٤٥ — ١٥١ .

استطاع الأفضل — بعد إخماد فتنة نزار — أن يسيطر على الأمور في الدولة الفاطمية . فانفرد بالأمور فيها دون الخليفة « المستعلي بالله » بن المستنصر الفاطمي[١] . وبلغ من نفوذه أنه — بعد وفاة المستعلي — أحضر « أبا علي المنصور بن المستعلي » ، وبايعه بالخلافة سنة ٤٩٥ هـ ، وأقامه مكان أبيه ، ولقبه « بالآمر بأحكام الله » وكان عمره وقتذاك ٥ سنوات[٢] .

استغل الأفضل ازدياد سلطته في عهد خلافة « الآمر الفاطمي » (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ / ١١٠١ — ١١٣٠ م) ، فلم يحرص على الاحتفاظ برسوم الفاطميين الدينية ، بل أخذ يميل ميل السنيين . وقد تجلى ذلك في إلغائه الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد ابنته فاطمة وعلي ، رضي الله عنهما ، ومولد الخليفة القائم[٣] . ولا شك أن عمله هذا يؤدي إلى إضعاف نفوذ الفاطميين ، الذين كانوا يحرصون على الاحتفال بهذه الأعياد لإثبات انتسابهم إلى علي بن أبي طالب ، وزوجته فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام . غير أن الخليفة الآمر ما لبث — بعد أن قبض على زمام الأمور في مصر — أن تخلص من وزيره الأفضل[٤] .

كذلك تجلى ازدياد سلطة الوزير « أبو علي أحمد بن الأفضل » في عهد الخليفة الحافظ . فمنعه من التصرف في شئون الدولة ، وصار لا يسمح لأحد بمقابلته إلا بإذن منه[٥] . كما أمعن في اضعاف المذهب الاسماعيلي فاتخذ

---

(١) المقريزي : خطط جـ ١ ص ٤٤٠ « ط . بولاق » أو جـ ٢ ص ١٦٥ « ط . بيروت » .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٤ — ١٦ .

(٣) سرور : الدولة الفاطمية في مصر ١١٨ — ١١٩ .

(٤) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠٣ — ٢٠٤ ، وأبو الفدا : المختصر في أخبار البشر جـ ٢ ص ٢٤٦ .

(٥) أبو الفدا : نفس المصدر جـ ٣ ص ٤ — ٥ .

إجراءات غايتها إظهار مذهب الإمامية ، وأمر بإسقاط إسم « اسماعيل ابن جعفر الصادق» — الذى تنتسب إليه الاسماعيلية — من الخطبة، والدعاء لمحمد المنتظر « (الإمام الثانى عشر) » ، وعين سنة ٥٢٥ ﻫ أربعة قضاه : اثنين من السنة أحدهما شافعى والآخر مالكى ، وإثنين من الشيعة ، وفوض كل منهم فى الحكم حسب مذهبه [١] .

ولقدأدت سياسة الوزير أبى على أحمد بن الأفضل المناهضة للإسماعيلية ، إلى إثارة حفيظة أتباع هذا المذهب . فكونوا معارضة قوية ضده ، تزعمها « أبو الفتح يانس الحافظى» ، وقتلوه فى ١٦ محرم سنة ٥٢٦ ﻫ ، ثم قاموا بإطلاق سراح الحافظ [٢] . وبذلك انتهت بالفشل محاولة نشر مذهب الإمامية فى مصر [٣] .

وكان من مظاهر انحلال الخلافة الفاطمية ، تنافس كبار رجال الدولة الفاطمية، على منصب الوزارة ، الذى تخلى منذ عهد الخليفة الحافظ . فقد طمع « بهرام الأرمنى » والى الغربية ، فى هذا فاضطر الخليفة إلى توليته الوزارة [٤] . ولما اشتدت سطوة الأرمن فى عهد هذا الوزير بعث أمراء الجيش وقواده إلى « رضوان بن ولخشى » ، والى الغربية ، يطلبون منه إنقاذهم مما لحق بهم ، فقدم إلى القاهرة وخلف بهرام فى الوزارة سنة ٥٣٠ ﻫ / ٥٣١ ﻫ ، وتلقب بالملك الأفضل [٥] .

---

(١) مجموعة الوثائق الفاطمية ص ٩٠

(٢) أبو المحاسن، النجوم الزاهرة ﺟ ٥ ص ١٤٢ — ١٤٣ ومجموعة الوثائق الفاطمية ص ٩٤ — ٩٥ ، سرور الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٢٠ .

(٣) أبو الفدا : المختصر ﺟ ٣ ص ٤ . وكانت وزارة يانس قصيرة إذ مات فى ذى الحجة ٥٢٦ﻫ .

(٤) Stanley Lane-Poole : Saladin and the Fall of Kingdom of Jerusalem p. 80

(٥) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٨٢ — ٨٧ والمقريزى: خطط ﺟ ٢ ص ١٦٦ ط بيروت .

ثم اشتد التنافس فى عهد الخليفة الظافر الفاطمى (٥٤٤ — ٥٤٩ هـ) بين رجال الدولة على منصب الوزارة . فثار الأمير « على بن السلار » والى الاسكندرية والبحيرة ، وقصد القاهرة ، فاضطر الوزير «نجم الدين بن مصال» إلى الفرار . وحل « ابن السلار » محله فى الوزارة ، وأخذت قواته تتعقب « ابن مصال » حتى أوقعت به الهزيمة وقضت عليه عند قرية « دلاص » بالصعيد [1] .

على أن تعصب « ابن السلار » للمذهب السنى ، وحرصه على إحلاله بمصر محل المذهب الإسماعيلى ، حمل رجال الدولة الفاطمية على التخلص منه سنة ٥٤٨ هـ ، واغتيل فى السنة التالية الخليفة الظافر بتدبير من وزيره « أبى الفضل عباس » [2] .

ونتج عن مقتل الخليفة الظافر ، أن اضطربت الأمور فى القاهرة ، وتعرض أتباع الوزير عباس لكثير من الأذى اسخط الناس عليه ، مما اضطره إلى الفرار إلى الشام ، لكنه لقى حتفه أثناء محاولته الهرب [3] .

ولما تقلد « طلائع بن رزيك » الوزارة فى مصر ، بعد أن قضى على الاضطرابات التى حدثت فى القاهرة على أثر مقتل « الخليفه الظافر » سنة ٥٤٩ هـ ، تلقب بالملك الصالح [4] . ولم يلبث أن انفرد بالنفوذ والسلطة فى

---

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ٧ — ٨ والقلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٨٥ .

(٢) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ١٨ — ٢١ ، أبو الفدا : المختصر جـ ٣ ص ٢٨ — ٣٠ .

(٣) أسامة بن منقذ : نفس المصدر ص ٢١ وابن أياس : بدائع الزهور : جـ ١ ص ٦٦ — ٦٧ .

(٤) ابن أياس : المصدر السابق جـ ١ ص ٦٦ — ٦٧ ومجموعة الوثائق الفاطمية ص ١٥٢ — ١٥٤ .

إدارة الدولة الفاطمية ، بحيث صارت بيده كل السلطات[١] .

وكان لحرص طلائع ابن رزيك على الاستئثار بالسلطة ومحاولة إحلال الأمامية محل المذهب الإسماعيلي ، أن عمدت عمة الخليفة الفائز والوصية عليه إلى تدبير اغتياله . لكنه عجل بالتخلص منها . ونقل كفالة الخليفة إلى عمته الصغرى[٢] .

وبلغ من نفوذ ابن رزيك أنه لما توفى الخليفة الفائز الفاطمى فى ١٧ رجب ٥٥٥ هـ ، دون أن يوصى لأحد بولاية العهد ، أقام الأمير « أبا محمد عبد الله ابن الحافظ » خليفة ، ولقبه « العاضد لدين الله »[٣] . كما وضحت مطامعه فى حرصه على زواج ابنته من هذا الخليفة ، أملا فى أن ترزق منه ولدا ، « فيجتمع لبنى رزيك الخلافة مع الملك »[٤] . لكن حياة ابن رزيك انتهت بقتله ، بتدبير من عمة الفائز الصغرى فى ١٩ رمضان سنة ٥٥٥ هـ (١١٦١ م)[٥] .

أدى التنافس على منصب الوزارة الفاطمية ، إلى استعانة بعض الطامعين فى هذا المنصب بأمراء الدول المجاورة ، مما ترتب عليه تطلع هؤلاء الأمراء إلى بسط سلطانهم على مصر ، منتهزين فرصة ضعف الخليفة الفاطمى العاضد[٦]

فلما ولى « شاور بن مجير السعدى » سنة ٥٥٨ هـ الوزارة ، بعد تخلصه من « العادل بن طلائع بن رزيك »[٧] ، ثار عليه ضرغام أحد قواد الجيش

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣١١ — ٣١٢ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣١٤ .
(٣) أبو الفدا : المختصر جـ ٣ ص ٣٩ ، والمقريزى : اتعاظ الحنفاء ص ٢٨٨ . وخطط جـ ٢ ص ١٦٧ ، مجموعة الوثائق الفاطمية ص ١٢٠ — ١٢٢ .
(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣١٤ .
(٥) أبو شامة : الروضتين جـ ١ ص ١٢٤ .
(٦) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٣٧ - ١٣٨ .
(٧) ابن الأثير : الكامل جـ ١١ ص ١١٧ .

الفاطمى وتقلد الوزارة بدلا منه . فاستنجد شاور بنور الدين محمود صاحب دمشق ، ووعده بأن ينزل له عن ثلث خراج مصر ، فأرسل حملة إلى القاهرة بقيادة أسد الدين شيركوه تصدت لضرغام . وبذلك عاد شاور إلى منصبه [١] .

على أن شاور لم يف لنور الدين بما تعهدله به ، بل طلب من شيركوه العودة إلى الشام [٢] ، وبعث إلى ملك الفرنجة بيت المقدس يستمده ، فأجاب طلبه ، وأرسل جيشا أرغم شيركوه على العودة إلى الشام . وهكذا أطمع شاور كلا من نور الدين والفرنجة ببيت المقدس فى غزو مصر [٣] . ثم أنفذ نور الدين حملته الثانيــــة إلى مصر فى ربيع الأول سنة ٥٦٢هـ بقيادة شيركوه ، وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب من بين الذين اشتركوا فى هذه الحملة [٤] .

واستقر رأى شاور على الاستنجاد بالفرنجة للمرة الثانية ، فلبوا رغبته . ولما وصلت عساكرهم إلى مصر انضمت إلى قوات شاور والمصريين ، ودارت بينهم وبين قوات شيركوه معركة عند « البابين » — جنوب المنيا — فى ٢٥ جمادى الآخرة سنة ٥٦٢هـ ، وانتصر شيركوه عليهم ، ثم توجه إلى الأسكندرية حيث رحب به أهلها ، وعين ابن أخيه صلاح الدين واليآ عليها [٥] .

على أن شاور والفرنجة ما لبثوا أن أرسلوا إلى أسد الدين شيركوه

---

(١) ابن واصـــــل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٥٦ — ١٦٠ ، سرور : الدولة الفاطمية ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٢) أبو شامة : الروضتين جـ ١ ص ١٣١ وابن واصل المصدر السابق جـ ١ ص ١٣٨ ، المقريزى : خطط جـ ٢ ص ١٣ (ط . بيروت) .

(٣) ابن واصل : نفس المصدر جـ ١ ص ١٣٩ .

(٤) ابن واصل : نفس المصدر جـ ١ ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٥) أبو شامة : المصدر نفسه جـ ١ ص ١٤٢ - ١٤٤ .

يعرضون عليه الصلح . فقبل شيركوه مشترطا لذلك : « ألا يقيم الفرنج بالبلاد المصرية ، ولا يتملكوا منها قرية واحدة . . . ويكون لهم مائة ألف دينار كل سنة من خراج مصر » . ثم عاد شيركوه إلى الشام بعد ذلك سنة ٥٦٢هـ[١] .

لم تغادر جميع قوات الفرنجة مصر ، بل تركت بالقاهرة شحنة (حامية) ، لأن المعاهدة التي عقدوها مع شاور نصت على : « وجود شحنة لهم بالقاهرة ، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ، ليمتنع الملك العادل نور الدين محمود من إنفاذ عسكر إليهم »[٢] .

وقد ترتب على دخول الفرنجة البلاد المصرية ، وقوفهم على ما وصلت إليه هذه البلاد من الضعف والاضطراب ، مما أطمعهم في الاستيلاء عليها[٣] ، فبعثوا إلى ملكهم ببيت المقدس يحثونه على غزو مصر والاستيلاء عليها . فخرج « أملريك » على رأس حملة قاصدا البلاد المصرية[٤] .

ولما علم شاور بتقدم الفرنجة في زحفهم صوب القاهرة ، اضطر إلى إخلاء مدينة الفسطاط ، وأشعل جنوده النار فيها ، فظلت مشتعلة بها ٥٤ يوم[٥] . وتعرضت المدينة للنهب والسلب من السودانيين ، كما أمر بإحراق مراكب الأسطول الفاطمي ، فكان ذلك آخر عهد الفاطميين في مصر بالأسطول . أما أملريك فنزل خارج القاهرة ، وقاومه أهلها يساعدهم جنود شاور ، مما أدى إلى اضطراب الأمور في البلاد[٦] .

---

(١) أبو شامة : الروضتين جـ ١ ص ١٤٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٥١ - ١٥٢ ، المقريزي : خطط جـ ٢ ص ١٢٢ (ط . بيروت) .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق جـ ١ ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٤) أبو شامة : المصدر السابق جـ ١ ص ١٥٤ .

(٥) المقريزي : خطط جـ ٢ ص ١٢٣ ط بيروت أو جـ ٣ ص ٣١٤ ط النيل

(٦) المقريزي : خطط جـ ٢ ص ١٢٣ .

غير أنه لما أيقن شاور بعجزه عن مقاومة الفرنجة ، لجأ إلى الحيلة . فأرسل إلى أماريك — الذى كان وقتذاك يرابط خارج القاهرة بجنده — يذكره بما بينهما من مودة ، وأن عدوهم المشترك هو نور الدين محمود فى دمشق . وطلب مصالحته على أن يؤدى إليه ألف ألف دينار [1] ، فوافق أماريك . واتفقا على أن يعجل بدفع مائة ألف دينار ، ويؤجل الباقى ، وأن يرحل الفرنجة عن البلاد لئلا يطمع فيها نور الدين [2] .

على أن شاور ما لبث أن عمل على نقض تعهده مع الفرنجة ، وراسل نور الدين سرا ، يطلب النجدة . كما بعث الخليفة العاضد إلى نور الدين بمثل ذلك ، ووعده بالنزول عن ثلث خراج مصر ، وأن يقيم شيركوه مع عساكره فى القاهرة ، وأن يكون إقطاع جنده خارجا عن ثلث البلاد الذى خصص لنور الدين [3] .

ولما قدمت قوات نور الدين محمود إلى مصر . بقيادة أسد الدين شيركوه ، رحب بها المصريون واضطر أماريك ملك بيت المقدس — الذى كان لا يزال معسكرا بقواته أمام أسوار القاهرة — إلى الرحيل عنها عائدا إلى فلسطين . ثم دخل أسد الدين شيركوه القاهرة على رأس حملته الثالثة فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ . فرحب به أهلها وخلع عليه الخليفة العاضد [4] .

ولم يمض غير وقت قليل على قدوم شيركوه مصر ، حتى دبر مؤامرة للتخلص من شاور ، ثم اتخذه الخليفة العاضد وزيرا له ، ولقبه « بالملك المنصور

(١) أبو شامة: الروضتين : جـ ١ ص ١٥٤ والمقريزى: خطط جـ ٢ ص ١٢٣

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٥٨ .

(٣) أبو شامة المصدر السابق جـ ١ ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٤) أبو شامة : نفس المصدر جـ ١ ص ١٥٨ - ١٥٩ .

Amari : Diplomi E Arabi, P. 262 – 263 & (456 – 460).

أمير الجيوش» ، وصار منذ ذلك الوقت صاحب السلطان الفعلى فى البلاد [١] ، لكنه لم يستمر طويلا فى منصبه ، فقد توفى بعد أن ظل فى الوزارة مايقرب من ثلاثة أشهر [٢] .

وهكذا أصبحت الأمور غير مستقرة فى مصر فى أواخر العصر الفاطمى ، نتيجة لتنافس كبار رجال الدولة على منصب الوزارة ، وتطلع بعض أمراء الدول المجاورة ، إلى بسط نفوذهم على البلاد المصرية ، فضلا عن عجز الخليفة الفاطمى عن القبض على زمام الأمور فى البلاد ، وهو ما تجلى بوضوح بعد أن أسند العاضد وزارته إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب [٣]. فقد أمر هذا الوزير ، بعد أن استقرت سلطته ، بذكر اسم نور الدين محمود - صاحب دمشق - فى الخطبة بعد الخليفة الفاطمى ، كما أسند إلى أصحابه بعض مناصب الدولة وأقطعهم البلاد ، ثم وجه اهتمامه إلى القضاء على المذهب الاسماعيلى فى مصر . وكان لهذه السياسة - بلاشك - أثرها البالغ فى انهيار سلطة الخليفة الفاطمى .

ولم يعد أمام صلاح الدين بعد ذلك سوى الاجهاز على الخلافة الفاطمية ، فلما تهيأت له الظروف لتحقيق هذه الغاية ، أمر الخطباء بمصر والقاهرة بإسقاط اسم العاضد من الخطبة — وكان العاضد مريضا وقتذاك — فلم يخبره أحد بما أقدم عليه صلاح الدين ، ولم يلبث أن توفى العاضد الفاطمى فى اليوم العاشر من المحرم سنة ٥٦٧هـ ، دون أن يدرى بالانقلاب الصامت الذى تم ضده وضد أسرته ، وسقطت بذلك الدولة الفاطمية [٤] .

(١) أبو شامة : الروضتين جـ ١ ص ١٥٩ ، مجموعة الوثائق الفاطمية ص ١٧٢ .

(٢) أبو شامة : نفس المصدر جـ ١ ص ١٦٠ — ١٦١ .

Stanley : Hist. of Egypt in the Middle Ages, P. 190 — 191.

(٣) أبو شامة : المصدر السابق جـ ١ ص ١٦٠ — ١٦١ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب جـ ١ ص ١٧٤ — ١٧٧ والمقريزى : خطط جـ ٢ ص ١٧٥ (ط . النيل) .

Benjamin of Tudela, Vol. 2, p. 201.

لقد كان زوال الخلافة الفاطمية نتيجة طبيعية لأحداث داخلية وخارجية تعرضت لها مصر ، منذ أواخر القرن الخامس الهجرى . ففضلا عن ازدياد نفوذ الوزراء ، وتنافس كبار رجال الدولة على منصب الوزارة ، وانصراف الوزراء الفاطميين عن تأييد المذهب الاسماعيلى ، وحرص بعضهم على أن يستعيد المذهب السنى قوته ، طمع كل من نور الدين محمود صاحب دمشق ، والفرنجة فى بيت المقدس ، فى بسط سلطانهم عليها .

ولا شك أن هذه الأمور جميعها كان لها أثرها البالغ فى ضعف نشاط الدولة الفاطمية خارج حدود مصر ، فتعذر عليها بالتالى الاحتفاظ بما تبقى لها من سلطان فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط .

٣ — تقلص النفوذ الفاطمي في شرق البحر المتوسط

كان للضعف الذي انتاب الدولة الفاطمية ، منذ أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس للهجرة ، أثر بالغ في ضعف القوة البحرية الإسلامية ، في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . فاقتصر نشاط البحرية الفاطمية — في العصر الفاطمي الأخير — على تزويد الموانى والمرافىء الساحلية في الشام ، — التي كانت لا تزال بأيديهم — بالمؤن والإمدادات . فيروى « أبو الفدا » أن خلفاء مصر كانوا يرسلون كل عام المؤن والسلاح لأسطولهم المحاصر لعسقلان [١] . كما أن استيلاء البيزنطيين على جزيرتي كريت سنة ٣٥٠هـ ، وقبرس ٣٥٤هـ (٩٦٥م) ، ساعد على تقوية نفوذهم في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، مما أعاق النشاط البحري للفاطميين في هذه المنطقة .

وقد عبر ابن خلدون عن الوضع العام للبحرية الإسلامية — أبان زوال الخلافة الفاطمية وبعدها — بقوله [٢] « حتى إذا أدرك الدولة العبيدية والأموية الفشل والوهن ، وطرقها الاعتلال « مد النصارى أيديهم إلى جزائر البحر الشرقية . . ثم ألحوا على بيت المقدس ، وبنوا عليه كنيسة لإظهار دينهم وعبادتهم ، وغلبوا على سواحل الشام في تلك الفترة ، وملكوا طرابلس وعكا وصور وعسقلان ، واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام » .

هكذا أدى الضعف الذي تعرضت له الدولة الفاطمية منذ أواخر القرن الخامس الهجري ، إلى عجزها عن صد هجمات الصليبيين التي وجهت إلى مدنها الساحلية ببلاد الشام خلال عهد المستعلي بالله (٤٨٧ — ٤٩٥هـ)[٣] ، ونجح الصليبيون

---

(١) Camb. Med. Hist., Vol. 5, p. 297.

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٨٣ .

(٣) القلقشندي : صبح الأعشى ج٥ ص ٥٢٣ — ٥٢٤ .

Chalandon : Hist. des Premiere Croisade, p. 196.

فى الاستيلاء على بيت المقدس فى ٢٢ يوليو ١٠٩٩م (رمضان ٤٩٢هـ) كما استولى «تنكرد بن جود فروى دى بويون» حاكم بيت المقدس على مدينة « بانياس » فى أواخر يوليو سنة ١٠٩٩م [1] .

أما الموانى الساحلية الهامة فى بلاد الشام . مثل صور وعكا وصيدا وبيروت وطرابلس وعسقلان ، فظلت فى يد الفاطميين إلى حين . ذلك أنهم بسطوا سلطانهم على الموانى الأربعة الأولى ، أما طرابلس فسيطر عليها « بنو عمار » مع تظاهرهم بولاء أسمى للخلافة الفاطمية فى مصر .

لقد استغل الصليبيون فى بيت المقدس، ضعف الدولة الفاطمية وانهيار سلطانها فى بلاد الشام منذ أوائل سنة ١١٠٠م ، فعملوا على تحصين يافا [2] وتقويتها، وقد عاونهم فى ذلك أسطول بيزا التجارى [3] . وبذلك صارت يافا مركزا تجاريا وحربيا كبيرا للصليبيين ،خاصة بعد أن أصبحت ميناء رئيسيا لإمارتهم فى بيت المقدس . فقصدتها السفن التجارية من جنوة وبيزا والبندقية ، محملة بالحجاج المسيحيين والبضائع والإمدادات [4] .

واجه الفاطميون فى بلاد الشام ، بعد تحصين الصليبيين يافا وتقوية دفاعاتها البحرية ، عدة صعوبات وبخاصة فى جنوب فلسطين . ذلك أن الصليبيين جعلوا من هذه المدينة مركزاً يشنون منه هجماتهم المتتالية ، على المدن الخاضعة

---

(١) راجع Gesta Francorum de Nogent
(عن : سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٢٥٤) .
(٢) سقطت يافا فى يد الصليبيين فى شوال ٤٩٢ هـ (أغسطس ١٠٩٩م)
راجع : Stevenson : The Crusaders, p. 35.
(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ١٠٦ .
Heyd : Hist. Du Comm., T. I, p. 135.
(٤) Grousset: Hist. des Croisades, Tome, I, p. 183 & Heyd: Ibid, T. 1, p. 131.

للفاطميين بالشام . وبدأ أهالى هذه المدن ، يدركوا أن الدولة التابعين لها ، لا تستطيع الدفاع عنهم أو حمايتهم . ولذلك أعلنت مدن عسقلان وقيسارية وعكا - مرغمة - قبول مساعدتها للصليبيين ، كما تعهدت لهم بدفع جزية مشتركة شهرية قدرها نحو ٥٠٠٠ دينار ، هذا فضلا عما تعهدت هذه المدن بتقديمه، من غلال وزيوت ومواش (١) .

كذلك استغل البنادقة فرصة إستيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، ففرضوا عليهم المساعدة فى فتح مدن الشام الساحلية ، مقابل أن يخصص للبنادقة ثلث كل مدينة يسهمون فى فتحها ، ويكون لهم حى تجارى فى كل من هذه المدن . كما طمعوا فى أن تكون طرابلس فى حوزتهم ، إذا ما تم للصليبيين فتحها ، مقابل جزية يدفعونها لحاكم بيت المقدس ، وقد وافق الصليبيون على طلب البنادقة (٢) .

ولما شرع البنادقة فى حصار ميناء عكا طلب ، منهم الصليبيون فى بيت المقدس أن يوجهوا جهودهم إلى حيفا ، لقربها من بيت المقدس ولأنها أنفع للصليبيين من عكا . وكان يعسكر فى حيفا وقتذاك حامية فاطمية صغيرة للدفاع عنها ، وأغلب سكانها يهود - كما يذكر بنيامين التطيلى ولذلك تعرضت لهجوم البنادقة (٣) .

وكانت «أرسوف» أول ميناء بحرى فاطمى فى الشام ، يتعرض لهجوم «بلدوين الأول» ملك بيت المقدس . ولكن لم يسيطر عليه الصليبيون إلا فى أوائل سنة ١١٠١ م ، بسبب حاجتهم إلى قوة بحرية تساندهم . بدليل أنه لما توفرت

---

(١) Albert D'Aix p. 515 (Hist. Occid., Vol. IV) & Heyd : Hist. Du Comm., T. 1, p. 134—136.

(٢) Henri Pirenne : Hist. Du Moyen Age, Tome 8, p. 22—32.

(٣) Albert p. Aix (Hist. Occid., Vol. IV) & William of Tyre Vol. 1, p. 457—461 (Guillaume de Tyre, Tome, 1, P. 410)

لديهم هذه القوة ، متمثلة فى مساعدة أساطيل جنوة ، فضلا عن بيزا لم تستطع أرسوف الصمود أمام زحف الصليبيين عليها براً وبحراً . فسلمت لهم فى أواخر أبريل سنة ١١٠١ م [١] . ثم توجه بلدوين براً — يؤازره أسطول جنوى من البحر — نحو قيسارية ، التى كانت تابعة إسمياً للفاطميين وقتذاك فدخلها الصليبيون بعد أن نكلوا بأهلها فى ١٧ مايو سنة ١١٠١ م [٢] .

لكن الوزير الأفضل بن بدر الجمالى حاول إستعادة المدن والموانى الساحلية ببلاد الشام التى استولى عليها الصليبيون . فأرسل حملة برية كبيرة إلى ساحل فلسطين فى ربيع الأول ٤٩٤ هـ ، (١١٠١ م) ، بقيادة : « سعد الدولة القوامى » . حاكم بيروت [٣] . لكن هذه الحملة منيت بالفشل عند الرملة سنة ١١٠١ م لتباطئها فى محاربة الصليبيين فى أرسوف [٤] .

ولم يستسلم الأفضل بن بدر الجمالى ، بل رأى أن يعاود الكرة ضد الصليبيين . فأعد حملة ثانية مكونة من ٢٠ ألف رجل خرجت إلى عسقلان ، فى منتصف مايو سنة ١١٠٢ م (٤٩٥ هـ) بقيادة إبنه « شرف المعالى » [٥] . فلما أحرزت القوات الفاطمية النصر على الصليبيين فى الرملة — (١٧/ ١٩ مايو ١١٠٢م — شعبان ٤٩٥ هـ) — اتجهوا إلى يافا لمحاصرتها ، واستمرت القوات الفاطمية تطارد بلدوين ملك بيت المقدس ، حتى اضطر إلى المسير إلى أرسوف . وهناك جمع حوله القوات الصليبية التى عاونته على دخول يافا من ناحية

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٩ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٦٧ .
(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ١٢١ .
(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ١٢٩ .
William of Tyre I, P. 426.
(٥) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ١٢٩ .
William of Tyre, I. P. 230.

البحر [١] . ثم وافته فى أواخر مايو ١١٠٢ م حملة فرنجية أخرى تتكون من مائتى سفينة محملة بالجند ، مما دعم موقفه إزاء الفاطميين [٢] .

وقد تمكنت القوات البحرية الصليبية من اختراق حصار سفن الأسطول الفاطمى فى يافا ، فدخلها بلدوين بعد أن حصل على الامدادات اللازمة . وبذلك حلت الهزيمة فادحة بالفاطميين فى يافا براً وبحراً ، وتقهقرت أساطيلهم وقواتهم إلى عسقلان [٣] .

وكان انتصار الفرنجة على الفاطميين فى يافا سنة ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) ، مما شجعهم — أى الصليبيين — على مهاجمة طرابلس الشام . فسارت إليها حملة صليبية صغيرة بقيادة « صنجيل الفرنجى » ، حيث حاصرت حاكمها من بنى عمار ، ثم وقع الصلح بين « الطرفين على مال يحمله أهل طرابلس إلى الصليبيين كل عام ، فرحل « ريموند الصنجيلى » عن طرابلس إلى أنطرطوس ، « ففتحها وقتل من بها من المسلمين [٤] » .

ولما علم « الأفضل » — الوزير الفاطمى — بهزيمة إبنه شرف المعالى وقواته الفاطمية فى يافا ، أنفذ إليه حملتين : الأولى برية بقيادة مملوك يسمى « تاج العجم » ، مكونه من أربعة آلاف فارس ، والأخرى بحرية بقيادة القاضى « ابن قادوس » [٥] . غير ان الخلاف ما لبث أن قام بين قائدى هاتين الحملتين ، وهم أحوج ما يكونون للترابط ، وبذلك لم يتيسر لهما استعادة يافا .

وجهت مملكة بيت المقدس الصليبية ، اهتمامها إلى الاستيلاء على باقى المدن الساحلية بالشام ، التى كانت لاتزال فى حوزة الفاطميين ، وهى : عسقلان

---

(١) Michaud : Hist. des Croisades, Tome 2 P. 30

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ١٣٦ .

(٣) William of Tyre Vol. 1, P. 435.

(٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ٢ ص ٢٢٦ .

(٥) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ١٣٦ — ١٣٧ .

وعكا وصور وصيدا و بيروت (١) . وكان مما شجعهم على ذلك أن سيطرة الفاطميين على هذه المدن صارت شكلية . كما أن الدولة الفاطمية أصبحت عاجزة عن الذود عنها ، هذا فضلا عن أن بقاء المدن الساحلية بالشام فى يد الفاطميين قد يتيح الفرصة للمسلمين — إذا ما استعادوا قوتهم — أن يتخذوها مراكز لمهاجمة الصليبيين . ومما أكد هذا الاعتقاد لدى الصليبيين ، قيام السلطات الفاطمية فى كل من صيدا وعكا وعسقلان ، بأسر بضعة سفن تحمل حجاجا عائدين إلى الغرب ، وإرسالهم إلى القاهرة (٢) .

شرع « بلدوين الأول » ملك بيت المقدس فى حصار عكا ، فى ربيع سنة ١١٠٣ م ، لكنها صمدت لوصول النجدات الفاطمية إليها من صور وصيدا ، مما اضطر بلدوين إلى رفع الحصار عنها (٣) ، بسبب حاجته إلى قوة بحرية توازره من ناحية البحر ، وتقف ضد احتمال هجوم الفاطميين بحراً (٤) . لكنه ما لبث أن استعان بالأسطول الجنوى — الذى وصل إلى اللاذقية — فى مهاجمة عكا برا وبحرا ، أواخر مايو سنة ١١٠٣م ، فدافع عنها حاكمها الفاطمى « زهر الدولة الجيوشى » (٥) ، غير أنه سرعان ما اضطر إلى التسليم بعد أن اشتد حصار الصليبيين لعكا (٦) .

---

(١) Grousset : Hist. des Croisade, T. 1, P. 239

(٢) عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٣٠١ وعنه راجع
Albert d'Aix, P. 600 - 601.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٢١ و ١٢٩ .

(٤) ابن الأثير : ج ١٠ ص ١٢٩ .
Heyd : Hist. du Comm. Tome I, p. 139.

(٥) اسمه «بنا» ويعرف بزهر الدولة الجيوشى نسبة لأمير الجيوش الأفضل ابن بدر الجمالى . راجع ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٣٩ .

(٦) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ١٣٩ ، أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٢٢٧ ، ٢٣١ - ٢٣٣ .

بذلك أصبح الصليبيون ـ بعد استيلائهم على عكا ـ مسيطرين على شواطىء فلسطين . أما الأسطول الفاطمى ، فقد حرم ـ بفقده هذه المدينة ـ من أهم قواعده الساحلية فى الشام . وقد منح أهل جنوة ثلث عكا تنفيذاً لسابق اتفاقهم مع بلدوين الأول ، كما منحوا من قبل ثلث كل من قيسارية وأرسوف (١) .

وعلى الرغم من الهزيمة التى لحقت بالفاطميين فى عكا ، إلا أن الوزير «الأفضل بن بدر الجمالى» ، ظل يواصل جهوده لطرد قوات الصليبيين المعتدية من بلاد الشام . فأعد حملة برية فى ذى الحجة سنة ٤٩٨هـ (صيف ١١٠٥م) (٢)، أسند قيادتها إلى ابنه « سناء الملك حسين » وضم اليه بعض الأمراء ، كان منهم « جمال الملك » نائب عسقلان (٣) . كما أعد فى نفس الوقت أسطولا ليساند الحملة البرية وعرض على « طغتكين » ـ أتابك دمشق السلجوقى ـ مساعدته ، فى قتال الفرنجة (وكان ذلك فى صيف ١١٠٤م) فاستجاب ـ طغتكين ـ لنداء الأفضل ، وأرسل أحد قواده ـ ويدعى « اصبهبذ صباو »(٤) ، على رأس حملة من ألف وثلثمائة فارس .

ولما علم بلدوين الأول ملك بيت المقدس بمعاونة طغتكين حاكم دمشق ، للقوات الفاطمية، تلبية لرغبة الوزير « الأفضل بن بدر الجمالى» ، خرج من يافا إلى الرملة ، وانضم اليه « ارتاش بن تاج الدولة تتش الكبير » (٥) ، مدعى

---

(١) William of Tyre, Tome I, p. 445

(٢) راجع محمد مختار الهامى : التوفيقات الإلهامية ص ٢٤٩ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٠ ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٤) ابن الأثير جـ ١٠ ص ١٤٨ . وقد أورد هذا الاسم هكذا دون زيادة أو إيضاح .

(٥) توفى دقاق بن تتش الكبير حاكم دمشق فى رمضان سنة ٤٩٧ هـ (مايو/ يونية ١١٠٤م) ، فآلت السلطة إلى الاتابك طغتكين ، الذى أخفى مطامعه فى الملك ، لاعلانه قيام تتش الصغير بن دقاق، مكان والده ، (وكان عمره ١٢ سنة) =

الحق فى ملك دمشق ، بقوة من رجاله ، ودارت المعركة بين الفريقين فى اليوم الثالث من شهر ٣ ذى الحجة سنة ٤٩٨هـ (٢٧ أغسطس ١١٠٤م) ، وانتهت بهزيمة الفاطميين ، الذين قتل منهم ومن جيوش طغتكين عدد كبير ، كان من بينهم « جمال الملك » أمير عسقلان (١) .

ولم تكن خسائر الصليبيين - رغم انتصارهم - أقل مما خسره الفاطميين. وتعبير ابن الأثير عن نتائج هذه الموقعة يدلنا على ذلك إذ قال : « أنه لم تظهر إحدى الطائفتين على الأخرى ، فقتل من المسلمين ألف ومائتين ومن الفرنج مثلهم » (٢).

أما الأسطول الفاطمى ، فعاد إدراجه نحو صور وصيدا وطرابلس ، وفى خلال عودته باغتته الأنواء البحرية ، فقذفت نحو عشرين سفينة منه على الموانئ الشامية التى يسيطر عليها الصليبيون (٣) .

لقد ظلت فكرة الاستيلاء على باقى المدن الساحلية بالشام ، الخاضعة لسيادة الفاطميين — وهى مدينة عسقلان فى الجنوب وصور وصيدا وبيروت فى الشمال — مسيطرة على ذهن بلدوين ، مع إدراكه مدى مناعة وقوة كل من عسقلان وصور . فبدأ مخططه بمهاجمة صيدا فى ربيع سنة ١١٠٦م (٤٩٩هـ) ، مستعينا

= ثم خلعه طغتكين واحل محله عمه أرتاش أو بكتاش — أخو دقاق — لكن أرتاش هرب إلى حوران خوفاً من بطش طغتكين به ، ولجأ إلى بلدوين ملك بيت المقدس طالباً إجارته . ثم تخلى بلدوين عنه بعد أن ساعده أرتاش فى واقعة الرملة الثالثة سنة ١١٠٥م ، فانسحب أرتاش إلى الرحبة على نهر الفرات . راجع ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٨ — ١٤٩ وابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ١٤٨ .

(١) ابن الأثير : المصدر السابق جـ ١٠ ص ١٤٨ .

(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٤٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ١٤٩ .

Runciman : Hist of Crusades, Vol. 2, p. 90 - 91.

بمن كان فى مملكته وقتذاك من الحجاج المسيحيين . ولما علم حاكم صيدا بذلك ، أرسل مبلغا كبيرا من المال إلى بلدوين ، فقبل بلدوين هذا المبلغ ، وكف عن مهاجمة صيدا لمدة عامين(١)، لكنه عاود مهاجمتها فى صيف ١١٠٨م مستعينا فى ذلك بأساطيل المدن الإيطالية : أمالفى وبيزا وجنوة والبندقية مجتمعة. وكان يرمى، بالطبع، من وراء ذلك الهجوم إلى انتزاع صيدا من قبضة الفاطميين ، وابتدأ الهجوم بحصار صيدا برا وبحرا. غير أن العمارة البحرية التى وصلت صيدا وقتذاك من مصر ، أدت إلى فشل بلدوين فى محاصرته هذه المدينة ، وبل أنزلت بالسفن الإيطالية ، التى عاونت فى الحصار ، الهزيمة النكراء فى مياه البحر المتوسط (٢) .

وفى نفس الوقت كان حاكم صيدا الفاطمى قد طلب نجدة برية من طغتكين صاحب دمشق ، فى صد الصليبيين عن المدينة ، مقابل مبلغ من المال يؤديه إليه ، فقبل طغتكين أن يساعده . وكان ذلك مما اضطر بلدوين إلى العودة بقواته إلى عكا (٣) .

على أن بلدوين ما لبث أن حاول للمرة الثالثة الاستيلاء على صيدا ، فحاصرها برا فى أكتوبر سنة ١١١٠م (ربيع الآخر سنة ٥٠٤هـ) ، واستعان فى هجومه بأسطول حجاج نرويجى وصل إلى عكا ثم انضم إليه أسطول بندقى(٤). ولما اشتد الهجوم على أهل صيدا ، طلب قاضيها وشيوخها الأمان من بلدوين

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ١٧٦ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٨٠ ، وراجع أيضا :

Albert D'Aix, p. 632 - 634.

(٢) Grousst : Hist. des Croisades, I, p. 253.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٢ .

William of Tyre, Vol. 1, p. 486—487.

(٤) Heyd : Hist. Du Comm., Tome I, P. 143.

فى جمادى الآخرة سنة ٥٠٤ هـ (٤ ديسمبر ١١١٠م) ، فأمّنهم وسمح للقاضى بالخروج وبصحبته كثير من الأهالى إلى دمشق [١] ، وحصل البنادقة مقابل معاونتهم بلدوين فى صيدا ، على عدة امتيازات فى عكا [٢] .

أما مدينة صور (Tyre) ، فظلت ممتنعة على الصليبيين فترة طويلة ، كما قاومتهم بصلابة لاعتمادها على الخلافة الفاطمية فى مصر ، التى حرصت على إمدادها بالمؤن والذخيرة الحربية . لكن توالى غارات الصليبيين عليها ، زاد فى حرج أهلها ، كما أصبحت الدولة الفاطمية منذ أوائل القرن الثانى عشر ، عاجزة عن مساعدة صور مساعدة فعالة ، مما حمل حاكمها « عز الملك » على طلب النجدة من طغتكين أتابك دمشق ، مقابل الدخول فى طاعته [٣] . كما طلب أهل صور من طغتكين تعيين والى قوى عليهم يدفع عنهم الخطر الصليبى .

وأسند طغتكين إلى «مسعود بن مودود» ولاية صور بدلا من «عز الملك» الوالى الفاطمى ، ووزع عليهم الأموال والمؤن ، «فطابت نفوس أهل البلد[٤]» ، وأرسلوا أموالهم وما يخشون عليه إلى دمشق ، لكن قوات بلدوين فرضت حصارا بريا على صور فى نوفمبر سنة ١١١١م (جمادى الآخرة سنة ٥٠٨هـ) ، تسانده بعض السفن البيزنطية بحرا [٥] . لكن هذا الحصار باء بالفشل . فقد استجاب طغتكين لنداء أهل هذه المدينة ، الذين عرضوا عليه مفاتيح مدينتهم ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٨٢ ، أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٢٣٥ .
William of Tyre, Vol. 1, P. 487.

(٢) Heyd : Op. Cit., Tome I, p. 142.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ ص ١٨٤ — ١٨٥ .

(٤) ابن الأثير : ج ١٠ ص ١٨٤ — ١٨٥ ، ٢٣٦ .

(٥) المصدر السابق : ج ١٠ ص ٢٣٦ .

وأرسل اليهم نجدة (١) . وبذلك يئس بلدوين من الاستيلاء على صور ، وانصرف عنها ليباشر نشاطه فى منطقة طبرية ضد أتابك دمشق (٢) .

ثم أتاح اضطراب الأحوال فى صور ، وعجز الفاطميين عن حمايتها من الصليبيين ، واسنادهم هذه المهمة إلى طغتكين ، الفرصة للفرنج بالشام ، ليوجهوا جهودهم للاستيلاء عليها (٣) ، فاستنجد بلدوين الثانى ملك بيت المقدس بالبابا فى ١١١٩م (٥١٢ — ٥١٣هـ) ، للمعاونة فى تحقيق غايته ، فدعا البابا حكومة البندقية للإسهام فى مساعدة الصليبيين ضد المسلمين بالشام . فجهز دوق البندقية حملة تتكون من ثلاثمائة مركب بها خمسة عشر ألف جندى فى صيف ١١٢٢م (٤) .

لكن هذه الحملة التى أعدتها حكومة البندقية شغلت بمهاجمة جزيرة « كورفو » البيزنطية — فى البحر المتوسط — وبذلك خلا الجو للفاطميين لينفردوا ببلدوين الثانى ملك بيت المقدس ، فأسرته قواتهم فى ربيع الأول سنة ٥١٧هـ (١٨ أبريل ١١٢٣م) ، مما اضطر حملة البندقية إلى رفع حصارها عن كورفو البيزنطية سنة ١١٢٣م ، والمسير نحو عكا لمساعدة الصليبيين ضد المسلمين ، وبخاصة بعد أن علموا أن « روجر » أمير أنطاكية قتل سنة ١١١٩م (٥) .

اتجهت بعض وحدات من حملة البنادقة البحرية — بعد وصولها إلى سواحل بلاد الشام — إلى عسقلان ، حيث ألحقت الهزيمة بالأسطول الفاطمى ثم أغارت على ساحل فلسطين الجنوبى حتى العريش ، فى ربيع الآخر سنة ٥١٧هـ

---

(١) ابن الجوزى : مرآة الزمان حوادث سنة ٥٠٦ ، ٥٠٨ هـ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٥٨ ، ٢١٨ .

(٣) ابن الأثير : جـ ١٠ ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

(٤) Heyd : Hist. Du Comm, T. I, P. 142—143.

(٥) Brihier : L'Eglise Et L'Orient Au Moyen Age, (Les Croisades) p. 322.

(مايو١١٢٣م) ، كما أسرت — فى طريق عودتها إلى عكا — أسطولا تجاريا فاطميا مكونا من ١٠ مراكب محملة بالبضائع (١) .

وقد ترتب على تدمير الأسطول الفاطمى فى عسقلان سنة ٥١٧هـ (١١٢٣م)، أن أصبح المجال مفتوحا أمام الصليبيين ليعملوا ضد ما بقى فى يد الفاطميين من الموانى الشامية والقواعد البحرية . فعاودوا مهاجمة صور لأهميتها الحربية والتجارية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط (٢) . وكان مما شجع البنادقة على الانحياز للصليبيين ضد الفاطميين ، أنهم حصلوا على امتيازات تجارية ، وتسهيلات اقتصادية فى مدن مملكة بيت المقدس ، وبخاصة فى مدينة عكا ، كما اشترطوا أن يكون لهم ثلث مدينتى صور وعسقلان بعد فتحهما (٣) .

اتفقت القوات الصليبية بالشام ، مع قوات البندقية على حصار مدينة صور ، فى منتصف فبراير ١١٢٤م (المحرم سنة ٥١٨هـ) . فسير طغتكين أتابك دمشق اليها ، بناء على تكليف الخليفة الآمر الفاطمى ، العساكر والميرة أو المؤن (٤) . كما حاولت حامية عسقلان الفاطمية ، الدفاع عن صور بالزحف على بيت المقدس ومهاجمتها أكثر من مرة ، لتخفيف ضغط

---

(١) سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٥١٩ نقلا عن :
Foucher : Des Chartes, P. 452—453.

(٢) أورد وليم الصورى وصفاً لحصار مدينة صور ومهاجمتها من جانب الصليبيين راجع : William of Tyre, Vol. 1, P. 550—552 & Vol.2, P. 1—21
[French Ed T. 1, P. 459—474].

(٣) William of Tyre, Vol. 1, p. 550—555 & Heyd : Hist. du Comm., Tome 1, p. 143—144.

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ٢٣٦ . ومما يجدر ذكره أن ابن جبير وصف صور فى القرن الثانى عشر من الميلاد بأنها : « مدينة يضرب بها المثل فى الحصانة ، لا تلقى لطالبها بيد طاعة ولا استكانة » راجع ابن جبير ص ٢٧٧ (ط بيروت) .

الحصار الصليبي عن صور . وفضلا عن ذلك فان طغتكين خرج بجيوشه إلى « بانياس » ، — للدفاع عن صور ، فتصدى له « بونز » (Ponz) الصليبي أمير طرابلس (١) .

وبذلك أخفقت جهود الفاطميين وأتابك دمشق فى إنقاذ صور ، واضطر طغتكين إلى مراسلة الصليبيين فى محاولة منه لمهادنتهم . فيذكر ابن القلانسى أنه : « راسل الفرنج بالملاطفة والمداهنة ، والارهاب والارغاب ، إلى أن تقرر الحال على تسليمها اليهم ، بحيث يؤمن كل من بها ، ويخرج من أراد الخروج من العسكرية والرعية ، بما يقدرون عليه من أموالهم ، ويريد من أراد الإقامة منهم (٢) » .

هكذا استسلمت مدينة صور للصليبيين ، فى ٢٣ جمادى الأولى سنة ٥١٨ﻫ (٢٣ يونية ١١٢٤م) . ومما يجدر ذكره أن الصليبيين احترموا شروط الأمان الذى منحوه لأهل هذه المدينة (٣) . ويصف أبو المحاسن انسحاب قوات المسلمين من صور قائلا : « وجاء الأتابك بعسكره ، فوقف بإزاء الفرنج ، وركبت الفرنج ، ووقفوا بازائه ، وصاروا صفين ، وخرج أهل البلد ، يمرون بين الصفين ، ولم يعرض لهم أحد(٤) » . وكان لانسلاخ صور من يد الفاطميين أثر بالغ فى ضعف نشاط أسطولهم شرق البحر المتوسط(٥) .

---

(١) William of Tyre, Vol. 2, p. 1, 21 (Guillaum de Tyre, T. 1, p. 566, 572).

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٧ ، ابن الأثير جـ ١٠ ص ٢٣٧ .

(٣) ابن الأثير : جـ ١٠ ص ٢٣٧ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٨٣ .

(٥) ابن الأثير : جـ ١٠ ص ٢٣٧ .

Grousset : Hist. des Croisades, T. 1, p. 618 & Heyd : Hist. du Comm., T. 1, p. 148—151.

وقد حاول الفاطميون الانتقام من الصليبيين بعد سقوط صور ، فخرج أسطولهم من الإسكندرية ودمياط سنة ٥٢٠ھ (نوفبر / ديسمبر ١١٢٦م) متجها نحو العريش ، ثم غزة ، فعسقلان ، ثم واصل سيره أمام مدن يافا وقيسارية وعكا وصور وصيدا وبيروت ، أملا فى اغتنام فرصة ، يباغت فيها الصليبيين بهجوم مفاجىء . لكنه لم يلبث أن عاد بعد مناوشات يسيرة دارت بينه وبين الصليبيين فى بيروت [١] .

كذلك كانت طرابلس من بين مدن الشام الساحلية التى تعرضت لهجوم الصليبيين . فقام « برتراند بن ريموند سانت جيل » (صنجيل) فى ١٢ يوليو ١١٠٩م (ذى الحجة ٥٠٢ھ) بحملة للاستيلاء على هذه المدينة [٢] من يد حاكمها « فخر الملك أبو على بن عمار » [٣] ، يساعده فى ذلك بلدوين الأول ملك بيت المقدس . كما ساعد برتراند الملك بلدوين ، فى العام التالى ، بالاستيلاء على بيروت . فسقطت فى يده ، بسبب فشل النجدات البحرية — التى أرسلها الفاطميون — فى الوصول إليها ، وفرار حاكمها الفاطمى ليلا فى سفينة إلى قبرص وبذلك اضطر أهل بيروت إلى التسليم لبلدوين ، بعد أن أمنهم . لكن الجنوية والبيازنة ، الذين كانوا مع بلدوين ، اعملوا القتل فى أهلها ، ونهبوا المدينة ، ولم يعد السلام والأمن إليها إلا بصعوبة بالغة [٤] .

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٤ .

William of Tyre, Vol 2, p. 19 - 21 (Guillaume de Tyre, T 1,P. 578 - 588).

(٢) أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٢٣٥ .

(٣) تولى فخر الملك أبو على بن عمار طرابلس من سنة ٤٩٢ ھ وظل يحكمها حتى أخذها الصليبيون سنة ٥٠٢ ھ (١٠٩٩ — ١١٠٨ م) وظلت بيد الصليبيين حتى سنة ١٢٨٩ م . راجع :

Grousset : Hist. des Croisades. Tome, I, p. 344 — 345.

(٤) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٧ — ١٦٨ .

William of Tyre, Vol. 1, p. 484 & Vol 2, p. 32.

ولم يكن فى مقدور طرابلس مقاومة هجمات الصليبيين عليها ، لضعف قوتها وانهيار نفوذ حكامها من بنى عمار . لذلك هاجمها الصليبيون برا ، وحاصرها أسطول جنوى كبير من ناحية البحر [1] . كما أن الأسطول الفاطمى الذى أعدته القاهرة لنجدتها ، انتظر طويلا ـ دون داع ـ فى موانى دمياط وتنيس فلما أبحر إلى طرابلس، صادفته رياح عوّقت مسيره ، وذلك فى الوقت الذى أخذت فيه حالة أهلها تزداد سوءا [2] . ثم أبحرت حملة فاطمية أخرى نحو طرابلس ، ولكن بعد فوات الأوان ، إذ لم تكد تصل إليها حتى وجدتها فى حوزة الفرنجة [3] .

ويلقى أبو المحاسن [4] مسئولية سقوط طرابلس على عاتق الفاطميين ، الذين تلكئوا فى إمداد أهلها بالقوات البحرية لصد الهجوم الصليبى عنها . فيذكر أنهم تقاعدوا عن نجدتها مدة طويلة ، وأن عسكر الفاطميين الذين أرسلوا لنجدة طرابلس مع الأسطول الفاطمى كانوا ضعافا ، وليس لديهم الخبرة الحربية الكافية ، وأن الوزير الأفضل لم يخرج بنفسه على رأس العساكر المصرية لنجدة طرابلس .

نتج عن سقوط طرابلس فى أيدى الصليبيين وانتزاعها من بنى عمار ، أن تيسر للصليبيين الاستيلاء على ما تبقى من معاقل إسلامية للفاطميين على السواحل الشامية للبحر المتوسط . كما استولى «تنكرد بن بوهيموند الأول» ـ أمير أنطاكية على مدينة «بانياس» ، وهو فى طريق عودته من طرابلس [5] ثم استولى على

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٧٩ .
(٢) أبو الفدا : المختصر جـ ٢ ص ٢٣٥ .
(٣) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٥ ص ١٧٩ .
(٤) أبو المحاسن : المصدر السابق جـ ٥ ص ١٧٩ .
(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦٣ — ١٦٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٨٠ ،

Grousset : Hist, Des Croisades, Tome I, P. 358.

« جبلة » فى نفس الشهر (يوليو ١١٠٩م) ، وبذلك صارت « بانياس » و «جبلة» فى حوزة أمارة أنطاكية الصليبية التى تأسست سنة ١٠٩٨ (١) .

أما فيما يتعلق بعسقلان - وكانت من القواعد الفاطمية البحرية فى جنوب فلسطين - فإن حاكمها « شمس الخلافة » طلب مهادنة بلدوين ، كما عرض عقد اتفاقية دفاعية معه ، على أن يؤدى إليه جزية سنوية معينة (٢) .

ولما بلغ الأفضل بن بدر الجمالى تخاذل « شمس الخلافة » والى عسقلان ، أنفذ إليها حملة كان غايتها عزل حاكمها ، وإحلال قائد الحملة محله (٣) . لكن « شمس الخلافة » لم يسمح لها بدخول عسقلان ، كما رفض مقابلة قائدها . وبذلك عادت الحملة أدراجها إلى القاهرة . ولم يمض غير قليل حتى ثار أهل عسقلان بحاكمهم وقتلوه (٤) . ولذلك رأت الحكومة الفاطمية أن ترسل حملة عسكرية لإقرار الأمور فى هذه المدينة(٥) .

ولقد حاول بلدوين ملك بيت المقدس التدخل ليحول دون دخول الفاطميين عسقلان ، لكن محاولته باءت بالفشل ، واستمرت هذه المدينة منذ المحرم سنة ٥٠٥هـ (يوليو ١١١١م) ولمدة أربعين سنة فى يد الفاطميين ، تمثل شوكة تقلق مضاجع الصليبيين فى بلاد الشام(٦) . فخرجت منها حملة كبيرة لحصار يافا براً فى مايو ١١٢٣م (ربيع الثانى ٥١٧هـ) ، بينما خرج الأسطول الفاطمى

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص١٦٥ ، ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ١٨٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ١٠ ص ١٨١ .

William of Tyre, Vol. 2, P. 81.

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧٢ .

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ١٠ ص ١٨٢ .

(٥) ابن الأثير : نفس جـ ١٠ ص ١٨٢ .

(٦) William of Tyer, Vol. 2, P. 219 & Runciman ; Hist. of Crusades Vol. 2, P. 95.

لمهاجمتها بحرا . لكن الفاطميين اضطروا للانسحاب إلى يبنا (بين يافا وعسقلان) ، ودارت فى « يبنا » معركة بين القوات الفاطمية والصليبية فى ٢٩ مايو ١١٢٣م ، انتهت للأسف بهزيمة القوات الاسلامية ممثلة فى الفاطميين كما أسرت بعض سفنهم [١] .

ولكن على الرغم من الضعف الذى كانت تعانيه الدولة الفاطمية ، فإنها لم تكن راضية أو مستسلمة لفقدان نفوذها فى المدن الساحلية ببلاد الشام ، على أيدى الصليبيين . فقامت قواتها سنة ٥٢٦ هـ (١١٣٢م) بالإغارة على يافا ، وسارت حتى مشارف أرسوف ، مستغلة ثورة «هيو الثانى» — حاكم يافا — ضد « فولك الأنجوى » ملك بيت المقدس (١١٣١ — ١١٤٤م / ٥٢٥هـ — ٥٣٩هـ) ، [٢] لكن الجيوش الصليبية خرجت من بيت المقدس لحماية يافا من هجوم الفاطميين عليها[٣] .

هكذا تعرضت الدولة الفاطمية فى مصر فى أواخر عهدها ، نتيجة لتدهور أحوالها الداخلية ، وعدم الاهتمام بالجيش والأسطول ، لعدة غارات بحرية . ففى سنة ٥٤٣هـ قدم « روجر النرمندى » ملك صقلية ، على رأس حملة بحرية هاجم بها مدينة الأسكندرية ونهبها ، ثم أقلع منها . وقد اضطربت الحال بمصر نتيجة هذا الهجوم [٤] . كما سارت حملة بحرية صليبية سنة ٥٤٥هـ (١١٥٠م) لمهاجمة مصر فى عهد الخليفة الظافر الفاطمى فنزلت على الفرما ، وأعملت فيها

---

(١) ابن الأثير : الكامل (بالمكتبة الصقلية ص ٢٨٤) .

Stevensen : The Crusaders in the East, p. 114.

(٢) وكان هيو الثانى على علاقة بالملكة ميلزاند بنت بلدوين الثانى زوجة فولك الانجوى .

(٣) William of Tyre, Vol. 2, p. 51 – 55 (G. de Tyre, T. 1, p. 627 – 633).

(٤) سرهنك : حقائق الأخبار جـ ٢ ص ١٤٧ ومحمد مختار إلهامى : التوفيقات ص ٢٧٢ .

نهبا وتخريبا ، ثم عادت إلى قواعدها في سواحل الشام [١] . كذلك عاود النرمان في صقلية إغارتهم على تنيس ورشيد والاسكندرية في جمادى الآخرة سنة ٥٥٠ هـ ، فألحقت حملتهم البحرية بهذه المدن كثيرا من الأضرار من نهب وإحراق وتخريب ، لكنها لم تستطع البقاء طويلا ، فأقلعت كسابقتها — عائدة إلى صقلية ، بسبب مقاومة أهل هذه المدن[٢] .

وفضلا عما تقدم ، فقد سارت قوات الفرنجة في بيت المقدس ، للإعتداء على دمياط ، ويعاونهم أسطول بيزنطي مزود بالمؤن والعتاد الحربي ، فوصلوا إليها في صفر سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م)[٣] . ولما بلغ صلاح الدين — الذي كان يتولى أمر الوزارة وقتذاك للخليفة العاضد الفاطمي — خبر هذه الحملة التي أنفذها الفرنجة إلى دمياط ، استقر رأيه على النهوض لصدهم ، كما حرص الخليفة العاضد على مده بالأموال اللازمة لقواته ، طوال مدة حصار قوات الفرنجة لدمياط[٤] .

لكن هؤلاء المعتدين على دمياط ، من الفرنجة والبيزنطيين ، لم يتمكنوا من تحقيق غرضهم ، فرجعوا خائبين دون أن يظفروا بشيء لوقوع الخلاف بين قوادهم ، فضلا عما بلغهم عن قيام نور الدين محمود بمهاجمة بعض النواحي التي في حوزتهم ببلاد الشام[٥] .

---

(١) المقريزي : الروضتين ص ٣٧٤ (ط . بيروت) .

(٢) المقريزي : خطط ج ١ ص ٣٧٨ ، أماري : المكتبة الصقلية ص ٥١ .

(٣) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٢٧ والمكتبة الصقلية ص ٤ — ٥ . ومما يذكره المقريزي أن الحملة وصلت دمياط في ربيع أول ، وليس في صفر سنة ٥٦٥ هـ . راجع الخطط ج ١ ص ٣٧٨ (ط . بيروت) .

(٤) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٨٠ وأماري : المكتبة الصقلية ٤ ، ٥ ، ٨ .

(٥) أبو شامة : الروضتين ج ١ ص ١٨٠ — ١٨١ والمقريزي : خطط ج ١ ص ٣٧٨ — ٣٧٩ (ط . بيروت) ، وأماري : المكتبه الصقلية ص ٥ ، ٥١ — ٥٢ .

وجه صلاح الدين اهتمامه — بعد تلك الحملة التى اشترك فيها الصليبيون مع البيزنطيين فى مهاجمة دمياط — إلى تحصين هذه المدينة ، حتى يتمكن من الوقوف فى وجه أى عدوان خارجى . فيذكر أبو شامه (١) : « ولما علم صلاح الدين شدة قصد العدو دمياط ، أنفذ إلى البلد وأودعه من الرجال والأبطال والفرسان والميرة وآلات السلاح ، ما أمِنَ معه عليه ، ووعد المقيمين فيه بإمدادهم بالعساكر والآلات ، وإزعاج العدو عنهم ، أن نزل عليهم ، وبالغ فى العطايا » . كما واصل صلاح الدين جهوده فى تحصين السواحل المصرية ، فسار فى ٢٣ شعبان سنة ٥٦٦ هـ إلى الأسكندرية ، ليرتب قواعدها (٢) .

أما عن الفرنجة فإنهم كانوا على يقين من أن الدولة الفاطمية آخذة فى الانحلال لا محالة ، وأن نجمها لا يلبث أن يزول . مما يتيح لهم الفرصة لتحقيق أطماعهم فى السيطرة على شرق البحر المتوسط . ولم يكن ذلك إلا بسبب قصور هذه الدولة عن العناية بقواتها البحرية والبرية ، فضلا عما تعرضت له من صعوبات داخلية ، عجلت بزوالها (٣) .

* * *

(١) أبو شامة : المصدر السابق جـ ١ ص ١٨١ .

(٢) أبو شامة : المصدر السابق جـ ١ ص ١٩١ .

(٣) ابن الأبار : الحلة السيراء (المكتبة الصقلية ص ٣٣٢) ، جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى جـ ١ ص ٢١٨ — ٢١٩ .

الأغالبة بأفريقيا (١٨٤ — ٢٩٦/٨٠٠ — ٩٠٩ م)

١ - ابراهيم الأول بن الأغلب ١٨٤ — ١٩٦ ﻫ

٢ — عبد الله الأول
١٩٦ - ٢٠١ ﻫ
٨١١ — ٨١٦ م

٣ — زيادة الله الأول
٢٠١ — ٢٢٣ ﻫ
٨١٦ — ٨٣٧ م

٤ — أبو عقال الأغلب
٢٢٣ — ٢٢٦ ﻫ
٨٣٧ — ٨٤٠ م

أحمد

٥ — محمد الأول أبو العباس
٢٢٦ — ٢٤٢ ﻫ
٨٤٠ — ٨٥٦ م

٦ — أحمد (٢٤٢-٢٤٩ﻫ)
(٧٥٦-٨٦٣ م)

٧ زيادة الله الثانى
(٢٤٩ — ٢٥٠ ﻫ)
(٨٦٣ — ٨٦٤ م)

٨ — محمد الثانى
٢٥٠ — ٢٦١ ﻫ
٨٦٤ — ٨٧٤ ﻫ

٩ — ابراهيم الثانى
٢٦١ — ٢٨٩ ﻫ
٨٧٤ — ٩٠٢ م

١٠ — عبد الله الثانى
٢٨٩ — ٢٩٠ ﻫ
٩٠٢ — ٩٠٣ م

١١ — زيادة الله الثالث
٢٩٠ — ٢٩٦ ﻫ
٩٠٣ — ٩٠٩ م

الفاطميون ٢٩٦/٢٩٧ ﻫ

ثبـــت

الخلفـــاء الفاطميون فى المغرب ومصر

مسلسل	اسم ولقب الخليفة	هجرية	ميلادية
١	المهدى : « أبو محمد عبيد الله »	٢٩٧	٩٠٩
٢	القائم : « أبو القاسم محمد بن عبد الله » .	٣٢٢	٩٣٤
٣	المنصور : « أبو طاهر اسماعيل بن أبى القاسم محمد » .	٣٣٤	٥٤٥
٤	المعز لدين الله : « أبو تميم معد بن المنصور »	٣٤١	٩٥٢
٥	العزيز بالله : « أبو منصور نزار بن المعز لدين الله »	٣٦٥	٩٧٥
٦	الحاكم بأمر الله : أبو على المنصور . . .	٣٨٦	٩٩٦
٧	الظاهر : أبو الحسن على . . .	٤١١	١٠٢٠
٨	المستنصر بالله : « أبو تميم معد بن الظاهر »	٤٢٧	١٠٣٥
٩	المستعلى بالله : « أبو القاسم أحمد بن المستنصر »	٤٨٧	١٠٩٤
١٠	الآمر بأحكام الله : أبو على المنصور بن المستعلى .	٤٩٥	١١٠١
١١	الحافظ لدين الله : « أبو الميمون عبد المجيد » .	٥٢٤	١١٣٠
١٢	الظافر : « أبو المنصور اسماعيل »	٥٤٩	١١٤٩
١٣	الفائز بنصر الله : أبو القاسم عيسى	٥٤٤	١١٥٤
١٤	العاضد لدين الله : أبو محمد عبد الله .	٥٥٥	١١٦٠
		٥٦٧	١١٧١

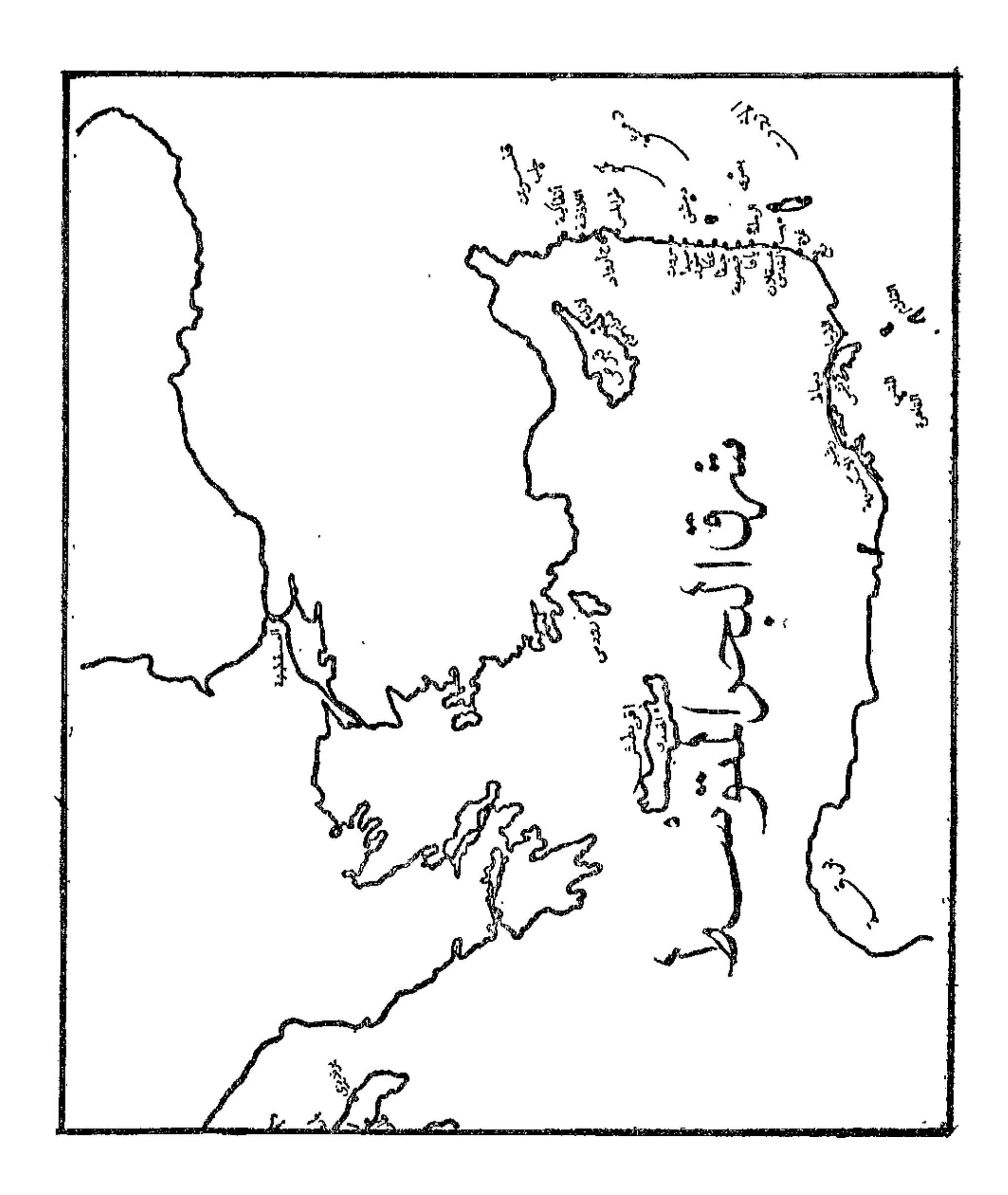
ثبت

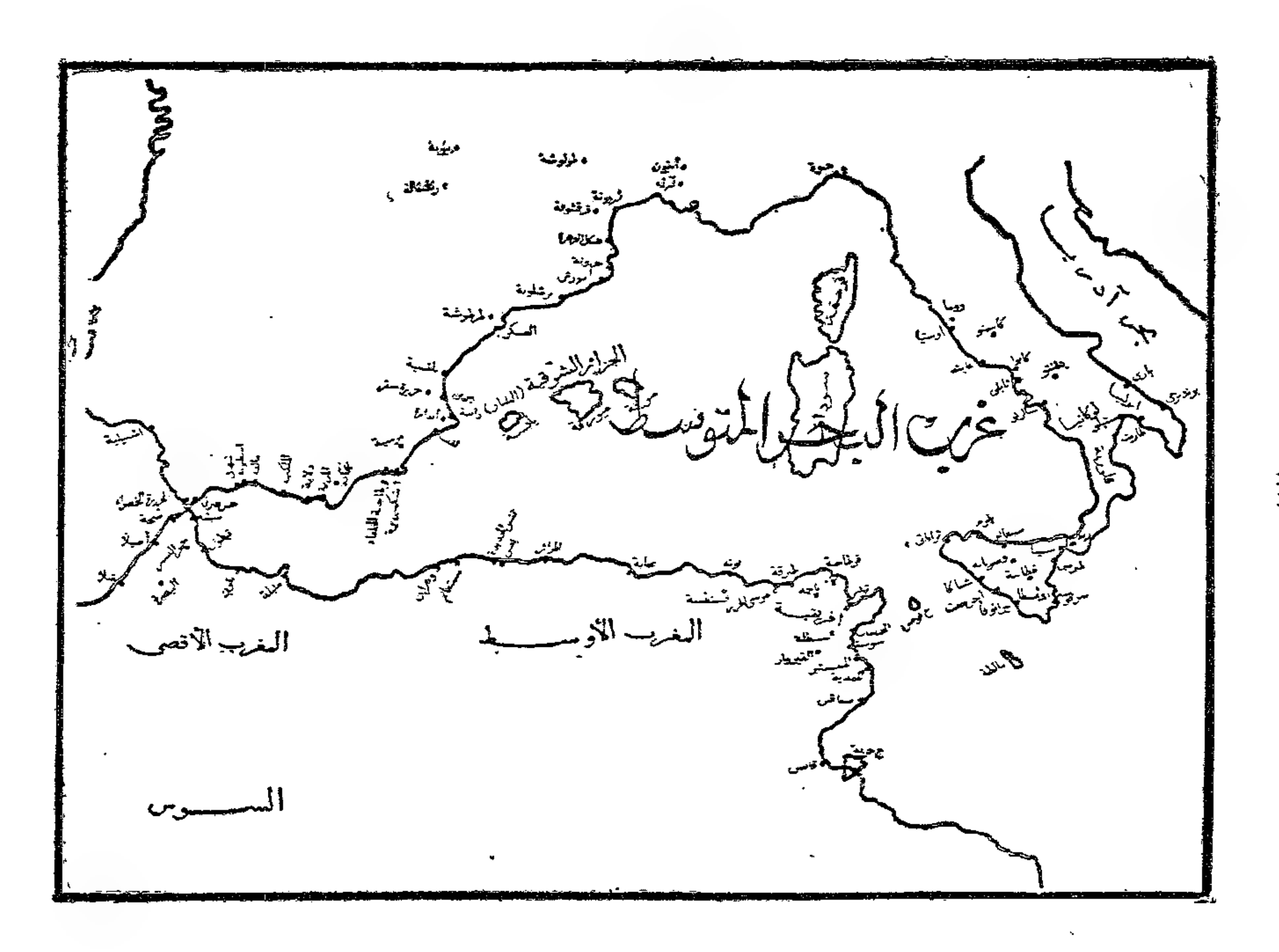
بأسماء أمراء (ولاة) صقلية (١)

مسلسل	اسم الأمير أو الحاكم	فترة ولايته
١	الحسن بن أحمد بن أبى خنزير	٢٣٦ — ٢٩٩ هـ
٢	على بن عمر البلوى	٢٩٩ — ٣٠٠ هـ
٣	أحمد بن زيادة الله بن قرهب (وهب) — أعلن طاعة العباسيين) .	٣٠٠ — ٣٠٤ هـ
٤	أبو سعيد موسى بن أحمد الضيف	٣٠٤ — ٣١٣ هـ
٥	إسحق بن أبى منهال	
٦	سالم بن أبى راشد	٣١٣ — ٣٢٥ هـ
٧	ابى العباس خليل بن إسحق	٣٢٥ — ٣٢٩ هـ
٨	عطاف الأزدى	٣٢٩ — ٣٣٦ هـ
	الولاة من الأسرة الكلبية ومقرهم مارزا (Mazara)	
٩	الحسن بن على بن أبى الحسن الكلبى	٣٣٦ — ٣٤١ هـ
١٠	أبو الحسين أحمد بن الحسن بن على الكلبى	٣٤١ - ٣٥٣ هـ
١١	الحسن بن على الكلبى (مرة ثانية)	٣٥٣ - ٣٥٣ هـ
١٢	يعيش (مولى الحسن بن على الكلبى)	٣٥٣ — ٣٥٩ هـ
١٣	أبو القاسم على بن الحسن بن على الكلبى (الحرب فى قلورية . . . . . .)	٣٥٩ — ٣٧١ هـ ٣٦٥ هـ
١٤	جابر بن أبى القاسم على . .	٣٧١ - ٣٧٣ هـ
١٥	جعفر بن محمد بن أبى القاسم على	٣٧٣ — ٣٧٥ هـ
١٦	عبد الله (أخو جعفر)	٣٥٧ - ٣٧٩ هـ
١٧	أبو الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد بن أحمد ابن الحسن (اعتزل ٣٨٨ هـ)	٣٧٩ — ٣٨٨ هـ

(١) راجع زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة جـ ١ ص ١٠٧ — ١٠٨

مسلسل	اسم الأمير أو الحكم	فترة ولايته
١٨	جعفر بن يوسف (تاج الدولة) ـ غادر صقلية ٤١٠هـ	٣٨٨ — ٣٨٨ هـ
١٩	أحمد الأكحل بن يوسف (تأييد الدولة) ـ الثائر	٣٨٨ — ٤٠٥ هـ
٢٠	على بن يوسف (الثائر) قتل ٤٠٥ هـ	٤٠٥ — ٤٠٥ هـ
	(قامت ثورة فى بلرم ، غادر بعدها يوسف وولده جعفر الجزيرة ٤١٠ هـ)	٤١٠ هـ
٢١	أحمد الأكحل بن يوسف (مرة ثانية)	٤١ — ٤١٦ هـ
٢٢	غارات النورمنديين على صقلية	٤١١ هـ
٢٣	الحسن الصمصام بن يوسف	٤١٦ — ٤٢٧ هـ
٢٤	محمد بن الثمنة (القادر بالله) مغتصب الولاية وقد استدعى الزيريين ، ثم استعان بالنورمان من جنوب إيطاليا ، ٤٤٤ هـ ،	٤٢٧ — ٤٤٤ هـ ٤٤٤ هـ
	أول غزو نرمندى للجزيرة	٤٤٤ هـ
٢٥	تدخل تميم بن المعز بن باديس بن زيرى بن مناد الصنهاجى.	٤٤٤ — ٤٦١ هـ




غرب البحر المتوسط
بحر أدرياتيك
الجزائر الشرقية (البليار)
المغرب الأوسط
المغرب الأقصى
السوس

مصادر الرســـالة

١ ـ المصادر العربيـة

(أ) المصــادر العربية القديمة :

المخطوطات العربية القديمة :

١ ـ ابن الأخوة ، محمد بن محمد بن أحمد القرشى «ت ٧٢٩ هـ/ ١٣٢٩م»
ـ معالم القربة فى أحكام الحسبة ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القــاهرة .

٢ ـ ابن بسام ، شمس الدين محمد بن الشيخ شهاب الدين المعروف بابن بسام المحتسب التنيسى .
ـ الأنيس الجليس فى أخبــار تنيس (قطعه فى أول أمالى أبى على القالى) . مخطوط بدار الكتب والوثائق المصرية ، ٨٥ ورقة . تحت رقم أدب ١٨٥٢ ـ عمومية ٤١١٤٥ .

٣ ـ العينى ، بدر الدين أبو محمد بن محمود بن أحمد بن موسى العينى الحنفى (ت ٨٥٥ هـ)
ـ عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان . مخطوطه مصورة بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ١٥٨٤ / تاريخ .

٤ ـ النعمان ، أبو حنيفة بن أبى عبد الله بن محمد بن أحمد بن حيون (ت ٣٦٣ هـ / ٧٧٣ ـ ٩٧٤ م)
ـ المجالس والمسايرات : مخطوط مصـــور بمكتبة جامعة القاهرة . يوجد منه نسختان : الأولى تحت رقم ٣١٠٦٠ ، والأخرى تحت رقم ٤٦٤٢٨ وهى مصورة عن نسخة حيدر آباد ـ الدكن ـ الهند (٤٤٠ ورقة) .

٢ — الكتب العربية القديمة

٥ — ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى المعروف بابن الأبار « ت ٦٥٨ ﻫ / ١٢٦٠ م »

— الحلة السيراء : تحقيق دكتور حسين مؤنس ، جزءان ، القاهرة ١٩٦٣ — ١٩٦٤ م .

٦ — ابن الأثير : أبو الحسن على بن أحمد بن أبى الكرم محمد بن محمد ابن عبد الكريم عبد الواحد الشيبانى . « ت ٦٣٠ﻫ/١٢٣٢م »

— الكامل فى التاريخ . طبعة بريل ، ليدن ، ١٨٥١ — ١٨٧٦ م نشر C.J.Tornberg (١٤ جزءاً) وطبعة القاهرة ، ١٢٧٤ ﻫ وطبعة أخرى — القاهرة ، ١٢٩٠ ﻫ

٧ — الإدريسى : محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوى (ت٦٤٩ﻫ/ ١٢٥١م)

— صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (وهو مأخوذ من نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) طبعة بريل، ليدن ، ١٨٩٤ ، ١٩٦٨ م .

٨ — مختصر كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق . ط . روما . ١٥٩٣ (ربما تكون ١٩٥٢ م) .

٩ — أسامة بن منقذ ، مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكنانى الشيرزى (ت ٥٨٤ ﻫ / ١١٨٨ م) .

— كتاب الاعتبار (أو حياة أسامة بن منقذ) . ط . جامعة برنستون، الولايات المتحدة ، ١٩٣٠ م ، وطبعة باريس ١٨٨٩ م .

١٠ — الأصطخرى : ابو إسحق ابراهيم بن محمد الفارسى الأصطخرى المعروف بالكرخى (ت ٣٤٦ ﻫ / ٩٥٧ م)

— مسالك الممالك ، نشر دى غوية ، ضمن المجموعة الجغرافية العربية Bibl. Arabicorum Geographorum الجزء الأول من المجموعة ليدن ، ١٩٢٧ ، ١٩٦٧ م .

١١ — الانطاكى : يحيى بن سعيد بن الانطاكى (ت ٤٥٨ هـ/١٠٦٦ م)
— صلة كتاب أوتيخا أو تاريخ سعيد بن بطريق . نشرة Vasiliev
فى مجموعة Patrologia Orientalis (بمكتبة دير الآباء
الدومنيكان ، القاهرة ، تحت رقم 2893/1-F-16 & 2901/1-F-16

١٢ — البكرى : أبو عبيد الأندلسى (ت ٤٨٧ هـ/١٠٩٧ م)
— المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، طبعة دى سلان
De Slane ، الجزائر ، ١٩١١ م .

١٣ — البلاذرى : أحمد بن يحيى بن جابر ، المعروف بالبلاذرى . .
(ت ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م)
— كتاب فتوح البلدان : نشره ووضع ملاحقه وفهارسه الدكتور
صلاح الدين المنجد ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٦ / ١٩٥٧ م

١٤ — البلوى : أبو محمد عبد الله بن محمد المدينى البلوى (ت ٣٣٠هـ/٩٤١م)
— سيرة أحمد بن طولون ، نشر محمد كرد على ، دمشق ١٣٥٨ هـ

١٥ — ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى
(ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩ م)
— النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . دار الكتب المصرية ،
القاهرة ، ١٣٥٢ هـ/ ١٩٣٣ م — ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩ م
(٨ أجزاء)

١٦ — ابن جبير ، أبو الحسن محمد أحمد الكنانى (ت ٦١٤ هـ/١٢١٧م)
— رحلة ابن جبير . طبعة بريل ، ليدن ، ١٨٥٢ ، نشرها
W. Wright ، وحققها دى غوية ضمن مجموعة Gibb Memorial
Series, V. 1907. ، ولسخة أخرى طبعة بيروت .

١٧ — الجوذرى ، أبو على منصور العزيزى الجوذرى (توفى حوالى سنة ٣٨٦هـ)
— سيرة الأستاذ جوذر ، وبه توقيعات الأئمة الفاطميين (سلسلة

مخطوطات الفاطميين - ١١) تقديم وتحقيق الدكتورين محمد كامل
حسين ، محمد عبد الهادى شعيرة ، القاهرة ١٣٧٤ ﻫ / ١٩٥٤ م .

١٨ — ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبى (ت ٣٦٧ﻫ ٩٧٧م)
— كتاب صورة الأرض . ط. بريل ، ليدن ، ١٩٦٧ م ، نشر
J.H. Kramers ضمن المجموعة الجغرافية العربية . (B.A.G.)

١٩ — ابن خرداذبة : عبد الله بن أحمد بن خرداذبة أبو القاسم
(ت ٢٨٠ ﻫ / ٨٩٣ م)
— كتاب المسالك والممالك : نشر دى غويه (المجموعة الجغرافية)
العربية ج ٦ ، بريل ، ليدن ١٩٦٧ م .

٢٠ — ابن خلدون : ولى الدين ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى ،
(ت ٨٠٨ﻫ / ١٤٠٦ م)
— العبر وديوان المبتدأ والخبر . بولاق ، القاهرة ، ١٢٨٤ﻫ / ١٨٦٧
(٧ أجزاء)

٢١ — ابن خلكان : شمس الدين أحمد (ت ٦٨١ ﻫ / ١٢٨١ م)
وفيات الأعيان . القاهرة ، ١٣١٠ ﻫ

٢٢ — ابن الداوادارى ، أبو بكر عبد الله بن أيبك (القرن الثامن الهجرى)
— الدرة المضيئة فى أخبار الدولة الفاطمية : تحقيق صلاح الدين المنجد
المعهد الألمانى للآثار ، القاهرة ١٣٨٠ ﻫ / ١٩٦١ م (الجزء
السادس من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر) .

٢٣ — ابن الداية : أبو جعفر أحمد بن يوسف الكاتب
(ت ٣٣٠ﻫ / ٩٤١ - ٩٤٢ م)
— المكافأة ضبطه وصححه أحمد أمين ، وعلى الجارم ، طبعه أولى ،
بولاق ، القاهرة ، ١٩٤١ م .

٢٤ — ابن أبى دينار ، أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى
المعروف بابن أبى دينار . (ت ١١١٠ﻫ / ١٦٩٨ م)

ــ كتاب المؤنس في أخبار أفريقية وتونس . مطبعة الدولة التونسية ، تونس ، ط . أولى ، ١٢٨٦ هـ .

٢٥ ــ ابن رستة : أبي على أحمد بن عمر
ــ كتاب الأعلاق النفيسة (ومعه كتاب البلدان لليعقوبي من ص٢٣٢ - ٣٧٣) ، لنشرة دى غويه ، بريل ، ليدن ، ١٨٩١ ، ١٩٦٧ م .

٢٦ ــ سبط ابن الجوزى : يوسف قزاغلي أو فرادغلي (ت ٦٥٤ هـ)
ــ مرآة الزمان : حيدر آباد ، الدكن ، الهند ، ١٩٥١ ــ ١٩٥٢ (القسمان الأول والثاني من الجزء الثامن) .

٢٧ ــ ابن سعيد : أبو الحسن على بن موسى « الأندلسى المغربى » (ت ٦٨٥ أو ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م)
ــ المغرب في حلى المغرب . طبعة مصر ، ١٩٥٣ م (جزءان)

٢٨ ــ السلاوى : الشيخ أحمد بن خالد الناصرى (١٢٠٠ - ١٣١٥ هـ / ١٨٣٥ - ١٨٩٧ م)
ــ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى . القاهرة ، ١٣١٠ ــ ١٣١٢ هـ (٤ أجزاء) .

٢٩ ــ السيوطى : عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين (ت ٩١١ هـ/١٥٠٥م)
ــ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، القاهرة ، ١٣٢٧ هـ .

٣٠ ــ أبو شامة : عبدالرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان بن شهاب الدين الملقب « بأبي شامة » الدمشقي الشافعي (ت ٦٦٥ هـ/١٢٦٧-١٢٦٨م) .
ــ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية . مطبعة وادى النيل ، مصر ، ١٢٨٧ ــ ١٢٨٨ هـ (جزءان في مجلد)

٣١ ــ ابن شداد : القاضى بهاء الدين (ت ٦٣٢ هـ)
ــ كتاب سيرة صلاح الدين الايوبى « المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » . القاهرة ، ١٣١٧ هـ

٣٢ — الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ/٩٢٢م)
— تاريخ الأمم والملوك . نشرة دى جويه De Goeje وآخرون ، بريل ، ليدن ، ١٨٧٩ - ١٩٠١ م (وطبعة من نفس النسخة بالأوفست ١٩٦٨) - (١٥ جزءاً) .

٣٣ — ابن عبد الحكم : أبو القاسم عبد الرحمن القرشى المصرى (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م)
— كتاب فتوح مصر والمغرب والأندلس . نشرة Charles,C.Torrey نيو هافن New Haven ، ١٩٢٢ م (وطبعه أخرى ، بريل ، ليدن ، ١٩٢٠ م) .

٣٤ — ابن عذارى : أبو عبد الله محمد المراكشى (ت آخر القرن السابع الهجرى)
— البيان المغرب فى أخبار المغرب . مكتبة صادر ، بيروت ١٩٥٠ ، (جزءان فى مجلدين)

٣٥ — عز الدين أبو عبد الله محمد بن على الحلى « ابن شداد » (ت ٦٨٤ هـ)
— الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة . نشره سامى الدهان ، المعهد العلمى الفرنسى ، دمشق ، ١٩٦٢ م .

٣٦ — عمارة اليمنى : أبو محمد بن أبى الحسن على بن زيدان بن أحمد الحكمى اليمنى الملقب بنجم الدين (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م)
النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية . نشره Hartwig Derenbourg ، باريس ، ١٨٩٧ م .

٣٧ — أبو الفدا ، الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماه (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م)
— كتاب المختصر فى أخبار البشر ، المعروف بتاريخ أبى الفدا ، طبعة استانبول ، ١٢٨٦ هـ (٤ أجزاء فى مجلد واحد)

٣٨ — ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن على بن محمد (٧٣٥ - ٨٠٧هـ / ١٣٣٥ - ١٤٠٥) م

— تاريخ ابن الفرات ، تحقيق د . قسطنطين زريق ، نجلاء عز الدين
طبعة بيروت ، ١٩٣٩ م . (أجزاء ٩،٨،٧)

٣٩ — ابن القلانسى ، أبو يعلى حمزة بن أسد بن على بن محمد التميمى الدمشقى
(ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م)
— ذيل تاريخ دمشق . مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨ م .

٤٠ — القلقشندى : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على (ت ٨٢١ هـ/١٤١٨ م)
— صبح الأعشى فى صناعة الانشا . القاهرة المطبعة الأميرية ،
١٣٣١ - ١٣٣٨ هـ / ١٩١٣ - ١٩١٨ م .

٤١ — الكندى ، أبو عمر محمد بن يوسف (ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م)
— كتاب الولاة وكتاب القضاة . نشره : Rhuven Guest
ضمن مجموعة جب (Gibb Mem. Vol. 19.London 1912)

٤٢ — المراكشى ، محي الدين أبو محمد عبد الواحد بن على التميمى
(ت ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م)
— كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب . طبعة دوزى ، بريل ،
ليدن ١٨٨١ م .

٤٣ — المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى (ت ٣٤٦ هـ)
— مروج الذهب ومعادن الجوهر . باريس ، ١٨٦١ - ١٨٧٧ م
٩ أجزاء .

٤٤ — المقدسى ، شمس الدين أبو عبد الله البشارى (ت ٣٨٧ هـ)
— أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . نشر دى غوية ضمن المجموعة
الجغرافية العربية ، (ج ٣ من المجموعة) ، بريل ، ليدن
١٨٧٦ م ، ١٩٦٧ م .

٤٥ — المقريزى : تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد (ت ٨٤٥ هـ)

— المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بالخطط المقريزية . طبعة مكتبة إحياء العلوم ، لبنان ، ١٩٥٩ م — (٣ أجزاء) ونسخة أخرى طبعـــة بولاق ، ١٢٧٠ هـ (جزءان) ط . النيل بمصر ، ١٣٢٥ هـ (٤ أجزاء) .

٤٦ — اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق ونشر د. جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٣٦٧ هـ ، ١٩٤٨ م .

٤٧ — ابن مماتى ، أسعد بن خاطر مماتى « الوزير الأيوبى » [ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩ م] .

— كتاب قوانين الدواوين . حققه عزيز سوريال عطية ط . القاهرة ، ١٩٤٣ م .

٤٨ — ابن ميسر ، محمد بن على بن يوسف بن جلب [٦٧٧هـ / ١٢٧٨ م] .

— تاريخ مصر . نشر هنرى ماسيه Henri Masse القاهرة ، ٩١٩ م (جـ ٢ من ٤٣٩ حتى ٥٥٣ م) .

٤٩ — ناصر خسرو ، علوى [ت ٣٨١ هـ / ١٠٠٨م]

— سفرنامة : ترجمة وتعليق الدكتور يحى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥م (١٢٦٤ هـ) ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٥٠ — النويرى : أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣ هـ / ١٢٣٢م)

— نهاية الأرب فى فنون الأدب . دار الكتب والوثائق المصرية ، القاهرة ١٩٢٣ — ١٩٢٥ [١٢ جزءاً فى ١٢ مجلد] .

٥١ — ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم [ت ٦٩٧ هـ]

— مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب . نشره وحققه د . جمال الشيال ، طبعة جامعة القاهرة ، ١٩٥٣ — ١٩٥٧ م ، (جزءان) .

٥٢ — ياقوت الحموى ، شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى (ت ٦٢٦ هـ)
— معجم البلدان ، ط ، مصر ، ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٦ م (٨ أجزاء) ،
ط . ليبزج ، نشرها وستنفيلد ، ١٨٦٦ - ١٨٧٣ م ،
Sachindex Von Oscar Rescher شتوتجارت ، ١٧٧٨م .

٥٣ — اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب بن واضح المعروف باليعقوبى (ت بعد ٢٩٢ هـ)
— تاريخ اليعقوبى . نشره هوتسما M. Th. Houtsma ، بريل ، ليدن ، ١٨٨٣ م (جزءان) .

٥٤ — كتاب البلدان : نشر دى غويه ضمن المجموعة الجغرافيـــة العربية (الجزء السابع) ، مع كتاب الاعلاق النفسية لابن رسته ، ط. بريل ، ليدن ، ١٨٩١ - ١٨٩٢م (وطبعة أخرى بالأوفست من نفس النسخة ١٩٦٧ م) .

(ب) المصادر العربية الحديثة :

١ — الكتب الحديثة :

٥٥ — ابراهيم أحمد العدوى « دكتور »
. الأمويون والبيزنطيون « البحر المتوسط بحيرة إسلامية » . ط . ثانية ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .

٥٦ — المسلمون والجرمان « الإسلام فى غرب البحر المتوسط » ، ١٩٦٠م

٥٧ الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٥١ م .

٥٨ — الأساطيل العربية فى البحر المتوسط ، القاهرة ، ١٩٥٧ م .

٥٩ — إحسان عباس
— العرب فى صقلية . دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٩ .

٦٠ — أرشيبالد : لويس

— القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط . نقـله إلى العربية أحمد محمد عيسى ، راجعه وقدم له الأستاذ محمد شفيق غربال ، القاهرة ، ١٩٥٦ م .

٦١ — أسد رستم

— الروم « فى سياستهم وحضـارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب » دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٥٥ م (جزءان فى مجلدين) .

٦٢ — اسماعيل سرهنك

— حقائق الأخبار عن دول البحار . بولاق ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٣١٢ ، ١٣١٤ ، ١٣٤١ ﻫ / ١٩٢٣ م (ثلاث أجزاء)

٦٣ — آمارى ، ميخائيل Amari, Michael

— المكتبة العربية الصقلية (Bibliotheca Arabo Secula) « نصوص فى التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع » حققها وجمعها المستشرق ميخائيل أمارى . طبعة معادة بالأوفست ، مكتبة المثنى ، بغداد (عن طبعة ليبسك) ، ١٨٥٧ م .

٦٤ — حتى : فيليب

— تاريخ العرب (مطول) نقله إلى العربية ، إدورد جرجى ، جبرائيل جبور ، دار الكشاف للنشر والطباعة ، بيروت ، ١٩٦١ م (جزءان)

٦٥ — تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، نقله إلى العربية ، كمال اليازجى ، إشراف جبرائيل جبور . نشر دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٩ م . (جزءان)

٦٦ — حسن ابراهيم حسن « دكتور »

— تاريخ الإسلام السياسى النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٦٧ م (٤ أجزاء)

٦٧ — تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب . النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .

٦٨ — عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية فى المغرب. النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٧ م .

٦٩ — المعز لدين الله . النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٧ م .

٧٠ — حسن أحمد محمود «دكتور»

— تاريخ المغرب الإسلامى « الأندلس - المغرب » (من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة) . القاهرة ، ١٩٦٨ م .

٧١ — حسن حبشى «دكتور»

— نور الدين والصليبيون . القاهرة ، ١٩٤٨ م

٧٢ — الحرب الصليبية الأولى . دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٤٧ م

٧٣ — راشد البراوى «دكتور»

— حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين. القاهرة، ١٣٦٨ هـ/١٩٤٨م

٧٤ — زيدان ، جرجس

— تاريخ التمدن الإسلامى . القاهرة ١٩٥٨ م (٥ أجزاء)

٧٥ — سعاد ماهر «دكتور»

— البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية . دار الكاتب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

٧٦ — سعيد عبد الفتاح عاشور «دكتور»

— أوربا العصور الوسطى : النهضة المصرية ، ١٩٥٨ جـ ١

٧٧ — الحركة الصليبية : الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣ (جزءان)

٧٨ — السيد عبد العزيز سالم «دكتور»

— تاريخ الاسكندرية وحضارتها « فى العصر الإسلامى حتى الفتح العثمانى » . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦١ م .

٧٩ — تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس . دار المعارف ، لبنان ، ١٩٦٢م .
٨٠ — طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى . مطابع رمسيس ، الاسكندرية ١٩٦٧ م .
٨١ — السيد الباز العرينى «دكتور»
— الدولة البيزنطية (٣٢٣ - ١٠٨١م) . النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٠ م .
٨٢ — الشيال ، جمال الدين «دكتور»
— مجموعة الوثائق الفاطمية . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٥ م ، جـ : (١)
٨٣ — مصر والشام بين دولتين (٥٥٨ - ٥٦٩ هـ) ، القاهرة ، ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م .
٨٤ — مجمل تاريخ دمياط «سياسياً واقتصادياً» . الاسكندرية ، ١٩٤٩ م
٨٥ — عبد المنعم ماجد «دكتور»
— نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر . الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٣ م .
٨٦ — فازيليف ، أ . أ .
— العرب والروم . ترجمة دكتور محمد عبد الهادى شعيرة ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٥٠ م .
٨٧ — متز ، آدم .
— الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى . ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م (جزءان)
٨٨ — محمد جمال الدين سرور «دكتور»
— سياسة الفاطميين الخارجية . دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧ م
٨٩ — الدولة الفاطمية فى مصر . . . . دار الفكر العربى القاهرة ، ١٩٦٥ - ١٩٦٦ م

٩٠ — تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق «من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجرى» . القاهرة ، ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م .

٩١ — دراسات فى العلاقات السياسية بين دول الشرق الإسلامى والدولة البيزنطية فى العصور الوسطى . (بحث) ، دار الفكر العربى ، القاهرة ١٩٦٠ م .

٩٢ — مختار باشا : اللواء المصرى

— كتاب التوفيقيات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية . ط . أولى ، ١٣١١ هـ/ ١٨٩٣ - ١٨٩٤ م .

٢ - ابحاث نشرت فى بعض المجلات العربية

مجلة الآداب - جامعة القـــاهرة

٩٣ - حسن ابراهيم حسن «دكتور»

- The Relations Between the Fatimids in North Africa and the Umayyads In Spain During the 4th Century A. H. (10th Century A. D,)

العدد العاشر، ديسمبر ١٩٤٨ م.

٩٤ - سعيد عبد الفتاح عاشور «دكتور»

- بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس فى عصر الحروب الصليبية المجلد السابع والعشرين، ١٩٦٥ - ١٩٦٦ م.

المجلة التاريخيـة المصرية :

٩٥ - حسين مؤنس «دكتور»

- المسلمون فى حوض البحر المتوسط. عدد مايو، ١٩٥١ م.

٩٦ - الشيال، جمال الدين «دكتور»

- تاريخ مدينة الاسكندرية من أقدم العصور حتى الوقت الحاضر «دراسة طبوغرافية». عدد أكتوبر، ١٩٤٩ م.

مجلة معهد الدراســـات الإسلامية، بمدريد :

٩٧ - أحمد مختار العبادى

- سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس، المجلد الخامس، ١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٧ م.

FOREIGN RESOURCES OR REFERENCES

I — Encyclopaedies :

1 — **Cambridge Medieval History.**, England, 1913.

2 — **Encylopaedia Britanica.** Ed. by : William Benton, publ., Chicago, 1960 (24 Vols. + Volume of world Atlas).

3 — Encyclopaedia of Islam, Brill, Leyden.

II — Books In Foreign Languages :

4 — Aly, Moh. Fahmy :

— Muslim 'Naval Organistion in 'the Easterm Medit. erranean from the 7th. to 10th. Century A. D.

5 — Muslim Sea – power in the Medit.

6 — Amari, Michaele :

— I Dipolmi Arabi del R. Archivio florentino, In Firenze, 1863.

7 — Storia dei Musulmani di Sicilia «1st Ed», Firenze, 1854—1872 & 2nd Ed., Revised by C. A. Nallino, Catane, 1933 – 1937 (3 Vols).

8 — **The Story of the Nations, Vol. 40 :**

Archer, T. A. & Kingsford, Charles :

— The Crusades. London, 3rd. Ed., 1849

9 — Benjamin of Tudela :

— The Itinerary of Rabbi Bejamin of Tudela. Tr. & Ed. by A. Asher, New york, 1840 (2 Vols).

10 — Brehier, Louis :

— Le Monde Byzantin «Vie et Mort de Buyzance» A Michele Co, Paris, 1947.

11 — Bury, T. B.

— A Hist. of the Eastern Roman Empire «from the fall of Irene to the accession of Basil I 802-867 A.D. London., 1912.

12 — Chalandon, F.

— Histoire de le 1ére Croisade jusqua l'election de Godefroi de Bouillon. A. Picard, 1925.

13 — Reinhard, Dozy :

— Hist. des Musulmans d'Espagne de 711 à 1110 (Jusqu' à La conquete Andalousie Les Almoravides). Leyden, E. J. Brill, 1961.

14 — Finlay :

— History of Greece from the conquest by the the Romans to the present times (146 D. C. — 1864 A. D.) Oxford, 1877 (7 Vols.)

15 — Goitein, S D.

— Studies in Islamic History & Institution. leyden, Brill, 1968.

16 — Grousset, R.

— Histoire des Croisades et due Royaume Franc de Jerusalem, Paris, 1943-1946 & 1934-1936 (3 Tomes).

17 — Heyd, W.

— Hist. du commerce du levant au Moyen Age. Tr. F. Raynaud, Leipzig, 1923 (2 Tomes)

18 — Hill, G. A.

— History of Cyprus to the conquest by Richard leon Heart., Cambridge, 1940, 1948 (3 Vols).

19 — Lane-Poole, Stanley :

— A History of Egypt in the Middle ages. Methuen Co., Ltd., London, 1901.

20 — Saladin & the Fall of the Kingdom of Jerusalem.

G. P. Putman's & Sons, New York, 1898 (Heroes of Nations)

21 — Margoliouth, D. S.

— Catalogue of Arabic Papyri in John Rylands Library Manchester, 1933.

22 — Michand, Joseph Français.

— Hisioire des Croisades. Paris, 1813-1822 (7 Tomes).

23 — Muir, Sir W.

The Caliphate : Its rise, Decline and Fall. Edinhurg, 1915.

24 — Schlumbergsr, G.

— Un Empreur Byyzantine au 10 éme Siecle «Nicephore Phocas», Paris, 1923.

25 — Stenvenson, W. B.

— The Crusaders in the East. Cambridge, 1907.

26 — Wiet, Gaston et Henri Munier

— L'Egypt Byzantine et Musulamane. (Imp de L'Instit,

Français d'Archeologie Orientale), Caire, 1932.
Precis de l'Hist. d' Egypte.
(Par Divers Historiens et Archeologues).

27 – William of Tyre (Guillaume de Tyre (D. 1184-1185 A D)
— A History of deed done beyond the sea. Columbia, New York, 1943. (2 Voles).

III – Foreign Periodicals :

a) Journal Asiatique :

28 – Canard, M. : Expeditions Arabes. 1929).

29 — Canard, M. : Expeditions des Arabes Contre constantinople (1925-1926).

b) Byzantion :

30 – Gregoire, H. : Etudes Sur Le 9éme Siecle. (Vol. 8, 1933).

c) Journal of Hellenic Studies.

31 — Brooks, E. W. : The Campaign of 716-718), From Arabic Sources (Vol. 19, 1898—1899).

32 — d) English Historical Review :

— Brooks, E. W.
— The Arab Occupatiou of Grete. (Vol. 28, 1913).

e) Speculum :

33 — Kruger, H. C.
— The wares of Exchange in Genoese African Traffic of 12th Century (Vol. 12, 1937).

34 — Kruger, H. C.

— Genoese Trade with N. W. Africa in the 12th. Century» (Vol. 8, 1933).

f) Islamic Culture :

35 — Nadvi, Sayed Syliman.

Arab Navigation (Vols. 15,16/1941 – 1942).

فهــــرس المحتويات

الباب الثانى

صفحة

الباب الثالث

صفحة

الباب الرابع

الباب الخامس

صفحة

الجداول

الخرائط